اليهود و إسرائيل (١)

اليهود واليهودية في العصور القديمة

بين التكوين السياسي وأبدية الشتات

ترجمة وتقديم

د. رشاد الشامي





المكتب المصري لتوزيع المطبوعات

اليهود واليهودية فى العصور القديمة

(بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات)

ترجمة وتقديم

دكتور/ رشاد عبد الله الشامى

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

الكتاب: اليهود واليهودية فى العصور القديمة

(بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات)

ترجمة وتأليف: دكتور/ رشاد الشامى

عن كتاب «السلام فى الأرض المقدسة

تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين»

فون باجوت جلوب

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٢٠٨٥

الترقيم الدولى: ISBN

977--5841-50--x

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة ـ نشر ـ تصدير كتب)

الإدارة: ٥ ش مصطفى طموم ـ المنيل ـ القاهرة

تليفاكس: ٣٦٤٥٤٨٧

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب الذى أقدمه للقارىء العربى تحت عنوان «اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين وهم الكيان السياسى وأبدية الشتات»، هو كتاب ألفه ونشره فون باجوت جلوب، تحت عنوان «السلام فى الأرض المقدسة، تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين» بالإنجيليزية إبان الستينيات، وقد أتيح لى أن أطلع عليه فى حينه، واستفدت منه كثيرا دون أن أدقق كثيرا فى منهجه ثم وضعته فى ملف خاص ونسيته تماما. وعندما عنّ لى أن أقدم للقارىء العربى مؤلفا يتناول تاريخ بنى إسرائيل واليهود فى العصور القديمة لسد الفراغ فى هذا المجال فى المكتبة العربية، تذكرت هذا الكتاب فأخرجته من الأضابير وعكفت على قراءته مرات ومرات مدونا ملاحظات على هوامشه إلى أن اكتشفت أن هناك خطان يربطان بين صفحاته يسيران بالتوازى هما: خط تطور الانغلاق الدينى وخط التبلور السياسى لبنى إسرائيل واليهود عبر التاريخ القديم. كما اكتشفت كذلك أن جلوب يسير على هدى المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم على المستويين الدينى والتاريخى، وأن هناك هدفا يسعى إلى إثباته عبر كل هذا، بالإفصاح تارة، وبالإشارة تارة أخرى، وهو أن بنى إسرائيل واليهود عبر الأحداث التاريخية التى مروا بها، ومن خلال التطور التاريخى الذى تبلورت من خلاله أسس العقيدة اليهودية فى صورتها الأخيرة على يد الأنبياء، لايصلحون لأن يكونوا أمة أو جماعة سياسية لها دولة مثل سائر الشعوب، وأن تجاربهم فى هذا الصدد باءت جميعها بالفشل عبر التاريخ لأسباب موضوعية وأنهم لايصلحون إلا أن يكونوا جماعة دينية تعيش فى وسط الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها . وقد شغلتنى هذه الفكرة وقررت أن أقوم بعملية تأصيل لها لتكون بمثابة مقدمة تعين القارىء على فهم منهج هذا الكتاب والذى أخذ به، فيما بعد، عدد لابأس به من الباحثين الذين نفوا عن اليهودية صفة القومية وأكدوا أنها دين فحسب، وأن اليهود لايصلحون إلا أن يعيشوا كجماعة تحكمها

المربرجر. ففى بداية عام ١٩٤٢ ألقى الحاخام برجر الزعيم الروحى لجماعة اليهود الإصلاحيين الذين عارضوا فكرة إقامة دولة يهودية ذات طابع سياسى، خطابا بلور فيه وجهة نظر قديمة جديدة بشأن ماهية اليهودية ومستقبلها فى المجتمع المعاصر وقد حاول برجر أن يرجع الخلاف السياسى بين المجلس الأمريكى من أجل اليهودية والحركة الصهيونية ورفاقه من الحركة الاصلاحية المؤيديين لها، إلى الصدام التاريخى بين الادراك الدينى للحياة اليهودية وبين التفسير السياسى لها. حيث تجلى الفارق الشاسع بين وجهة النظر، فى رأيه، فى مسألة هل اليهودية فى حاجة من أجل وجودها إلى دولة قومية خاصة بها؟ وقد أجاب على ذلك بالنفى مستدلاً عل ذلك بتفنيدين: التفنيد الأول، الرئيسى، هو أن اليهودية وفقا لمضمونها ليست قومية، وأنها كسبت بفضل مبادئها العالمية مكانة وتأثيرا فى التاريخ الانسانى. والتنفيد الثانى. وهو تفنيد تاريخى بدعم به تبريراته الأساسية. ووفقا لرأيه فإن على اليهود ألا يتفاخروا بتلك الفترات من تاريخهم التى شكلوا فيها شعبا ذو سيادة. ففتره الملكية فى عهد داود وسليمان هى فترات منبوذة فى رأيه بالمفهوم الاخلاقى. وقد سعى ليؤكد أن وجهة نظره التاريخية لاتسعى إلى رفض الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين بالنسبة لليهودية، ولكن هذا التبرير ليس من شأنه إضعاف تفنيده بل يقويه، لأن فرادة اليهود فى الماضى والحاضر لاتكمن فى قوميتهم بقدر ماتكمن فى طابع إيمانهم. وعلى عكس معظم حاخامات الحركة الإصلاحية واصل برجر التمسك بالرأى الأخلاقى بأن فرادة اليهودية تكمن بالذات فى قيمها الدينية العالمية التى لاترتبط بمكان أو زمان معينين، وإنه بفضل هذا فقط استمر اليهود كطائفة دينية فريدة، بينما اختفت من التاريخ شعوب أقوى وأكبر منهم(١).

---

(١) جورانى، يوسف: البحث عن الهوية القومية (هحيوس أحر هزّهوت هلّئوميت)، مكتبة أوفاقيم، دار نشر «عم عوفيد» اسرائيل، ١٩٩٠، ص ٢٥ ـ ٢٦.

ويتعرض فى العصر الحديث لنفس المصير لنفس الأسباب، فى إطار الصراع الدائر حاليا فى إسرائيل بين الصهاينة العلمانيين الذين أقاموا دولة لليهود فى فلسطين على غرار دول الحضارة الغربية الحديثة (شعب مثل سائر الشعوب) وبين الدينيين الذين يرفضون كافة الأسس والقوانين والنظم التى قامت عليها هذه الدولة ويسعون لتحويلها إلى دولة تحكمها الشريعة اليهودية، وهو ما يذكرنا بما حدث فى فترة المكابيين عندما أقام اليهود مملكة يهودية، إحتدم فيها الصراع بين الدينيين المتشددين وبين المتأغرقين (العلمانيين حاليا) إلى أن تم القضاء عليها.

أما على الطرف الآخر، الخاص بالعلاقة بين دولة اليهود فى فلسطين فى العصر الحديث والشتات اليهودى، فيمكننا أن تقرر على نحو ماحدث، فى العصور القديمة، فى ظل الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية، (حيث إنتشر اليهود فى أرجاء العالم القديم)، أن هذا الشتات اليهودى ما زال يلعب نفس الدور القديم، حيث أنه هو الذى يسند الوجود السياسى للدولة ويدعمها ويحافظ على وجودها وإستمرارها، وليس العكس، كما توهم الطرح الصهيونى الكلاسيكى.

ولمزيد من الإيضاح بشأن التطور التاريخى لظاهرة الصراع بين الدين والسياسة فى التاريخ اليهودى القديم، أو الصراع بين التبلور السياسى والإنغلاق الدينى، سوف أقوم باستعراض أهم المراحل التاريخية التى مرت ببنى إسرائيل واليهود والتى أدت فى النهاية إلى هذه النتيجة التى توصل إليها كثير من الباحثين اليهود والإسرائيليين من خلال قراءة موضوعية لهذا التاريخ، وهو ما يتفق تماما ما مع ما إنتهى إليه هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته إلى القارىء العربى.

يعتبر من أكثر المعبرين، فى العصر الحديث، عن وجهة النظر الخاصة بإعتبار أن اليهود هم طائفة دينية لاتملك مقومات الدولة الحاخام اليهودى الأميريكى

المربرجر. ففى بداية عام ١٩٤٢ ألقى الحاخام برجر الزعيم الروحى لجماعة اليهود الإصلاحيين الذين عارضوا فكرة إقامة دولة يهودية ذات طابع سياسى، خطابا بلور فيه وجهة نظر قديمة جديدة بشأن ماهية اليهودية ومستقبلها فى المجتمع المعاصر وقد حاول برجر أن يرجع الخلاف السياسى بين المجلس الأمريكى من أجل اليهودية والحركة الصهيونية ورفاقه من الحركة الاصلاحية المؤيديين لها، إلى الصدام التاريخى بين الادراك الدينى للحياة اليهودية وبين التفسير السياسى لها. حيث تجلى الفارق الشاسع بين وجهة النظر، فى رأيه، فى مسألة هل اليهودية فى حاجة من أجل وجودها إلى دولة قومية خاصة بها؟ وقد أجاب على ذلك بالنفى مستدلاً عل ذلك بتفنيدين: التفنيد الأول، الرئيسى، هو أن اليهودية وفقا لمضمونها ليست قومية، وأنها كسبت بفضل مبادئها العالمية مكانة وتأثيرا فى التاريخ الانسانى. والتنفيد الثانى. وهو تفنيد تاريخى بدعم به تبريراته الأساسية. ووفقا لرأيه فإن على اليهود ألا يتفاخروا بتلك الفترات من تاريخهم التى شكلوا فيها شعبا ذو سيادة. ففتره الملكية فى عهد داود وسليمان هى فترات منبوذة فى رأيه بالمفهوم الاخلاقى. وقد سعى ليؤكد أن وجهة نظره التاريخية لاتسعى إلى رفض الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين بالنسبة لليهودية، ولكن هذا التبرير ليس من شأنه إضعاف تفنيده بل يقويه، لأن فرادة اليهود فى الماضى والحاضر لاتكمن فى قوميتهم بقدر ماتكمن فى طابع إيمانهم. وعلى عكس معظم حاخامات الحركة الإصلاحية واصل برجر التمسك بالرأى الأخلاقى بأن فرادة اليهودية تكمن بالذات فى قيمها الدينية العالمية التى لاترتبط بمكان أو زمان معينين، وإنه بفضل هذا فقط استمر اليهود كطائفة دينية فريدة، بينما اختفت من التاريخ شعوب أقوى وأكبر منهم[١].

(١) جورانى، يوسف: البحث عن الهوية القومية (هحيوس أحر هزّهوت هلّئوميت)، مكتبة أوفاقيم، دار نشر «عم عوفيد» اسرائيل، ١٩٩٠، ص ٢٥ ـ ٢٦.

وفيما يلى سنعرض للتطور التاريخى لهذه القضية:

١ ـ عن البداية الأولى لظهور مملكة يهودية تخبرنا أسفار العهد القديم أن النبى صموئيل (شموئيل) كان قد بلغ من الكبر عتيا، ولم يكن أحدا من أبنائه قادرا على تولى أعباء القيادة، فذهب إليه شيوخ بنى إسرائيل الكبار وطالبوه بأن يكون لهم ملكا يتولى قيادتهم. وقد كان ما يريدونه شيئاً «طبيعيا» وهو أن يكونوا «شعبا مثل سائر الشعوب». وأن تكون لهم دولة وملكا، ويخبرنا سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن عن تحذير النبى للشعب من رسامة ملك عليهم لأنه سيستبد بهم ويصادر ممتلكاتهم ويستحل نساءهم ويكونوا له عبيدا، ولكن «أبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا» (صموئيل الأول ٨: ٢٠)، وفى الأصحاح الثانى عشر يتكرر الموقف السابق فيستعرض أمامهم صموئيل تاريخ أسلافهم وما حل بهم من غضب الرب ولعناته وهزائمه لهم، لأنه اشترط عليهم أن يستجيبوا لوصايا الرب حتى لاتكون يد الرب، عليهم كما كانت على أبائهم: «وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما كانت على أبائكم» (صموئيل الأول ١٢: ١٥). وفى النصف الثانى من هذا الاصحاح نجد الرب يتراجع عن موافقته ويرى أن وجود ملك لبنى إسرائيل هو الشر بعينه: «وترون أنه عظيم شركم الذى عملتوه فى عينى الرب بطلبكم لأنفسكم ملكا» (صموئيل الأول ١٢: ١٧). «وهذه الآراء المتعارضة التى من المحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضى قرن من الزمان، تعكس وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط كان يتحرق شوقاً إلى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل الرواية الأولى (الاصحاح الثامن) وجهة نظر ملكى، ربما من أتباع سليمان يسعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعده بفترة وجمع وجهتى النظر المتعارضتين»[1]

(١) جلوب. جون باجوت (جلوب باشا): السلام فى الأرض المقدسة (تحليل تاريخى لمشكلة فلسطين).

وقد عين صموئيل شاؤول ملكا، وفتح بذلك بداية عصر الملكية فى تاريخ بنى إسرائيل.

٢ ـ «سقط شاؤول، وسقط داود (١٠٠٠ق.م ـ ٩٦٧ق.م) وسقط سليمان (٩٦٧ق.م ـ ٩٢٧ق.م) (ملوك بنى اسرائيل الأول) ووضعت الملكية والملوك فى الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة اسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب، ودفعت إسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة وتقليدها السلوك الوضيع للأمم؛ وإختيارها الخاطىء الانفصال عن الدين»[1].

وخلال هذه الفترة كانت الأسرة المالكة فاسدة تماما، فأبناء داود يغتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويثور، وقد قتل سليمان كل إخوته، ويتضح من هذا أن البشرية تبنى فى خيالاتها بشكل دائم عصورا ذهبية فى الماضى لتتخلص من آلام الحاضر ـ لقد كان فترة حكم داود وسليمان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاغتيالات، وفى أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى إنفجرت بعد موته مباشرة، وأدت إلى إنقسام المملكة إلى مملكتين هما: يهودا فى الجنوب واسرائيل فى الشمال.

٣ ـ زالت مملكة يهودا الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م وسقطت مملكة إسرائيل الشمالية عام ٧٢٢ق.م ، وخلال فترة هاتين المملكتين سادت الحروب بينهما وبين الدول المحيطة بهما وكثرت الاغتيالات والمؤمرات وحاد الشعب عن طريق الرب وعمل الملوك الشر فى عينى الرب، فظهر الأنبياء الذين كان من أشهرهم إشعيا وحزقيال وعاموس. وقد إبتكر إشعيا بفعل الظروف السياسية والدينية فكرتين لايزال أثرهما ملموسا إلى اليوم بين اليهود، وهما: فكرة القدسية الدائمة لأورشليم

---

(١) المرجع السابق، نقلا عن «وليام نيل» (تعليق على الكتاب المقدس).

(القدس)، وعقيدة مجيء المسيح المخلص، كما سادت أيضا، عقيدة أن الرب هو الذى يكرس الشعوب الأخرى من أجل إنزال العقاب بشعبه المتعنت بنى إسرائيل (السبى الأشورى لاسرائيل الشمالية والسبى البابلى ليهودا الجنوبية).

وقد عبر المؤرخ اليهودى س. و. بارون فى مؤلفه الضخم «تاريخ اسرائيل» عن هذه الظاهرة بقوله: «لقد استخلص الأنبياء بطريقتهم الخاصة تفسيرا للوضع العالمى غير الطبيعى: لقد رأوا دولا تختفى ثم تعود فتظهر من جديد، ورأوا سلطة الدولة فى إسرائيل وفى يهودا تستخدم بواسطة الطبقات الحاكمة كوسيلة لظلم الجماهير، ورأوا عددا لايحصى من اليهود يقيمون فى بلاد أجنبية، فاستخلصوا من ذلك أن هناك وحدة أكثر صلابة من وحدة الدولة ووحدة الأرض.. وأن مبدأ التمسك بالأرض والحدود فى إطار مساحة معينة يؤدى إلى قيام المنازعات بينما يفتح مبدأ الأمة أبعاداً للتعايش المستديم بين الأجناس المختلفة مع التعاون الكامل بين المراكز الثقافية المختلفة»[1].

٣ ـ بعد عودة اليهود من بابل تحت قيادة عزرا، كانت هذه هى البداية من أجل ما يمكن أن نطلق عليه إسرائيل مابعد السبى البابلى، حيث ولدت الديانة اليهودية التى صاغها عزرا والقائمة على الانعزالية الدينية التى تتضمن سلسلة جديدة من التشريعات التى تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر، مثل منع الزواج المختلط واقتباس الكثير من الأفكار الدينية من ديانة زاردوشتا البابلية مما أضفى على اليهودية صفة العنصرية، وهو الأمر الذى عارضه كثير من الأنبياء الذين ظهروا فى تلك الفرة مثل إشعيا وزكريا ويونان وراعوث التى يعتبر سفرها بمثابة نشرة مضادة للتمييز العنصرى.

(1) baron. S.W.: History of Iseael, part 1, p. 131.

وبعد أن تحول الاسرائيليون إلى يهود، وإلى طائفة شتات دينية تحولت «أرض إسرائيل» إلى بلاد مقدسة، وتم تكريس الشتات اليهودى القائم على الارتباط الشديد بالدين وأحكامه وقوانينه.

٤ ـ كان الدرس الذى استخلصه حكماء اليهود من تجربة مملكة الحشونائيم (١٦٦ ق.م. ـ ٦٤ق.م)، هو أن الهدف الرئيسى لثورة المكابيين، وهو الرغبة فى تحرير اليهود من الضغوط الفكرية والتأثيرات الثقافية والدينية الاغريقية لتتاح لهم ممارسة شعائر وطقوس دينهم دون قيود، وعدم الخضوع لحضارة أجنبية، هو هدف لم يتحقق إثر إنتصار الثورة المكابية، وأنهم ما أن إنتصروا حتى أصبحوا مثل أعدائهم يطبقون نفس الأساليب توسعا فى الأرض وطردا للشعوب غير اليهود من أراضيها، وإجبارهم على التغيير الجماعى للدين، والقمع القاسى والوحشى لكل حركة شعبية يهودية. وهكذا أصبح المكابيون أنفسهم سلطة ظالمة وخالفوا أهم المبادىء الأساسية للعقيدة اليهودية التى ثاروا من أجلها. وانتهى الأمر بحاخامات اليهود إلى تفضيل الحكم الأجنبى عن قبول ملك يهودى، حتى ولو كان يحظى باحترام قومى، طالما أنه لايحافظ على شرائع التوراة.

٥ ـ كانت الضيغة التى توصل إليها عدد من الحاخامات برئاسة يوحانان بن زكاى مع الرومان بشأن اتخاذ «يفنة» مركزا روحيا لليهود، هى صيغة قبل بموجبها الحاخامات اليهود السيادة القيصرية دون مراجعة وتم فرضها على الجمهور اليهودى، مع التخلى عن أى طموح قومى، مقابل صلاحيات بسلطة مطلقة للحاخامات اليهود على الجمهور اليهودى، الذى فقد السمات القومية التى كان قد حصل عليها فى فترة «الحشمونائيم» وهوردوس، وعاد وقبل سمات الطائفة الدينية المغلقة والمنغلقة، التى تحكمها «الهالاخاه» ومفسريها من «الفريسيين» على غرار ما كان عليه الأمر فى فترة الحكم الفارسى. وهكذا أصبح التفسير الحقيقى

«للتبلور والوحدة الدينية» هو التخلى عن القومية، وتحويل اليهود إلى مجرد طائفة دينية.

٦ ـ غذى انغلاق اليهودية على ذاتها وعودتها إلى وضع الطائفة الدينية، (وهى الخطوات التى قادها حكماء «يفنه»)، بصورة متناقضة، «الاسكاتولوجى» (الارتباط بالإيمان بآخرة الأيام) المسيحانى المتغلق. ومن المحتمل أن يكون هذا الانعزال عن العالم هو الذى مهد الأرض لتجاهل جزء من جيل الحاخامات التالى لحقائق الواقع السياسى العالمى. ويتضح هذا التناقض على ضوء حقيقة أن تعاون الحاخامات مع الرومان قد تطور خلال جيلين (نشب تمرد بركوخبا بعد ٦٠ عاما من قيام يوحانان بن زكاى بالتعاون مع الرومان فى إطار المحافظة على اليهودية من الضياع نظير التخلى عن الطموحات اليهودية القومية السياسية) إلى تمرد مسيحانى، تعاون فيه كثيرون من الحاخامات. وهذه الواقعة لها تناظرات وظيفية فى العصر الحديث، حيث أن دوائر دينية يهودية معتدلة وبعيدة نسبيا عن السياسية القومية تحولت خلال سنوات قليلة إلى متعصبين «مسيحانيين».

٧ ـ بعد ظهور المسيحية أدركت المؤسسة الفريسية (نسبة إلى الفريسيين) أن موجة اعتناق المسيحية تنطوى على خطر انشقاق وتعدد داخل اليهودية، ولذلك فإنها فضلت صيغة الطائفة الصغيرة المبلورة جيدا والمنضبطة، والمسيحية جداً من كل جوانبها، عن صيغة دين الملايين الذى يضم يهودا مزعزعين، وتفسر طوائفها المختلفة التوراة حسب هواها، دون أى صلاحية توحيدية خاضعة لها.

١٠ ـ على عكس المسيحية التى أثراها الخارجون عليها والانشقاقات التى تعرضت لها، لفظت الارثوذكسية المنغلقة خارجها كل كتلة تجرأت على تحدى الصلاحية المطلقة «للهالاخا» وحاملى لوائها. وهكذا لفظ فى البداية «السامريين» و«المتأغرقين»، وبعد ذلك «الصدوقيين»، و«الاسينيين»، و«المسيحيين»، و«القرائين»

و«الفرانكيين»، و«الشبتائيين»، وليس ببعيد أن تلفظ «الحسيدية» هى الأخرى من اليهودية.

وهكذا أصبح الطابع الروحى لليهودى متمشيا بالكامل تقريبامع وجود «الهالاخاه» (الشريعة اليهودية) ودراستها والحفاظ على البناء الطائفى المرهون بذلك فى حد ذاته، ومن هنا فإن الحفاظ على اليهود، لم يعد يعنى إلا الحفاظ على سيادة اليهودية الارثوذكسية فى طائفتها.

٨ ـ أصبح الطابع المهيمن والمسيطر على عقلية الطائفة اليهودية ذات النظام وطابع الحياة والبناء الاجتماعى المتضامن، هو «لاتبحث فيما هو مثير لدهشتك، ولا شأن لك بالأشياء الخفية». ومن هنا، كانت ظاهرة اللاعقلانية الواضحة فى اليهودية. وقد كانت هذه السمات، بالذات، هى التى أتاحت لليهودية قوة الصمود، وعزلت بذلك نفسها عن التاريخ، ولم تخف عن المؤمنين بها أى تفسير للتاريخ الخاص «بالمنفى» الذى سيخلصهم منه المسيح المخلص. لقد كان منطلقها فى هذا، هو أنه كلما إنقطع إتصالها بأى وعى مع الواقع، فإن هذا يؤدى إلى تطور أنظمة طقسية وجدلية لاقامة جسر، أيا كان، بين الوعى والواقع. وبموجب هذا، فإن كل الكوارث التى تحل على اليهود فى الشتات ليست فى حاجة إلى تفسير، بإستثناء أن الشتات هـ حكم إلهى على اليهود بسبب خطاياهم. وهكذا تم خلق بناء سيكولوجى مغلق، يقوى نفسه، من منطلق أن الكارثة هى الدليل على الخطيئة، بدلا من أن تكون سببا للتأمل فى معايير الرب، على النحو الذى فعله أيوب. ولذلك، فإنه كلما كانت تزداد الكوارث كان يزيد الوعى بالخطيئة، ومن أجل تبرير الوعى بهذه الخطيئة كانت تتطور منظومة لانهائية من التحريمات والعقابات لايسمح لأى كائن يهودى بتجاوزها.

٩ ـ كان مغزى إنعزال الطائفة عن التاريخ، هو الإنعزال عن الذين يصنعون التاريخ، والذين كان ينظر إليهم بإعتبارهم «جوييم» (شعوب كافرة). ولذلك فقد

أصبحت هناك حالة من الغربة السيكولوجية الموضوعية بين أولئك الذين فى وسط التاريخ وأولئك الذين خارجه. ولم يعد كل من هؤلاء قادر على فهم الآخر، وبدأوا يشككون كل فى الانسانية المشتركة لكليهما.

١٠ ـ تبلورت قوة صمود الطائفة اليهودية عن طريق شبكة متفرعة من مؤسسات المساعدة المتبادلة فى داخلها، عن طريق تأكيد الجماعية التى تنطوى عليها، والتى تزود كل فرد بالمساعدة والأمان النفسى، ولكن فى مقابل تخليه عن الفردية والاستقلالية الفكرية لديه، وذلك عن طريق منظومة من القوانين والشرائع المقيدة للفرد.

١١ ـ منذ عصر تمزد بركوخيا (١٣٢ ـ ١٣٥م)، وحتى ظهور الصهيونية كان يتم التعبير عن المفهوم السياسى الرئيسى لليهودية من خلال «العهود» التلمودية الثلاثة التى أمر بها الرب. ويمكن إيجازها فيما يلى: عدم حدوث حركة انتقال جماعية (هجرة) لليهود من بلاد الشتات إلى «أرض إسرائيل» (فلسطين)، وعدم الثورة على شعوب العالم، وألا يحدث إفراط فى إضطهاد الشعوب غير اليهودية «للشعب اليهودى». وكانت تلك عقيدة يهودية هامة، حتى بالرغم من عدم إثارتها للكثير من الجدل، حيث أنها كانت تبدو أثناء الظروف التاريخية فى تلك العصور، على أنها أمر واضح، بل وعادى. وكان لب هذا المفهوم هو السلبية المتمثلة فى تفادى العمل السياسى، إنتظارا لمجيء «المسيح المخلص» فى صبر، دون محاولة التعجيل بقدومه لأن ذلك محرم تماما.

ولذلك كانت الصهيونية محرمة، وحاولت الصهيونية الدينية المعاصرة إعادة تفسير تلك العهود والحد من قوتها، فزعمت على سبيل المثال، أن «العهود كانت بمثابة صفقة متكاملة، وحيث أن شعوب العالم لم تلتزم بماعليها فى الصفقة،

طبقا لما جاء فى العهد الثالث، فإن اليهود المعاصرين يمكنهم الهجرة الجماعية إلى فلسطين.

ومثل ذالك التفسير، يجعل من الصهيونية مسألة شرطية محضة: فلو أن غير اليهود لم يتجاهلوا عهد «عدم إضطهاد اليهود» لكان على اليهود أن يمتنعوا عن الهجرة الجماعية إلى فلسطين. ومن هنا فإن جماعة مثل جماعة «حسيدية سطمار» (التى تنسب إلى الحاخام تايتلنبويم المعروف بلقب «الحاخام من ساطمار» ويمثل الصلاحية العليا لاتباعه من «الحسيديم» فى الولايات المتحدة الأمريكية، وللطائفة المتشددة دينيا فى اسرائيل «الحريديم» ومن بينها جماعة «نطورى كرتا») المعارضة للصهيونية تستغل العهود ذاتها لتجريح الصهيونية كصفقة متكاملة بالمعنى العكسى تماما، إذ أن إنتهاك اليهود للعهود بسعيهم تنفيذ المشروع الصهيونى، هو الذى أدى إلى «الهولوكوست» (المحرقة).

ومن ثم، فإنه يمكن فهم العهود على أنها قرار للحيلولة دون ظهور أية مبادرة من شأنها تقويض أسلوب الحياة اليهودية بالشكل الذى وصلت اليه فى «الشتات»، ونظرا لخشية الدوائر اليهودية التقليديه من التغيرات التى يمكن أن تقوض هذا الأسلوب من الحياة، فقد كانوا شديدى المعارضة للصهيونية، إذ كانوا يتخوفون من أن يؤدى تحقيق هدف الصهيونية إلى خلق تحد جديد وصعب لليهودية.

وبالنسبة لموقف الديانة اليهودية من قيام دولة يهودية، يمكن توضيح ذلك، على ضوء أن حكماء اليهود قد حددوا قوانين الديانة اليهودية على أساس التشريع والعادات المتوارثة، وهو أمر حدث فى زمن لم تكن توجد فيه دولة يهودية، ولذلك تم تجاهل المسائل المستعصية المتعلقة بكيفية أداء الدولة اليهودية لوظائفها.

لقد كانت المهمة التى واجهت حكماء اليهود بعد تدمير الهيكل الثانى، وقمع تمرد بركوخبا على يد الرومان، هى تأمين بقاء اليهود فى أوساط معادية.

ورأوا أن الحفاظ على بقاء اليهود لايتأتى إلا من خلال إنعزالهم، وشرعوا لذلك الهدف فى «الهالاخاه»، وهو مجموعة من التشريعات الدينية الموضوعة لتقنين أسلوب معيشى والزامى.وبذلك أصبح السلوك اليهودى الفريد، والمتأصل فى الوعى اليهودى يجد تعبيرا خارجيا دقيقا فى كافة مناحى الحياة، وفقا لما جاء فى انتلمود الذى يمثل المرجع الرئيسى للتشريعات اليهودية[1].

وفيما يلى سأقدم للقارىء أهم النتائج التى أثبتها المؤلف فى كتابه والتى تؤكد ما سبق أن أشرت إليه فى المقدمة حول توجهات المؤلف بشأن شيوع الصراع بين الدين والسياسة فى التاريخ اليهودى القديم:

(١) تتوافق وجهة نظر المؤلف مع ما ذهب إليه الباحثون فى مجال الدراسات النقدية للعهد القديم فيما يتصل بمصداقية الرواية التوارثية وتعدد رواياتها ومدونيها وتأخر تاريخ التدوين الى ما بعد الأحداث بقرون عديدة.

(٢) التأكيد على ملازمة ظاهرة الشتات اليهودى للتاريخ اليهودى وعدم أهلية اليهود لتأسيس دول أو ممالك لتعارض ذلك مع مضمون وروح اليهودية، وأن الذى حافظ على اليهود هو الدين وليس الاستقلال السياسى.

(٣) تدل كلمة «سامى» فى الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» عل سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظراً لأختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطاً شديداً.

(٤) من المحتمل أن تكون قصة سيدنا إبراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل لعل القصة كما نعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لإعادة التدوين تظهر فى السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

---

(١) هركابى، يهوشافاط: ساعة اسرائيل المصيرية، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة (٧٩٤)، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٥) الكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم واسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكى نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن إبراهيم قد أعطى فكراً كبيراً أبدا لكل العالم، حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له.

(٦) يتفق العلماء على أن وعود إبراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، فى ذلك الوقت، إلى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يثور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم إلى إبراهيم البدوى راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن إبراهيم لم يكن أول الموحدين بالله وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغى لنا أن نسأل أنفسنا كيف أصبح الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذى خاطب إبراهيم كان هو الله رب العالمين.

(٧) إننا لم نعرف من هم آلهة إبراهيم، إلا أنه بعد وفاته ببضع مئات السنين ظهر «يهوه» باعتباره رب إسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا اسم «يهوه» بدلاً من الأسماء الأخرى التى كانت تطلق على آلهة إبراهيم فى الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التى كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعاً باسم «يهوه». وبربط هذه العبارة ذهنياً مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذى تناول العشاء مع إبراهيم فى خيمته وأنه هو الذى تناقش مع الشيخ الجليل حول مصير سادوم (بلدة لوط المذكورة فى التوراة).

(٨) إن الاسترقاق الذى مارسه فراعنة مصر ضد الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا واستخدامهم فى أعمال السخرة بدلاً من استخدام رعاياهم، ولايمكن

مى الواقع أن يسمى «عبودية». وقد اقترض بنو إسرائيل من المضريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلي من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين».

وهنا لاينظر إلى يهوه على أنه رب العالميين، بل على أنه رب إسرائيل، الذى يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا فإن إقراض المصريين حليهم لبنى إسرائيل لايوحى بالعبودية كما نتصورها ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك بأنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيمابعد، حزن بنو اسرائيل على فقد حياة الترف والرغد في مصر، بما يشير إلى ارتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

(٩) ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التى امتدت قرابة أربعمائة عام أى من فترة الأباء إلى عهد سيدنا موسى، ولانستطيع أن نعرف ما إذا كان بنو إسرائيل فى عهد موسى قد انحدروا فعلاً من سلالة إبراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة، وكمثال زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

(١٠) كانت لموسى عليه السلام تجربة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو إسرائيل قد سمعوا قط عن «يهوه» الذى سيصبح إله إسرائيل. ومرة أخرى تلقى موسى الوحى على جبل سيناء.

(١١) يوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى إسرائيل الأولى أخذت منبعها من الصحراء. وهناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة «يهوه» الذى كان موقراً فى أيام ما قبل إسرائيل باعتباره رب سيناء. حوريب.

(١٢) كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفاً تماماً عنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمائة عام، كما كان مختلفا أيضاً عن الكهنة الذين أشرفوا فى النهاية على تجميع وإخراج نسخة العهد القديم.

(١٣) اكتشف فى مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد الفرعون مرنبتاح إبن رمسيس الثانى، وتصف هذه النقوش حملة إلى فلسطين، ويزعم فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكنعانيين والحوريين، ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها وإنه لم تتفرق ذريتها». وفيما يختص بالشعوب الأخرى، فقد جاء ذكر مدنهم، إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنتسب لإسرائيل. وكانت هذه أول مرة يذكر فيها إسم إسرائيل خارج العهد القديم، وربما كان تاريخ ذلك حوالى عام ١٢٢٠ قبل الميلاد. ونظراً لأنه لم تذكر أية مدن إسرائيلية، فإنه يبدو أن إسرائيل، كانت لاتزال تسكن الخيام فى سيناء. وعندما ضربوا خيامهم فى سهول بير السبع ليشتروا الحبوب باغتتهم واجتاحتهم العجلات الحربية المصرية.

(١٤) يذكر العهد القديم أنه كان لدى إسرائيل تسعمائة ألف رجل فى سن الجندية. وبالتالى يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالى للعشيرة هو مليونان من الأنفس. ويعتقد أغلب الباحثين العصريين أن إسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالى كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشرة ألف نسمة. وإذ رجعنا إلى أن بنى إسرائيل كانوا جميعاً قادرين على أن يستقوا من بئر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات فى صباح واحد فإنه يصعب القول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً.

(١٥) بينما يحكى سفر يشوع أنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل إلى شكيم، وبأنه مسحها قسمها بين الأسباط، يقص سفرا القضاة قصة أكثر واقعية، حيث يصور الأسباط المختلفة وقد كل قام لك سبط منها بعمل مستقل فى محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها، وغالبا ما تم ذلك بالاتفاق مع السكان الموجودين فى المنطقة.

ويعتقد أغلب الباحثين المصريين أنه حدث قتال على أضيق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت إيل فى هذه المرحلة، حيث تسلل بنو إسرائيل إلى أرض كنعان وتوصلوا إلى تفاهم مع السكان. وما جاء فى سفر يشوع من أنه كان يقسم الأرض ويقيم الحدود بين الأسباط، فتلك عبارات مألوفة فى مجتمع زراعى مستقر ولا تتفق مع حياة الرعاة الرحل. وتلك العبارات ، مثل غيرها كثير مما جاء فى أسفار موسى الخمسة، لابد وأنها كتبت بعد مضى عدة قرون.

(١٦) يوجز سفر القضاة الاصحاح الثالث/٥، الموقف الناجم عن الغزو كالآتى: «فسكن بنو إسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم». وقد تشير عبارة «سكنوا بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى، كما تدل هذه العبارة، ضمنا، على أن بنى إسرائيل كانوا أقل عددا من «أهل البلاد». ويستنتج البعض أن القبائل فى هذه المنطقة كانوا على شاكله بنى إسرائيل وأنهم إنضموا إليهم طائعين، حيث أن بنى إسرائيل فى مصر كانوا جمعا مختلطاً.

(١٧) أن الآراء المتعارضة حول تنصيب ملك على إسرائيل الواردة فى سفر صموئيل تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الأسباط يتحرق شوقا إلى حرية الرعة القديمة، بينما تمثل، من وجهة نظر أخرى، وجهة نظر ملكى، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية، ثم جاء مدون بعدهما بفترة بجمع وجهتى النظر المتعارضتين.

(١٨) أن ديانة بنى اسرائيل الأقدمين كانت فى بعض مظاهرها أشبه بديانات الأمم المحيطة بهم، إلا أن ديانة بنى إسرائيل كانت عرضة للتغيير الدائم، ولذا فإن

أقصى ما مكن عمله هو وصفها فى وقت محدد، لأن تقديم القرابين من الأغنام والثيران لايمكن أن يتم إلا فى ظروف زراعية، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد». وقد إندمج الشعبان الكنعانى وبنو إسرائيل وصاروا شعبا واحدا، وإكتمل الإمتزاج بينهما بالتزاوج والتعاهد والمتاجرة، وصارت إسرائيل الشريك البارز وتحولت كثير من العادات الكنعانية إلى عادات إسرائيلية، وبصفة خاصة، إندمج كثير من الديانة الكنعانية فى ديانة يهوه.

(١٩) على الرغم من مضى ٢٥٠ عاما منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم فى حوزة اليبوسيين، وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الإسرائيلية الأخرى فى السهل حتى بئيروت وبيت إيل، تعزل يهودا عن القبائل الشمالية، وفضلا عن ذلك كانت لأورشليم سمعتها بأنها حصن لايقهر، مما جعل داود يرى أنه بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لاسرائيل الموحدة، لذا إستولى عليها ونقل مقره إليها، إلا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية فى المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبى البابلى، وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ٨٠٠ سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة، وهو التقليد الذى أوحى لداود بفكرة مبايعته الخاصة ليهوه، وأوحت الرعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كى تحكم أسرته إلى الأبد، وأن أورشليم المدينة اليبوسية هى المقر الخاص بيهوه، وكان لهذه الرعاية دور فى تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، فى ذلك الوقت، لم تخدع بهذ الدعاية، وظلت مخلصة لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) فى أورشليم.

(٢٠) لكى ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من كل أنحاء إسرائيل، أى كما كان يفعل رمسيس الثانى فى مصر، وعلى الرغم من ذلك

فقد غرقت البلاد فى الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية لملك صور.

(٢١) لم يعد فى الامكان تقييم معنى مصطلح «بنى إسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حرا مع شعب البلاد على كافة المستويات. وتوضح المطالعة الدقيقة للعهد القديم بالذات، أن وحدة بنى اسرائيل كانت وحدة جد غامضة سياسيا وعرقيا، فلم يكن دين يهوه دين منطقة جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبدا الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى اسرائيل، إلا أننا إذا كنا لانستطيع أن نعرف من هم بنو إسرائيل، ولانستطيع أن نفصلهم عن الجماعات الأخرى، فكيف كانوا، والأمر كذلك بالنسبة للشعب المختار الذى يختلف عن سواه؟

(٢٢) كانت إسرائيل القديمة مجرد ولاية صغيرة ناشئة تترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التى قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلا فى أن تدرك أن الجرى وراء الثروة والصيت والسلطان يشترى إحساساً زائفاً بالأمن.

(٢٣) أعيدت كتابة العهد القديم بأيدى كهنة أورشليم عندما زالت دولة إسرائيل، ومع أنهم ضمّنوه بعض مواد من الشمال (الرواية الايلوهيمية)، فإنهم كانوا أحراراً فى نبذ أية مادة لاتروق ليهم، وبالتالى كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين من يعتقد أن بعض المزامير إستعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية.

(٢٤) بدى الغزو البابلى (٥٨٦ ق.م) ليهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض وذبح سكانها، ولم يكن ذلك من قبيل إضطهاد اليهود، بل كانت تلك هى الطريقة التى يعامل بها الآشوريون والبابليون الولايات الثائرة

عليهم، وتركت يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا إلى السبى فى بابل، وتفرقت البقية فى عمون وموآب وسوريا وفى مصر فشكلت بذلك بداية التشتت.

(٢٥) لقد تحطمت المعتقدات اليهودية القديمة بعد السبى البابلى حيث سقطت مقولة (أن أورشليم هى مقر يهوه، ومن ثم فهى لن تقهر، وأن بيت داود سوف يحكم إلى الأبد)، إذ لم يدافع يهوه عن صهيون ولم يحكم آل داود إلى الأبد، ووجد المنفيون فى مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل وأدركوا كم كانت يهودا صغيرة، وشكوا فى إمكانية أن تكون دولة صغيرة كدولتهم محل إختيار الله العظيم.

(٢٦) خطَّ إشعيا النبى سطرا جديدا وصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون، وهكذا من أعماق الكارثة بدأت الديانة اليهودية الروحانية. وإذا كان اليهود قد حرموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتقون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هى العلامة المميزة لليهودى، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمسة وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

(٢٧) كانت الجماعة الأولى التى عادت إلى القدس (من بابل) فى عهد قورش جماعة صغيرة وبقى كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم. وإنتعشت الطائفة اليهودية فى بابل وفارس إنتعاشا عظيما وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط.

(٢٨) كان عزرا هو الذى غير تاريخ اليهودية، حيث حدد أنه على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يكون فى معزل عن البشر. وقد هلل البعض لاصلاحات عزرا ووصفه البعض الآخر بضيق الأفق، ولكن حركة الاصلاح التى

بدأها لاتزال ملموسة حتى اليوم، وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، حيث كان لبنى إسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمائة عام، ولكنه أراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء إحتقار الغزاة القديم لأهل البلاد. وكان عزرا يتحدث بغير دقة عندمايصف اليهود فى الشرق الأدنى، بينما حدث الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لايعبدونه.

(٢٩) لم تكن الديانة اليهودية مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكن تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت إتجاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن الرأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

(٣٠) فى الفترة اليونانية بدأ صبغ أورشليم بالصبغة اليونانية على يد اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التنكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، وكان تقليد اليونانيين يعتبرا تحضرا وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا.وكانت الأمبراطورية اليونانية تضم كثيرا من المجموعات الدينية الصغيرة التى تدين لها بالولاء، وبدى الأمر فى يهودا وكأن الدين هو الذى يثير عدم الولاء، ولذلك حاول أنطيوخس طمس معالم الديانة اليهودية، فحرم الختان وأعتبر تحريم أكل الخنزير جريمة لاتغتفر ونصب تمثال جوبيتر فى الهيكل.

(٣١) على الرغم من أن بداية حكم الحشموينين إتخذ طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الاتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم «الحسيديم»، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

(٣٢) على نحو ميلاد إسرائيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازى، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطيوخس الرابع يهودا إلى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة، وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكرى. ولكى يزيد يوحانان من أعداد جيشه حول الادوميين (الذين كانوا يستوطنون الخليل) قسرا إلى الديانة اليهودية، وهى سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية. وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقرار بين الامبراطوريات، الأمر الذى يشبه كثيراً ما حدث فى الشرق الأوسط فى أيامنا بين البريطانيين والروس.

(٣٣) يجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودى (الجيتو)، الذى قام فيمابعد، أنه فى عام ٣٠٠ ق.م كان اليهود يفضلون أن يعيشوا فى مجتمع يهودى خاص بهم، بالرغم من أنهم كانوا، فى ذلك الوقت يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد مايكونون عن الاضطهاد.

(٣٤) لم يكن في العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود فى المهجر، ويقول سترابو (ولد سنة ٦٣ ق.م)، العالم الجغرافى الرومانى ـ اليونانى، أن اليهود كانا يملأون الدنيا حوالى عام ٤٨٧ق.م، بحيث كان يصعب أن تجد مكاناً فى الدنيا ليس به جالية يهودية ضخمة ذات نفوذ كبير. وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود فى العالم الخارجى إلى أعدادهم فى يهوذا، قبل ظهور المسيح لوقت قصير، اختلافا شديداً، بل أنها تختلف من القول بأن «اليهود فى المهجر كان عددهم مساويا، على الأقل، لعدد اليهود فى يهودا، إلى القول بأنه ربما كان عدد اليهود خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم فى يهودا. ومن الأرجح أن عدد اليهود فى المهجر كان مساوياً لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم فى يهودا وهذا يعتبر تخميناً مقبولاً. ويكتب الحاخام ريزين

فى معرض حديثه عن عهد الحشمونين (١٦٦ ـ ٣٨ق.م) عن تدفق اليهود المستمر إلى الدول الأخرى، ويستطرد فيقول «إن كثرة عدد اليهود فى جميع أنحاء العالم قبيل غزو الروم لفلسطين لم تكن ناتجة عن كثرة التوالد الطبيعى، لأن نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية.

(٣٥) من المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشئون المالية بدأ فعلاً فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد سنة ٧٠ م أن اليهود لم يكونوا شبعاً تجارياً، كان يشير فقط إلى أهل يهودا.

(٣٦) قد خدم يهود الاسكندرية البطالمة قرابة ثلثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيون تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم. وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من السكندريين ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائما فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

(٣٧) يقول رينان أن «اليهود قدموا فى وقت مبكر جداً إلى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمن طويل، وقد استقبلوا استقبالاً طيبا ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكونوا لهم سلف واحد فى فلسطين.

(٣٨) كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهوديا من جميع الوجوه (تاركا جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة الجالية اليهودية) أمرا حاسماً، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى

كثير من الأمور، بالرغم من إنتمائهم إلى سلالات مختلفة لاتدخل تحت حصر.

(٣٩) ليست هناك طريقة لاحصاء نتائج التبشير اليهودى (لتحقيق التحول الدينى) فى الحقبة التى يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك فى أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخلون فى دين اليهود من أجناس كثيرة، ومن كل طبقات المجتمع. وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين فى القرن الثانى بعد الميلاد من أصل وثنى مثل الحاخام عقيبا الشهير.

(٤٠) من بين الامتيازات العديدة التى كانت ممنوحة لليهود دون غير فى الامبراطورية الرومانية الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت. وكان تصدير الذهب محظوراً، إلا أن اليهود فقط كان فى إمكانهم جمعه وإرساله إلى أورشليم. وعلى أية حال فقد وصل كثير من اليهود إلى مرتبة فارس رومانى كما كان هناك أعضاء من اليهود فى مجلس الشيوخ الرومانى. وليس بمستغرب أن تضج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التى ينالها المواطنون الأخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات. ولم تسبب الثورات فى يهوذا أى انتقاص لهذه الامتيازات فى جميع أنحاء الأمبراطورية.

(٤١) لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل إلى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة. فقد غزا الحشمونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان سراً. وقد أصبح كل هؤلاء يهوداً بالدخول فى ديانة اليهود دون أن يكونوا يهودا من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.

(٤٢) عقد يوحانان بن زكاى، وهو واحد من أبرز أحبار ذلك العصر، العزم على الهروب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل فى تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب إلى فسبازيان وحصل على الإذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة فى يفنه على السهل الساحلى، وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية. وهو تحول غريب فى التاريخ اليهودى فمن المنازعات الضارية «بلزيلوت» المتعصبين الى حوار معلمى الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية لشمعون بر جيورا ويوحنا الجيشالى والزيلوت إليعازار إلى الباحثين المسالمين عند جملئيل، ومن قعقعة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة ومساوىء القحط والمذابح والحرائق إلى المجادلة فى اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت. وقرر الأحبار فى «يفنه» أيضا، أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفا بحرف، بل كتبه الانسان. أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا حتى سنة ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودى السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بريزين كان الأحبار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية.

(٤٣) لم يكن المتطرفون الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود فى فلسطين. ومما يثير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الأدوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية وممن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم من غير السلالة اليهودية الأصيلة. ولايبدو أن وازعهم كان وازعا دينيا، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكراهتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسون والمواطنون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم. ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة كانت المعاملة التى يلقاها

الأسرى معاملةوحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية فى ذلك الوقت. فقد رأينا الكسندر جاناى ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعاً.

(٤٤) لايمكن القول بصفة دقيقة أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية فى العالم خمسة أمثال اليهود فى فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود فى الاسكندرية، وطرابلس فى بداية الحرب، ولكن فيماعدا ذلك لم يتأثر اليهود فى العالم. بل كان هناك شيء أكثر مغزى وهو أن الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شيء. والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت أن هذه الحوادث هى مجرد تمرد فى فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيراً من يهود العالم كانوا من المتهودين المحليين الرومان أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان ـ ممن لم يكن لهم روابط مع فلسطين.

(٤٥) عندما نفد صبر هارديان آخر الأمر، عكس الآية فغير مسلكه السلمى (كما فعل أنطيوخس إيفانس من قبل) وأصدر تشريعاً يقضى بتحريم الختان، فثار رجل فى يهودا يطلق عليه «بركوخبا» (ابن الكوكب) وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، ووصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥م. أخمدت ثورة بركوخبا بعد أن أريقت دماء كثيرة وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم كمدينة رومانية سميت برسم «إيليا كبتولينا»، وهكذا فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الاسلوب الروحانى هو الاسلوب الأخر الذى اتبع بحماس شديد.. فلقد قدر لليهود ألا يشكلوا مملكة على هذه الأرض.

وفى ختام هذا العرض أرجو أن قد وفقت فى مساعدة القارىء على فهم الفكرة الرئيسية التى تضمنها هذا الكتاب والتى يمكن أن تعين كثيرا فى قراءة متن الكتاب بتفاصيله، كما تعين فى نفس الوقت على قراءة الواقع السياسى المعاصر الذى تمر به دولة إسرائيل حاليا.

وتأكيدا لمصداقية هذه الرؤية للتاريخ اليهودى القائمة على نظرية أن اليهود يشكلون جماعة دينية شتاتية (دياسبورية) وأن الشتات هو الوسيلة الأكثر ضمانا لاستمرار وجودهم من خلال التقوقع داخل إطار الدين وضمانا لأمنهم الاقتصادى (قدر اللحم)، وأنهم لايصلحون لأن يكونوا شعبا مثل سائر الشعوب فى إطار سياسى فى فلسطين، وأن فلسطين ظلت عبر التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، ولكنهم لم يهاجروا إليها بجموعهم، واكتفوا بترديد شعارات الأحلام والشوق إليها وإنتظار الخلاص المسيحانى، تأكيدا لهذا كله، أقدم رؤية الأديب والمفكر الاسرائيلى أفراهام ب. يهو شواع حول هذه القضية والتى نشرها فى كتاب بعنوان «بفضل الطبيعية» (بزخوت هنور ماليوت)، تحت عنوان «المنفى ـ الحل العصابى».

والله الموفق

د. رشاد عبد الله الشامى

مصر الجديدة ٣٠/٩/٢٠٠٠

«المنفى*- الحل العصابى»

للأديب الاسرائيلى أ.ب يهوشواع** عن كتاب «بفضل الطبيعية»

(دار نشر شوكن ـ تل أبيب ١٩٨٠)

تعتبر مسألة «المنفى» أهم وأعمق سؤال يجب على اليهودى أن يسأله لنفسه، حينمايتوه فى مضمون الشعب اليهودى. ان «المنفى» هو مصدر المشاكل التى يتخبط فيها اليهود منذ أجيال كثيرة، وعلى الأخص فى القرن الماضى، وهو لب المشاكل العملية التى تتخبط فيها دولة اسرائيل فى الحاضر. إن فهم ظاهرة المنفى هو المفتاح من أجل فهم الظاهرة اليهودية، ومن شأنها أن تحرك مشاعرنا أكثرمن كل شىء من أجل التمييز الأمين جداً للصراعات القاسية، التى تورط فيها اليهود ومازالوافيها حتى الآن. إن الشعب اليهودى يحوى تنوعات غنية، وأحيانا تناقضات من العقائد والأفكار والقيم. ومن بين هذه الأشياء ما كان ارثا للشعب لفترة متواصلة وحظى من أجل ذلك بتأكيد أكثر. وعلى وجه العموم فإنه يمكن طرح وجهة نظر ما جاء فى المصادر الدينية المكتوبة، ويمكن طرح وجهة نظر مختلفة تماما فى مقابلها، لها أيضا سند فى المصادر. ولكن كل أصحاب التفاسير المختلفة لمغزى القيم اليهودية يتعرفون فى نهاية الأمر ببعض المسلمات الشائعة، مثل «حب

(*) يستخدم يهوشواع فى كتابه مصطلح «المنفى» (جالوت) بدلات من «الشتات» (الدياسبورا) عل إعتبار أنهم فى المصطلح الصهيونى يفرقون بين «المنفى» كظاهرة قسرية إجبارية، وبين «الشتات» كظاهرة إختيارية، وذلك عل الرغم أن مضمون فكرته يقوم على أساس أن اليهود هم الذين إختاروا الحياة خارج فلسطين عبر التاريخ طواعيةوليس جبراأو قسرا، أى أنهم عاشوا فى «شتات» وليس فى «منفى».

(**) ولد أ. ب يهوشراع فى القدس عام ١٩٢٦ ويعيش حاليا فى حيفا. درس الأدب والفلسفة فى الجامعة العبرية بالقدس. عاش خارج إسرائيل من ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧. يعتبر من أبرز علامات الأدب العبرى فى إسرائيل منذ الستينيات حتى الآن. من الأدباء المحسوبين على اليسار الإسرائيلى، وينادى فى كتاباته بأن تكون إسرائيل دولة كل مواطنيها بما فيهم عرب ١٩٤٨. يتبنى وجهة نظر بأن الشتات ركيزة رئيسية للوجود اليهودى. نشر العديد من الأعمال الأدبية تعاطف فى بعضها مع الحق الفلسطينى. من أبرز أعماله: «فى صيف ٧٠»، «فى مواجهة الغابات»، «العاشق»، «الطلاق المتأخر»، «الفصول الخمسة» (مولخو)، «السيد مانى»، «رحلة إلى الهند».

أرض اسرائيل» ، و«شعب اسرائيل» ، «والايمان بحق الشعب فى الوجود الوحدة» ، وما شابه ذلك من المبادىء الثابتة والبديهية. وهذه الأشياء تساعدنا على الوصول إلى فهم أكمل لمضمون الشعب اليهودى. وحينمـانحاول أن نحلل واقع المنفى الموجود فى التاريخ اليهودى لالفين وخمسمائة عام تقريبا فاننا نقترب من فهم أكثر واقعية للب المشكلة اليهودية.

ففى السنوات الخمس عشرة الأخيرة يوجد تركيز على الأسئلة العملية التى يثيرها المنفى: كيف نزيد الصلة بين دولة اسرائيل والمنفى؟ كيف نمنع الانصهار؟ هل سيقوم فى اسرائيل مركز للعالم اليهودى؟ ـ ولكن السؤال الكبير أو السؤال الأساسى ـ الذى اثارته الصهيونية بعنف ـ «لماذا المنفى على وجه العموم» ؟ ـ وهذا السؤال يبدو أنهم يخجلون اليوم من سؤاله.

هناك وجهتا نظر اساسيتين مختلفتين فى تناول المنفى. وجهة النظر الأولى تنظر الى المنفى باعتباره حادثة وقعت للشعب اليهودى وكارثة كانت الشعوب هى السبب فيها وفرضتها على اليهود، وبينماكانت الشعوب الأخرى تنهار تماماعند حدوث كارثة كهذه وتفقد هويتها كشعب، فان الشعب اليهودى (بسبب الحصانة الروحية الداخلية) نجح فى الصمود والطوفان فوق امواج التاريخ. صحيح أن المنفى ظاهرة متواصلة، وربما لم يبذل الشعب كل الجهود العملية من أجل التخلص منه، ولكنه كان فى نظره دائما بمثابة حالة مؤقتة، ولم يفقد فى أى مرة رغبة العودة الى أرضه، التى فيها يكتمل استقلاله ويتم خلاصه خلاصا قوميا وروحيا. أى أن الشعب ببساطة ينتظر ظروفا أحسن، تمهد لمجىء الخلاص المرتقب. وعن وسيلة تؤدى به للاستقرار فلسطين. وحينما يأتى السلام ويسود قليلا، يتفتت المنفى ويتدفق رويداً رويداً الى اسرائيل.

وهذا الاتجاه الفكرى، الذى يفترض أن المنفى هو حالة فرضت على اليهود، يتجاهل حقيقة أساسية وهى، أن المنفى لم يفرض على اليهود، بل هم الذين فرضوه على أنفسهم، ولايجب أن ننظر اليه كحادثة أو ككارثة بل كاعوجاج قومى داخلى أعمق ـ لذلك فان الطريق نحو الحل، اذا ما كان الشعب يريد الحل فعلا، يختلف تماما عما هو شائع فى مناهج التفكير. إن الشعب اليهودى غير جدير بالمديح الذى نكيله له لانه صمد فى المنفى. فلو كانت هذه بالفعل كارثة فرضت عليه، لكان هذا الشعب جديرا بالمديح الذى يكال له لانه صمد ولم ينهار بسبب هذه الكارثة. ولكن نظرا لانه هو نفسه قد إختار ومازال يختار هذه الطريقة فى الوجود، اذن فلا داعى للتعجب والانفعال لأنه كيّف وجوده القومى مع هذه الحالة.

أما وجهة النظر الثانية، فانها تنظر إلى المنفى كظاهرة دائمة وشبه طبيعية بالنسبة لليهود. انها تعترف بالتعاون الوثيق بينها وبين هذا الشكل من أشكال الوجود. ووفقا لوجهة النظر هذه تعتبر اليهود شعبا شتاتيا، وهنا تكمن قوته الوجودية. ووفقا لهذا الاتجاه الفكرى يجب ألا تندهش لأن الشعوب الأخرى لا تقيم منفى جديرا باسمه كوسيلة مدروسة من أجل ضمان وجودها القومى على مدى الفين من السنين. وهذه المدرسة الفكرية تفهم جيدا مدى عمق حاجة اليهود للمنفى، لدرجة أنه أصبح متداخلاً بشكل عضوى فى مضمون اليهودى وفى ابداعه الروحى، ولذلك فانها تحاول أن تنظر إلى المنفى باعتباره ظاهرة شرعية وطبيعية. ووفقا لهذه المدرسة الفكرية يثور أحيانا السؤال التالى: «إذن لماذا الدولة؟» ، وحتى اذا كانوا يعترفون بضرورة المركز القومى المستقل، فانه بناءا على وجهة النظر هذه توجد ازدواجية متساوية القيمة وهى: المنفى والمركز.

إن هذه المدرسة الفكرية تتجاهل الحقيقة البسيطة المتصلة بأن المنفى كان مصدرا لسلسلة الكوارث الصعبة التى اجتاحت اليهود، وأنه بسبب هذا الوجود

تمت ابادة ثلث الوجود اليهودى، وأنه فى المنفى فقد الشعب اليهودى عن طريق الانصهار ملايين اليهود.لقد كان عدد الشعب اليهودى عشية خراب الهيكل الثانى بين ٤ ــ ٦ مليون نسمة (وهوعدد محترم ــ فى نطاق العالم القديم)، وبسبب الوجود الحيوى فى المنفى وصلنا فى بداية القرن السابع عشر الى مليون نسمة فقط. لقد أبيد يهود كثيرون في المنفى ومازال خطر الاضطهادات المتوقعة للطوائف اليهودية فى المستقبل لم يتبدد (فى الاتحاد السوفيتى وفى أمريكا اللاتينية على سبيل المثال). إن المنفى هو السبب المباشر لذلك «المصير اليهودى» المرير والقاسى، الذى أصبح بمثابة مادة موضوعية فى أى مناقشة حول المسألة اليهودية.

إن هذه الجملة البسيطة: «المنفى سبب النكبة»، لم يقلها اليهود على وجه العموم. إن الشعب اليهودى يشبه انسانا يسير فى وسط الطريق، وحينما تصدمه سيارة يقودها مجنون فإنه يتهم، بالطبع، السائق ويواصل طريقه «الشجاع» فى وسط الطريق، بينما يحاول أن يطور نظرية روحانية وأيديولوجية، حول كيف يجب على السائقين أن يدوروا حوله يمينا وشمالا حتى لايصيبوه. وهذا الموقف المبدئى الذى ينظر إلى المنفى كمضمون طبيعى وطريقة وجود شرعية لليهود، يتجاهل حقيقة أن اليهودى لم يعط على الإطلاق شرعية روحية نهائية لهذه الطريقة من الوجود.

بناء على ذلك.يجب على النقد أن يبدأ بهز وجهتى النظر وأن يحاول أن يبنى أطروحة جديدة. وسوف أقسم أقوالى الى ثلاثة أجزاء:

أ ــ استعراض تاريخى موجز لاثبات الاطروحة، القائلة بأن المنفى هو ثمرة رغبة الشعب، وأنه لم يلق بالشعب بالذات الى المنفى، بل هو الذى ألقى نفسه ومازال يواصل القاء نفسه اليه.

ب ــ محاولة تبرير أسباب هذه الظاهرة، مع أخذ حقيقة أن المنفى هو مصدر كل تلك الاضطهادات التى حلت على رؤوس اليهود، وأنه يعتبر (حتى فى الفترات

الهادئة) أمراً مؤقتاً، وتبرير الأسباب الداخلية لعلاقة الحب والكره هذه تجاه المنفى، وتجاه هذا التعذيب الذاتى.

جـ ـ الاستنتاجات الايديولوجية والعملية على المدى الطويل والمدى القصير النابعة من هذا التحليل.

المنفى كمضمون إرادى

سأبدأ بذكر بعض الحقائق التاريخية البسيطة والمعروفة للجميع والتى يفيد فهمها احيانا ويربك أحيانا أخرى.

لقد ولد ابراهيم ابو الأمة خارج فلسطين، واستدعاه الرب لترك وطنه وبيت أبيه ليصل الى أرض جديدة اختارها له الرب من أجل أن يخلق فيها شعبا جديداً مع عهد وميثاق جديد. اذن، فإن اليهودى الأول هو المهاجر الأول، ولكن هذا المهاجر هو أيضاً النازح الأول. لقد كانت الظروف الاقتصادية فى أرض كنعان صعبة ونزح ابراهيم فوراً الى مصر. وكم هو مفزع أن نعتقد أن هذا الرجل الكهل، الذى ترك موطنه وبيت أبيه بأمر الرب لكى يصل إلى أرض الميعاد، المزمع أن تكون بلد الشعب الذى سيولد من نسله، لاينجح فى الصمود فيها، بالرغم من أنه كان رجلا موسرا، وينزح منها إلى بلد آخر. كان من الممكن أن نفهم ضعفه لو كانت قد عمته الاشواق الى وطنه. ولكن الأمر لم يكن كذلك. إنه لم يعد الى وطنه، ولكنه نزح إلى بلد آخر. أن إصطلاح «نازح» ولد فى قصة ابراهيم، واليهودى الأول هو المهاجر الأول، والنازح الأول. وقد ظل اليهودى يحمل فى داخله هاتين الصفتين المرتبطتين بالهجرة والنزوح عبر التاريخ كله. إن ابراهيم يهاجر وينزح، ويعود للهجرة. ولم ينقض الا جيلين حتى يعود يعقوب الحفيد مرة أخرى للنزوح الى مصر، ولكن دون أن يحظى بالهجرة عائدا ويموت فى مصر (المنفى). لقد

ذهب إلى مصر (المنفى) مع أبنائه، لأنه كان هناك جوع فى البلاد. وأنا واثق من أنه كان هناك سكان آخرون فى البلاد ظلوا فيها بالرغم من الجوع. ويطلب يعقوب، أن يعيدوا رفاته الى فلسطين ويدفنوه هناك. هل هذه هى الرسالة الخفية لفلسطين، وهى أن تكون مقبرة لرفات اليهود، أم أنها أرض الأحياء؟ إذن فالأباء الأول، والأمة الجديدة المولودة، وعلاقة الأوائل بالبلاد، والذين كان من المفروض أن تكون علاقتهم بها بمفهوم معين نموذجا لكل الشعب، هى علاقة ذات مغزى مزدوج (الهجرة والنزوح).

لقد خلق الشعب اليهودى فى مصر. هل هذه الحقيقة مدركة لدينا بمغزاها الكامل؟ ان الشعب اليهودى لم يخلق فى فلسطين. إن العلاقة المادية والأولية بين الشعب ووطنه ليست علاقة طبيعية. لقد تم إعداد اليهود كشعب فى مصر، ومن هنا فإن المنفى كبوتقة لصهر اليهود تسلل الى أعماق الوجود اليهودى. وأكثر من هذا. لقد أعطيت التوراة فى الصحراء وليس فى فلسطين. والتوراة ـ إطار الصفات التى سوف تحدد هوية اليهود، وتحدد رسالتهم ـ لم يتم منحها فى فلسطين. إن العلاقة الخاصة التى قطعت بين الشعب وبين الرب كانت بدايتها فى الصحراء، وفى منطقة خاوية، فى منطقة وسط، بين المنفى وبين فلسطين ونحن نرى كيف أن الشعب يعود طوال التاريخ ويريد أن يجد هذه المنطقة الخالية عبر كل تاريخه، وبصفة خاصة حينما يريد توبة أو تجددا روحانيا. إن اليهود فى الصحراء يكونون فى حالة الميت الحى. إن الصحراء هى مكان الموت، وفى مكان الموت هذا يحدث التجدد الروحى، والصحراء أيضا هى مكان نقى، غير موبوء، وطاهر، وهناك يقوم اليهود باستعدادتهم من أجل المجىء الى البلاد. والرب يطلب بالفعل استعدادات دقيقة. إن الدخول الى البلاد هو دخول ذو مغزى كبير، إنه ليس احتلالا ماديا فقط للبلاد بواسطة شعب جوال، بل هو احتلال ذو مغزى روحى. ووعد الشعب بالبلاد

مقرون بشروط خطيرة، لأن القوة بمفردها لن تضمن سيطرته عليها، إن الشعب يستطيع أن يصمد فى البلاد فقط إذا ما أطاع صوت الرب وأقام شرائعه، وإذا لم يفعل ـ فانه سيتحمل عقابات شديدة، ذروتها ـ الطرد من البلاد، أى المنفى، ويتم إدراك البلاد كبلاد مقدسة، والمخطئون من بين الشعب ينجسونها ولذلك تتقيأ البلاد الشعب منها. وقد حدد فى هذه النصوص الأولى مبدأ أساسى وهو: الشعب أسبق من البلاد بكل المفاهيم. هناك شروط خطيرة وواضحة للبقاء فى البلاد، ولكن ليست هناك شروط من أجل نفس وجود الشعب. فيمكن للشعب أن يخطىء أخطاءاً جسمية للغاية، وبالرغم من كل ذلك فإن وجوده مضمون فوق كل شك. إنه يعاقب، ولكنه لايباد. إنه سيذهب للمنفى، ولكن هذا الذهاب ليس نهاية المطاف، فمن الممكن أن يتواجد فى المنفى ومن الممكن أن يعود منه أيضا. وقد إستقر فى الوعى اليهودى القديم، أن الخروج للمنفى لايتم بسبب قوة خارجية، بل بسبب خطأ روحى داخلى من الشعب، حينما كان فى الصحراء. وقبل أن يحقق اليهود دقيقة واحدة من الاستقلال، وقبل أن تطأ أقدامهم بلادهم كانت مازلت تتحدد فى السماء امكانية السير إلى المنفى والعودة منه (أسفار الخروج والعدد). وبصورة واضحة تحدد لليهود الذى ولدوا فى المنفى الامكانية العملية للوجود القومى بلا بلد ـ إقليم (هناك شك فى أن يكون احتمال كهذا ممكن حتى فى خيال الشعوب الأخرى).

إن وجود الصحراء فى الوعى اليهودى مهم للغاية. إن كل الأعياد القومية التى يحتفل بها اليهود (المظال والفصح والأسابيع، خلافا للأعياد الدينية الخالصة مثل: رأس السنة وعيد الغفران) ـ مرتبطة بوجود اليهود فى الصحراء.

وبناءا على ذلك، فإن اليهود يخافون من التحول إلى البلاد. وكلمة «خاف» هى مفتاح آخر من أجل علاقة اليهود بفلسطين. إن اليهود يخافون من الا

يستطيعون تنفيذ الشروط الصعبة التى وضعها الرب من أجل وجودهم فى البلاد. وهنا تكون قضية الجواسيس مثيرة للاهتمام: إن الشعب الذى يحارب شعوبا أخرى بنجاح منذ خروجه من مصر يمتلىء خوفا من سكان البلاد، لدرجة الرغبة فى العودة الى مصر. الا أن جيلا كاملا يجب أن يموت فى الصحراء وجيل جديد، لم يعرف المنفى، يجب أن يولد من أجل يكون جديرا ومجهزا للدخول الى البلاد.

ويصل اليهود إلى أرض كنعان، ويحتلوها ويقيموا فيها مملكتهم. وبعد فترة من الزمن تنقسم المملكة، وتمر مئات السنين وتتخرب مملكة اسرائيل. وتنفى الأسباط العشرة وتختفى. وذلك الجزء من الشعب، الجزء «الاسرائيلى» الذى تصرف حسبما يبدو، بصورة طبيعية للغاية أكثر من الجزء «اليهودى» الذى أقام فى منطقة يهودا، تصرف بصورة طبيعية هو الاخر حينما قذف به الى المنفى. لقد فقد مع فقدان أرضه ووطنه كل من هويته وقوميته. ان البلاد، والأرض، هى أجزاء موضوعية فى توصيف قوميته. لقد تصرف هذا الجزء من الشعب اليهودى فى بداية التاريخ حسبما تتصرف سائر الشعوب.

وبعد حوالى مائة وخمسون عاماتم تخريب مملكة يهودا، وخرج الشعب الى المنفى فى بابل وصمد. لقد حافظ على هويته وتصرف وفقا للخط الذى تحدد فى سفر العدد. لقد أثبت أن الشعب يستطيع أن يحافظ على هويته دون أن يتواجد ماديا فى البلاد. لقد بين ما هى قوة التواجد الكامنة فى الخيال وفى الروح. وكان هذا المنفى قصيرا للغاية حيث استمر فقط لمدة خمسون عاما. وحينما سمح وعد قورش فى عام ٥٢٠ ق.م لليهود بالعودة إلى فلسطين ليعيدوا بناء استقلالهم فيها، عاد فقط جزء صغير الى فلسطين ليبنى الهيكل الثاني، ولم يعد جزء محترم وهام من الشعب وظل طواعية فى المنفى. إن الرجال الذين ولدوا فلسطين، أو الذين ولد آباؤهم فيها، رفضوا العودة اليها وفضلوا البقاء فى المنفى. إنهم لم يتنكروا لأصلهم

ولهويتهم القومية ـ بل على العكس من ذلك، ظلت رابطتهم بالشعب عميقة، وأيضا أيدوا وشجعوا العائدين، ولكنهم هم أنفسهم لم يعودوا. وهنا نحدد النقطة الأولى للتصديق على افتراضنا لمصدر المنفى، والتى من الآن فصاعدا سوف تسيطر على التاريخ اليهودى. لقد قيل: لو هاجر إلى اسرائيل قدر من المنفى لما كان الهيكل قد تخرب ثانية. وينطوى هذا القول على حقيقة كبيرة. إن ذلك الجزء الذى ينضم الى العائدين لاعداد الاستقلال من جديد قد زرع بذرة الاضطهاد. إنه ربما كان يتطلع الى احتمال، ألا يصمد هذا المركز القومى، ويكون من المستحسن حينئذ أن تبقى البلاد بمثابة حلم، وبمثابة هدف وتطلع ومراد، بدلا من أن يروها كواقع مخيب للآمال.

وعشية خراب الهيكل الثانى كان حوال نصف الشعب اليهودى مشتت خارج فلسطين، لقد ترك اليهود فلسطين طواعية وتشتتوا فى بلاد مختلفة. ونحن نجد شواهد على وجود طوائف يهودية شمال أوروبا فى روسيا، وعلى حدود ليبيا، وفى بابل، وفى الاسكندرية، وفى روما، وفى آسيا الصغرى. لقد ذهب اليهود برغبتهم الحرة واستقروا فى أماكن بعيدة، ولم يكن هذا، لا سمح الله، لأنه لم يكن فى فلسطين أماكن كافية لهم. إن الحقيقة القاطعة هى أن فلسطين كانت مليئة بالاجانب الذين يقيمون فيها ويحتلون مساحات كبيرة منها، لأن اليهود لايقيمون فيها. وكانت هذه المنافى تقيم رابطة عميقة مع فلسطين وتبعث بالتبرعات لبيت المقدس، وتؤيد الثورة ضد الرومان تأييدا سياسيا، وهى تلك الثورة المجنونة التى لم يكن لها أى أمل، والتى أدت إلى تخريب فلسطين وخراب القدس. إن هذه الثورة غير الضرورية، المتطرفة عن كل الثورات ضد الامبراطورية الرومانية، والتى قادها متعصبون دينيون قوميون جروا اليهود جميعا إلى صراع لا أمل فيه ـ هذه الثورة ظلت تحظى بتشجيع معين من يهود الشتات. إن أولئك، الذين كانوا

يعيشون داخل بيئة شتاتية واضحة، وبين الأصنام والأوثان، والذين تخلوا راضين عن أى ظل من الحياة القومية فى بلادهم، هم الذين كانوا يشجعون المتطرفين والمتعصبين فى القدس من أجل المطالبة بالتخلص من من الأوثان فى الهيكل تعبيرا عن استقلالهم السياسى والدينى الكامل، وهو الأمر الذى لم يمنح لاى أمة فى الامبراطورية الرومانية.

إن خروج ربى يوحانان بن زكاى من القدس عشية التخريب من أجل اقامة « يفنه» قد حدث لعلمه بالتخريب الآخذ فى الاقتراب وضرورة التخلى عن البلاد كعنصر رئيسى فى الهوية القومية والاستعداد لخلق حياة منفى واضحة ربما لاتقام خلالها الازدواجية منفى مركز. إن الشريعة الجديدة التى بنيت، هى بالذات بمثابة عودة إلى حالة الصحراء. وكان معنى هذا، أن اليهود الذين فقدوا استقلالهم وفقدوا فلسطين بعد ذلك، يستعدون مرة أخرى من أجل العودة إليها، ولكن الاستعداد هذه المرة سيكون جديا، وسيكون بمفهوم معين أيضا إستعداداً لانهائى: الخلاص الكامل، نهاية التاريخ، نهاية الأيام.

وهكذا بدأت ألف وثمانمائة عام من المنفى، ولعلى لا أكون مخطئا إذا ما قلت أنه خلال هذه المئات من السنين، ومنذ خراب الهيكل الثانى وحتى بداية الصهيونية، وبالذات حتى أيامنا هذه،لم يبذل اليهود أى مجهود جدى وذو مغزى من أجل العودة إلى فلسطين، ليس فقط من أجل إعادة استقلالهم السياسى بل حتى من أجل محاولة الاستيطان والتمسك بها. إن هؤلاء اليهود الذين ابدوا حصافة ومرونة ودهاء لكى يتسللوا تقريبا الى كل مكان على وجه البسيطة ـ من جبال الأطلس حتى وديان الصين، ومن بلاد جنوب أمريكا حتى صحراء سيبريا ـ لم يبذلوا أى محاولة حقيقية للعودة والاستيطان فى فلسطين. لقد جال اليهود طوال التاريخ من مكان الى آخر، وبدلوا بلادا، ولكنهم كانوا دائما يتجاوزون فلسطين.

لقد استوطن اليهود بشكل دائم فى كل بلاد البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم كانوا ينجذبون اليها من ناحية ويخافونها ويتجاهلونها من ناحية أخرى. لقد أدى الطرد الأسباني والبرتغالى فى نهاية العصور الوسطى الى عمليات تشتت لالاف اليهود فى بلادا الشرق، ولكن الذين وصلوا الى فلسطين كانوا قلة معدودة. لقد أقام اليهود فى سوريا، وفى مصر، وفى العراق، وفى اليمن وفى اليونان وتركيا، وكانت فلسطين هى الوحيدة الخالية من اليهود. لقد أقام أعظم فلاسفة اليهود ربى موشيه بن ميمون فى مصر على مسافة صغيرة من فلسطين، وحينما احتل صلاح الدين القدس عام ١٧٧١م نجده لايذكر هذه الحقيقة الرهيبة فى كتاباته ولو بكلمة واحدة. ومن المثير أن نسمع الايديولوجيين، على اختلاف أنواعهم، يحصون بحماس عدد اليهود فى فلسطين عبر الأجيال من أجل إثبات أنه كان هناك تتابع استيطانى لليهود فى فلسطين، ويشيدون بالأسرة القديمة التى أقامت فى فقيعين، ويمجدون كل حاخام هاجر إلى فلسطين مع طائفة أتباعه وصمد هناك لعدة سنوات. إن اليهود لو كانوا قد اتصلوا بفلسطين مثلما اتصلوا ببولندا، على سبيل المثال، أو بابل ،ولو كان اليهود قد حاربوا من أجل حقهم فى الإقامة فى فلسطين كما حاربوا من أجل حقهم فى الاقامة فى انجلترا التى طردوا منها عام ١٢٩٠ ، لما كان هناك ضرورة لاثبات، أنه هنا قد أقامت حفنه من اليهود وأن ربى يهودا هليفى قد عمته الأشواق الجارفة ووصل إلى فلسطين رغم كل شيء. كل هذه الهجرات الصغيرة اليهودية الى فلسطين، والتى لم تتوقف فعلا على الاطلاق، تثبت أنه كان من الممكن الوصول إلى فلسطين والاستيطان فيها، ولكن الغالبية العظمى من اليهود لم ترغب فى ذلك. صحيح، أنه قد فرضت عمليات منع وأحكام على اليهود الذين أقاموا فى فلسطين، ولكن ما هو المكان الذى لم تحدث فيه مثل هذ العمليات من المنع والطرد والمذابح والأحكام القاسية؟ ان اليهود كما نجحوا فى

التسلل عبر الشقوق التى فتحت فى أسوار بلاد كثيرة، وان يصمدوا فى ظروف أنظمة حكم مختلفة وغريبة، ووسط ثقافات أجنبية وبعيدة، كانوا يستطيعون أن يفعلوا هذا أيضا فى فلسطين، التى تبدلت عليها ستة أنظمة من الحكم منذ خراب الهيكل الثانى.

إن الدليل القاطع على أن اليهود لم يبذلوا أى جهد من أجل العودة إلى فلسطين هو عدد اليهود الذين كانوا يقيمون فيها فى بداية القرن التاسع عشر. لقد كان مجموع اليهود ١٥ ألف من بين شعب يبلغ تعداده ٢٫٥ مليون نسمة. إن اليمن، على سبيل المثال، تلك البلد التى اضطهد فيها اليهود بشكل قاسى للغاية، وكانوا يعيشون فيها فى فراغ ثقافى ومادى، كان فيها فى نفس تلك الفترة، وهى بداية القرن التاسع عشر، حوالى ثلاثين ألف يهودى.

لقد بدأت الصهيونية فى نهاية القرن الماضى، ليس من أجل اشواق جديدة الى فلسطين، ولا كذلك بسبب كراهية مفاجئة للمنفى. لقد كان اليهود يكرهون المنفى دوما، وكانوا يشتاقون إلى فلسطين بكل جوارحهم. ولكن كراهية المنفى والأشواق الى فلسطين لم تحرك اليهود من مكانهم. لقد بدأت الصهيونية بسبب الاحساس بالخوف من المنفى. لقد اتضح لليهود فجأة الى أى مدى من الممكن أن يصبح واقع هذه الوجود خطيرا ومروعا. والخوف من المنفى هو الذى زاد لدى البعض على الخوف من فلسطين.

لقد كانت الصهيونية فى بدايتها حركة قلة معدودين، ورفضها معظم أجزاء اليهود: أولا وقبل كل شىء، رفضها الدينيون، ورفضتها جماعة البوند أيضا، ورفضها الاشتراكيون اليهود، ورفضها المتصهرون بأنواعهم، ورفضها الحالمون بحلم الحكم الذاتى الثقافى. إن اليهود بجموعهم لم يكونوا راغبين فى الصهيونية ولم

يؤمنوا بها. وهذه الحقيقةالحاسمة يجب ألا تُنسى. وبعد الحصول على وعد بلفور وبعد أن فتحت أبواب فلسطين، ومنحت دولة عظمى مثل بريطانيا حمايتها لامكانية اقامة دولة يهودية فى فلسطين مازال الشعب اليهودى لم يأت الى فلسطين. إن أى محاولة للحكمة والفهم والتفسيرات المثالية لا تمحو هذه الحقيقة الحاسمة التى تبدو جليه للعيان. لقد كان بإمكان اليهود أن يقيموا دولة يهودية فى فلسطين خلال العشرينيات، ولكن من بين ملايين الذين هاجروا من الشرق الى الغرب وصل الى فلسطين خلال السنوات ١٩١٧ ــ ١٩٢١ ثلاثون ألف يهودى فقط. وخلال العشرينيات وصل إلى فلسطين بصعوبة مائة ألف يهودى. وكان تعداد اليهود فى العالم فى تلك الفترة حوالى ١٥ مليون يهودى. ولو كان عشرة بالمائة من تعداد اليهود قد وصلواالى فلسطين، أو حتى خمسة بالمائة فقط، لكان من الممكن أن تقوم دولة يهودية من قبل وقوع الكارثة النازية ــ على كل أرض فلسطين أو على جزء منها. إن مليون يهودى فى فلسطين خلال العشرينيات كانوا يحددون حقيقة حاسمة داخل الشرق المستيقظ من غفوته الطويلة، كذلك فإن الكارثة النازية ما كانت لتحدث على الأطلاق بأبعادها الرهيبة، لو كانت الدولة اليهودية قد قامت قبل الحرب العالمية الثانية. إذن فاليهود مسئولون عن مصيرهم الرهيب فى ذلك القرن.

ولكن إذا كان هناك أحد فى حاجة إلى الدليل النهائى والقاطع بشأن العلاقة المشكوك فيها بين اليهود وفلسطين، وبشأن حقيقة أنهم لم يحاولوا العودة إلى فلسطين بشكل جدى، وبشأن خشيتهم من العودة والتصاقهم بالمنفى، فإنه ليس أمامه إلا أن يستعرض ويفحص سنوات الدولة الخمسين. ان الابواب مفتوحة، والامكانيات هائلة ــ ولكن المهاجرين لايأتون. إن موجات الهجرة التى وصلت إلى فلسطين كانت فى غايتها العظمى موجات هجرة تحت ضغوط: لاجىء النازية،

لاجىء البلاد العربية، ولاجىء البلاد الشيوعية. الخ. أقلية لابأس بهافقط هى التى وصلت الى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة، وهذه الأقلية تثبت مرة أخرى، وبشكل متناقض، مثل الهجرات الحرة عبر مئات السنين التى مرت، أنه يمكن الوصول إلى اسرائيل بدافع من الرغبة الحرة.

إن القاسم المشترك لعدم مجىء الطوائف اليهودية، التى تختلف كل عن الأخرى فى تكوينها الاجتماعى، الى فلسطين، هو نفس القاسم المشترك الذى حال دون مجىء اليهود اليها عبر مئات السنين. إن يهود روسيا الذين يعرضون أنفسهم للخطر من أجل مغادرة الاتحاد السوفيتي يفضلون الاقامة فى ضاحية مدينة ألمانية والعيش على تبرعات وكرم مؤسسة يهودية أو مسيحية، وألا يأتون الى إسرائيل، التى تعرض عليهم ظروف استيعاب معقولة بالتأكيد. لقد فضل يهود لبنان حتى السنوات الأخيرة أن يعيشوا على بعد مائة متر فقط من مركز الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبالقرب من مراكز العداء والكراهية الكبيرة للغاية ضد اسرائيل، ولايأتون الى اسرائيل بالذات. ويهود الأرجنتين يفضلون الحياة فى ذلك البلد الفاشستى المنهار من الناحية الاقتصادية وفى مواجهة معاداة سامية متعاظمة وألا يصلوا الى اسرائيل. إن النماذج آخذة فى التزايد: يهود سوريا حتى عام ١٩٦٧، ويهود الجزائر، ويهود إيران وكل يهود الغرب بالطبع. ولكل طائفة من هذه الطوائف، بالطبع، تفسير خاص بها لتبرير عدم الهجرة: فهنا تبرير اقتصادى وهنا تبرير أمنى، وهنا تبرير صعنوبات الخروج وهنا تبرير دينى. ولكن بالذات بسبب التنوع الكبير فى التبريرات المختلفة، والتى تتناقض احيانا كل مع الآخر، وعلى ضوء حقيقة أن ظروف دولة اسرائيل قد تغيرت تماما فى الثلاثين عاما الماضية وتبدلت فى اللون والصورة ـ من دولة طلائعية الى دولة استعمارية، ومن دولة ذات طابع

علمانى الى دولة ذات طابع دينى قومى ـ يجب أن يكون هناك تبرير ثابت، تبرير أساسى، لهذا التمسك بالمنفى.

إننا، على سبيل المثال، وإذا جمعنا مندوبين نموذجيين للجماعات المختلفة التى تشكل الوجود اليهودى: أحد اتباع الربى من ساطمر، وأحد أتباع الربى من لوفافيتش، وحاخام أرثودكسى، وحاخام منحافظ، وحاخام إصلاحى، وزعيم صهيونى، وعضو طائفى وبروفيسور محافظ، وبروفيسور منصهر، ويهودى غنى، ويهودى فقير، وطالب من أعضاء جمعية الدفاع اليهودى وطالب يسارى ـ لأدركنا أن كل واحد منهم يفسر مضمون اليهودية وطابع الانتماء اليها بصورة مختلفة، ولوجدنا أن لكل واحد منهم صورة خاصة عن اسرائيل وعن رسالتها، ولوجدنا أن لكل واحد تبريرا مختلفا تماما عن عدم هجرته الى إسرائيل، ولوجدنا أن لكل واحد مهم نقدا مختلفا لما يجرى فى اسرائيل. ولكنهم جميعا يشتركون فى شىء واحد، وهو أنهم لايهاجرون الى اسرائيل.

ولو كان من الممكن أن نضم الى هذه الجماعة يهودا من كل الفترات التاريخية ومن أماكن بعيدة ومن حضارات مختلفة لكان كل واحد منهم سيحضر معه وجهات النظر اليهودية الخاصة بعصره، والتأكيدات والتفسيرات الخاصة به. ومرة أخرى ـ مع كل الاختلاف الهائل، سيكون هناك شىء واحد يشتركون فيه جميعاً: هو عدم مجيئهم لفلسطين. ومن المستحيل إزاء ظاهرة المنفى الموغلة فى القدم، وإزاء التنوعات الكثيرة جدا للوجود اليهودى، الاكتفاء بالتفسيرات الجزئية، التى قد تبدو طيبة فى حينها فقط، بل يجب أن نبحث عن الأسباب الأولية والأساسية لهذه الظاهرة، وبصفة خاصة فى مواجهة الحقيقة الحاسمة، وهى أن اليهود بكل تعبيراتهم الروحانية والوجودية قد رفضوا المنفى كاحتمال دائم للوجود

اليهودى ورفضوه رفضا داخليا. إن اليهود لم يمنحوا المنفى شرعية على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، حيث كان المنفى فى وجدان اليهود دائما بمثابة كارثة، ولعنة، وانحطاط، ومصدر للشر، وحالة مؤقتة بالطبع. إن الروح القدس «منفية» هى الأخرى مع الشعب، والعالم لن يعود الى صلاحه إلا بعد عودة اليهود الى فلسطين.

ولم يكن وهذا مجرد تفكير مجرد، بل وجهة نظر وجودية حية. لقد كانوا يفكرون فى فلسطين من الصباح حتى المساء وكانوا يتجهون بصلواتهم إليها، ويتحدثون عن العودة الى فلسطين والحنين اليها، وكانت أشعار الخلاص جزءا من الوجود الدينى لليهودى. وكانت جملة «للعام القادم فى القدس» جملة أساسية فى الوجدان الروحى. ويمكن أن يشير الإيمان «بالتناسخ» الى مدى عمق وجهة نظر المرحلة الإنتقالية بالنسبة لحالة المنفى. إن اليهودى اذا مات فى المنفى فإن جثته، وفقا لهذه العقيدة، تعود بطريقة التناسخ الصعبة الى فلسطين. وبعث الموتى سيكون فى فلسطين. وكانوا من الصباح حتى المساء يدرسون الشرائع المرتبطة بفلسطين وكانوا يحتفلون بالأعياد وفقا للتقسيم السنوى الذى يناسب فصول السنة فى فلسطين. وانفجارات الحركات المسيحانية والصدى الهائل التى كانت تثيره بين اليهود تبين بوضوح مدى عمق الرغبة فى الخلاص لدى كل الطبقات اليهودية.

إننا نرى إذن، كراهية ورفض مطلق لحالة المنفى من ناحية، وانجذاب قوى لاقامته والحياة فيه، من ناحية أخرى. وقد فشلت كل المحاولات (وهى قليلة للغاية) من أجل منح شرعية لوجود المنفى، ومن بينها محاولة الاصلاحيين فى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل بناء إطار شرعى لليهود فى البلد الذى يعيش فيه، بينما تكون علاقته بفلسطين قائمة بدون العنصر القومى، ومبنية على الصلة المجردة على

غرار علاقة المسيحيين الكاثوليك بالفاتيكان.لقد فشل الاصلاحيون في محاولتهم هذه، بالرغم من أنه من الناحية النظرية كانت لديهم كل الظروف للنجاح. وقد عادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى أحضان الحركة الصهيونية.

وهنا يتضح سلوك ذو طابع عصابي واضح: الشعب يكره المنفى ويحلم بفلسطين، والشعب يرفض المنفى بكل طبقات نشاطه الروحاني والأصيل، ولكن في مقابل هذا ولكن مشغول بغاية واحدة وهي: كيف يصمد في المنفى، وكيف يواصل اقامة هذا الوجود المكروه.

ما هي التبريرات التي اعطاها اليهود أنفسهم لهذا الموقف. إن التبرير الرئيسي كان منطويا على التعبير «قدر اللحم» أي الخوف من الصعوبات الاقتصادية في فلسطين، أو الخوف من ترك موقف اقتصادي مرتفع في بلاد المنفى.

هل هذا حق؟ يهيؤلي، أنه ليس هناك أي تبرير أدى إلى تضليل كبير للغاية مثل هذا التبرير، الذي تم عرضه باعتباره حقيقة لا تقبل الجدل.

إنني أعتقد أنه من المستحيل تفسير تاريخ أي شعب على أساس الديناميكية والباعث الاقتصادي فحسب، وسيصعب بالتالي عمل هذا بالنسبة لليهود، وعلينا أن نكتشف سبب احتياج اليهود للبقاء في المنفى، تلك الحاجة التي جرت عليهم الكوارث الكثيرة للغاية. إن سبب هذه الحاجة، ليس فقط أنه يجب أن يكون مبرهنا بوضوح، بل إن هناك أيضا مغزى لكشف قوته المميزة لليهود، بينما توجد شعوب أخرى معفاه منه. هل علينا حقا أن نوافق على أقوال ماركس ـ بأن الرب الحقيقي والوحيد للشعب اليهودي هو إله المال؟ وأن المحرك الحقيقي للشعب اليهودي هو شهوة المال؟ وأننا بذلك فقط يمكن أن نفسر الانجذاب العميق والباثولوجي (المرضي) للشعب الى وجود، هو نفسه يستنكره تماما.

هل حقا؟ هي يمكن أن نتصور تاريخ اليهود باعتبار أن المحرك الأساس له هو

عنصر المال؟ يهيؤلى أن حتى المعادى للسامية يتردد فى هذا . فمن ناحية نحن نرى يهودا يضحون بأنفسهم على مذبح الرب، ويقبلون على أنفسهم أحكاما قاسية للغاية من أجل المحافظة على الاخلاص للفكرة وللعقيدة، ومن ناحية أخرى نفس هؤلاء اليهود يوصفون بأن الذى يحركهم هو المال فقط. أليس هذا مناف للعقل؟ ولكننا نسأل السؤال التالى: هل خلق المنفى فعلا بالنسبة لليهود ظروفا اقتصادية مريحةبصفة خاصة؟ هل نجح اليهود حقا (الذين يتحركون، بواسطة الرغبة فى المال فقط) فى الحصول على مرادهم باقامتهم فى المنفى؟ يهيؤلى أن الاجابة على ذلك هى اجابة حاسمة: لقد كان اليهود بالذات بعيدين جدا عبر تاريخهم كله فى المنفى عن الوصول إلى الوضع الاقتصادى المرتفع. لقد كان غالبيتهم العظمى فى حالة متردية من الفقر. لقد صدرت ضدهم أحكاما خطيرة للغاية بسبب وجودهم فى المنفى، وكانت أملاكهم تحدد وتصادر طوال الوقت. أى مكاسب اقتصادية كانت ليهود بولندا أو ليهود اليمن أو لساكنى المغارات فى جبال الأطلس فى المغرب؟

وأكثر من هذا ـ ليس معنى الإقامة فى فلسطين هبوط فورى وحاد فى الوضع الاقتصادى. هل التاجر اليهودى الموسر فى سوريا أو فى العراق كان سيفقد رأس ماله لو انتقل للاقامة فى فلسطين، وماهو التبرير لفكرة أن الشعب اليهودى يختلف موضوعيا عن أى شعب آخر فى علاقته بالمال، ولذلك فهو يفرض على نفسه الالتصاق بالمنفى بثمن تاريخى ثقيل للغاية، وهل هناك أيضا أى دليل على أن الحياة فى المنفى قد منحت، حقا، لليهود أمنا اقتصاديا؟

إنه من المثير للاهتمام استخدام التعبير «التاناخى» (الستاناخ هو اسم عبرى لكتاب العهد القديم) «قدر اللحم». إن مصدر هذا التعبر هو جيل الصحراء، ونحن نعرف جيدا أن رجال ذلك الجيل كانوا عبيدا فى مصر، ولذلك لم يكن لديهم أى

«قدر لحم» وأنهم حينما يشتاقون اليه فإنما يشتاقون لشيء لم يكن لديهم على الاطلاق. إن حقيقة أننا نتصلب فى استخدام هذا التعبير، المدحوض من أساسه، يبين مدى التناقض فى الاستخدام الدلالى له، ومدى عدم كشفه للسبب الحقيقى لهذا الانجذاب نحو المنفى. إن التبرير الاقتصادى يستخدم بمثابة تغطية أو كبديل لتبريرات أعمق، نخشى الأعتراف بها.

كذلك أيضا التبرير الأمنى، الذى يقول أن اسرائيل خطيرة و«تأكل ساكنيها» ليس صحيحا. إننا نجد طوال كل فترة المنفى طوائف يهودية تعيش فى أماكن معرضة أكثر للخطر وتحت سيطرة حكام قساة للغاية. لقد رأينا نصب أعيننا أن يهودا ايران، الذين يستطيعون أن يخرجوا محترمين من بلادهم وخلال ثلاث ساعات ليكونوا مواطنين فى دولة اسرائيل، لم يخافوا من حاكم خطير ومجنون فى صورة الخمينى ويعيشون فى داخل البركان . إن اليهود، لو كانوا قد أقاموا فى فلسطين ولو حتى كأقلية اقليمية لكانت لهم حقوق أكبر بكثير من مجرد اقلية من الأجانب المشتتين فى أماكن كثيرة. إن «حالة الحرب السائدة فى البلاد» تبدو بمثابة تبرير خال من أى حقيقة مع مجىء السلام. ونحنن نعرف جيدا، ان مجىء السلام لن يجذب إلى اسرائيل موجات الهجرة.

أن الخرافتين المعاديتين للسامية، خرافة حب اليهودى للذهب وخرافة الخوف اليهودى ـ هما اذن مدحوضتين. ان اليهود لو كانوا فعلا من محبى المال وجبناء، لكان من الممكن منذ زمن بعيد أن يجتمعوا للاقامة فى فلسطين ويجنبون أنفسهم ضائقات وأشكال مختلفة من المعاناة الصعبة.

الخلاصة

لقد حاولت حتى الآن أن أتناول ثلاثة آراء علمية:

أ ـ أن المنفى كحالة وكاحتمال هو من بين الأسس الأولية للغاية التى تشكل مضمون الوجود اليهودى. وأنه يوجد فى الجزئيات وفى الذرات التى تبنى هويته الروحية والوجودية. وأنه جزء عضوى من الخرافات القومية لليهود. وأن المنفى ليس حالة خارجية مفروضة، بل حالة داخلية اختارها اليهود ويشتاقون اليها. وأن وجود اليهود يتخطى أى ظرف من الناحية الدينية، وكذلك أيضا من الناحية القومية. إن اليهود يمكنهم. أن يصنعوا أكبر الرذائل فى نظر إلههم، ويمكن أن يفقدوا كل ملامح هويتهم القومية ويظل وجودهم مضمونا. أنهم يعاقبون ولكنهم لايبادون على الإطلاق، وفى مقابل هذا يمنحون الوجود السيادى فى فلسطين، ويمكن القول أيضا الإقامة فى فلسطين ذاتها، فى ظروف صعبة جدا ليست مفهومة تلقائيا. إن اليهود يمكنهم أن يتواجدوا خارج فلسطين وجودامؤقتا منحدرا، ولكنهم يظلون بمثابة وجود (وقليلة هى الشعوب التى تستطيع أن تتصور لنفسها كيف يمكن المحافظة على الهوية القومية بينما الشعب كله منفى من وطنه).

ب ـ إن المنفى عبر كل النشاط الروحانى لليهود عبر التاريخ كان ينظر إليه ويستنكر كوجود مهين ومتدهور، وكحالة من الانحطاط، ولم تعط أى شرعية حقيقية للمنفى كحالة دائمة، وقد كان السؤال دائما، كيف نصمد كيهود فى المنفى لحين مجىء الخلاص، الذى لم نتخل عنه أبدا. ولم يكن الخلاص شىء مجرد، بل كان عودة جقيقية ومادية لفلسطين. لقد كان المنفى بمثابة حالة تؤدى باليهود الى وجود الكاذب (ابراهيم، المنفى الأول وصل الى مصر واضطر على الفور للكذب بشأن زوجته). ان الكذب والخلاص كل منهما من مندمج

فى الآخر، وذلك لأن الشعب كان يجب عليه ان يسير بحذر حول ولاءات مزدوجة، فهو يجب أن ينظر اليه كميت من الناحية القومية من أجل ألا يضع قوميته فى صراع صريح مع القوميات التى يعيش فى وسطها. ولكن حيث أن وجود اليهود كان يتجاوز أى ظروف، فانهم كانوا يكرسون كل خيالهم ويستثمرون كل مواردهم الوجودية من أجل الصمود فى المنفى، وإن كانوا يرفضونه من الناحية الروحانية.

وهكذا، أصبح هنا موقف متناقض، شبه مرضى. اليهود ينجذبون الى المنفى باعتباره الامكانية التى ينطوى عليها وجودهم، ويكرهونه ويبذلون كل ما فى وسعهم من أجل الصمود فى داخله ولكنه بالذات يبعد العودة الى فلسطين، بسبب صفته الاخذة فى التحسن للصمود فى المنفى. أن اليهود يشعرون بأنه مذنبون لأنهم لايعودون الى فلسطين، وبناء على ذلك فانهم يتفاخرون بها ويرفعونها أكثر وأكثر، ويحددون لها مضمونا أعمق وقدسية ويجعلونها بلدا عجيبة وهذا لكى يبررون حقيقة أنه جدير بالعودة اليها، ومن ناحية أخرى يتجنبونها باعتبارها كابوس، وبلد خطيرة، ومجنونة، «تأكل ساكنيها» لكى يبرر مخاوفه من العودة.

جـ ـ حاولت أن أوضح أن «قدر اللحم»، والخوف من فقر البلاد، والخوف من الخطر المادى الخ ـ هى بمثابة حجج خارجية، ومن الممكن أن نثبت أن طوائف كاملة وجماعات يهودية كبيرة عاشت فى ظروف من الفقر، والخطر وفى قفار أراضى الشعوب الأخرى ـ ولكن هذا الوجود لم يقلقهم على الإطلاق. وأكثر من هذا، كان اليهود هم أكبر الثائرين فى التاريخ، وتحركوا من بلد إلى بلد، وبالرغم من ذلك فانهم كانوا يتجاوزون فلسطين دائما. ان اليهود الدينيين لم يعودوا بسبب الخوف من «دفع نهاية الأيام»، والعلمانيون لم يعودوا لأنه كانت لديهم «بشرى» روحانية للشعوب الأخرى. وقد قلق الأغنياء

على ممتلكاتهم وخاف الفقراء من فراق أقاربهم. وقد أمل الاشتراكيون فى الغاء كل الفوارق القومية، ولم يعرف اليهود الذين عاشوا فى افغانستان أو الهند ببساطة أين تقع فلسطين (ولكنهم عرفوا اين تقع انجلترا أو فرنسا) واليهود الذين اقاموا فى روما خافوا من سلطة روما القاسية فى فلسطين، واليهود الذين عاشوا فى سوريا أو فى مصر انتظروا أن تمتلىء البلاد بيهود آخرين وحينئذ يستطيعون التقدم في آخر الطابور. واليهود الاصلاحيون لايهاجرون لاسرائيل لأن الاصلاح لايحظى باعتراف كامل، واليهود الارثوذكس لايأتون لانهم لايحترمون قدسية يوم السبت فى تل أبيب. إننى مقتنع، أنه فى القرن الحادى والعشرين والثانى والعشرين ستقام مستعمرات لسكان الكرة الأرضية فى الفضاء، ومن بين هذه المستعمرات سوف توجد طائفة يهودية صغيرة سيكون لها حاخام ومعبد معلق فى الفضاء وسوف يصلى فى الفضاء وسوف يردد فيه العلماء اليهود «للعام القادم فى القدس». إننى واثق أن جزء منهم سوف يرسلون أبناءهم ليدرسون لمدة عام فى اسرائيل، ومن المحتمل أن يقيم هناك مبعوث اسرائيلى فى المركز الطائفى ويحاول تشجيعهم على الهجرة. وحينما سيسألونه لماذا لايأتى اليهود، فانه سيحاول تبرير هذا بتبريرات مثل، صعوبات التكيف مع قوانين الجاذبية الموجودة فى اسرائيل. ليست هناك نهاية لخيال الحجج. ولكن أين هى الحقيقة؟

واذا كان الأمر كذلك فأننا نسأل السؤال الموضوعى ـ لماذا؟ ما هو السبب لهذا الاختيار المؤلم والمفروض للمنفى؟ لماذا يخاف اليهود الى هذا الحد من الحياة ذات السيادة الطبيعية فى فلسطين؟ إن هذا فى رأيى هو السؤال الأكبر المتصل باليهود ولابد من أن نكرس من أجل توضيحه كافة قوانا الروحية.

الفصل الأول
أباء ورعاة

بعد هذه الأمور صاركلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلا «لاتخف يا أبرام. أنا ترس لك».. «فقال أبرام أيها السيد الرب» ماذا تعطينى وأنا ماض عقيم؟.. «فإذا كلام الرب إليه قائلا.. «الذى يخرج من أحشائك هو يرثك..» ثم أخرجه إلى خارج وقال أنظر الى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها».

سفر التكوين، الاصحاح الخامس عشر

يشير العهد القديم الى التفور الذى كان يشعر به المصريون نحو البدو الذين كانوا يرعون قطعان الأغنام والماعز شرق الدلتا، إلا أن البدو استطاعوا عبر التاريخ إبقاء قطعانهم فى تلك المنطقة بصفة عامة. وحتى فى يومناهذا يظهر العرب البدو بصفة منتظمة فيها.

س. أف. بفايفر، «مصر وسفر الخروج»

من المتعارف عليه أن تاريخ مصر ينقسم إلى ثلاثين أسرة من مينا (٢٩٨٠ سنة قبل الميلاد) الى فتح الاسكندر (٣٣٢ سنة قبل الميلاد).

س. أف. بفايفر، «مصر وسفر الخروج»

«لقد بذل كثير من الجهد لوضع تاريخ اليهود على أساس غريب غامض بينما بذل جهد قليل لتفسيره بمفاهيم القوى التى تحركت ومازالت تتحرك عبر كل تاريخ البشرية».

الحاخام المر بيرجر، «المعضلة اليهودية»

الفصل الأول

يكون الشرق الأدنى، أى الأرض الممتدة على الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، والتى تقسمها الى لبنان، وسوريا، وفلسطين، والأردن، منطقة جغرافية، واحدة، وإذ يحد هذ المنطقة غربا البحر الأبيض المتوسط، والصحراء السورية شرقا فإنها تمتد قرابة خمسمائة ميل من الشمال الى الجنوب بينما هى حوالى ثمانين ميلا فقط من الغرب الى الشرق.

وتنقسم هذه المنطقة الى قطاعات محددة تحديدا واضحا تمتد من الشمال الى الجنوب ففى الغرب يقع السهل الساحلى الذى يمتد من الاسكندرية (الحديثة) الى غزة. ويلى السهل الساحلى ويوازيه سلسلة جبال عمانوس ولبنان والجليل الأعلى والسامرة ويهودا. وإلى الشرق من هذه الجبال يوجد شق عميق، يضم نهر العاصى والبقاع ووادى الأردن ووادى عرابة وخليج العقبة والبحر الأحمر. وعند البحر الميت ينخفض هذا الشق إلى ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر.

وإلى الشرق من هذا الشق العميق تقع سلسلة أخرى من الجبال تشمل الجبال المواجهة للبنان، والجولان، وجبال موآب، وآدوم، هذا إذا ما استخدمنا ألفاظ كتاب العهد القديم. وبينما تشكل هذه السلاسل جروفا ومنحدرات شديدة الى الغرب.. نراها تميل ميلا تدريجيا الى الشرق لتلتقى بالهضبة المرتفعة للصحراء السورية.

* * *

وقد نبأنا علماء الآثار القديمة، مؤخرا، بوجود مدن فى فلسطين، وبالتالى وجود مجتمعات سياسية منظمة منذ سبعة آلاف سنة قبل الميلاد رغم وفرة الآلات المصنوعة من حجر الصوان، والتى يرجع عهدها إلى العصر الحجرى المتوسط. وقد

كان لسلاسل الجبال التى تمتد من الشمال إلى الجنوب، كما كان للشق والوادى الذى يتوسطها أثر جد عميق على السكان، إذ كانت هذه العوائق تجعل من الصعب على القبائل الرحل النزوح من الصحراء الشرقية. وكان المهاجرون القادمون من الشمال قادربن على التحرك جنوبا فى السهل الساحلى أو فى وادى الشق دون أن تعترضهم أية موانع طبيعية. ويبدو أن الناس الذين كانوا يستخدمون الحجر الصوان، قد اجتاحتهم أقوام نزحت من الشمال كانت تستخدم النحاس، وقد تعرض هؤلاء بدورهم سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد لاجتياح الأقوام الذين كانوا يستخدمون البرونز. ومن الأرجح أن الآخرين كان أصلهم القوقاز أو منطقة بحر قزوين[1]. وكانوا، بناء على ما ذكره فلندرز تيرى، على جانب كبير من الحضارة، حيث عثر ضمن مخلفاتهم على بعض الأدوات، المستوردة من بلدان قاصية مثل أيرلنده والهند.

ويبدو أن الحوربين قدموا الى سوريا الشمالية من شمال بلاد الفرس أو من التركستان، ثم تلاهم الحيثيون الذين كانوا يعيشون على هضبة آسيا الصغرى، ومن الأرجح إنتماءهم إلى الأرمينيين العصريين، وتتميز هيئتهم بالأنوف الكبيرةالتى نربطها باليهود. وفى الواقع لايزال يمكن رؤية هذه السمة الغريبة بين الأرمينيين والعرب من أهل سوريا، ولكن ليس بين سكان الجزيرة العربية. ويقول موسكانى: «أنه توجد سلالتين متميزتين فى الشرق الأدنى، هما سلالة «الشرقيين» فى الجزيرة العربية وبلاد الفرس، وسلالة «الأرمينيين» الذين يتميزون بالأنوف الضخمة. وتدل كلمة سامى فى الأصل على مجموعة من اللغات. ويتعذر أن يطلق اسم «الشعوب السامية» على سكان الشرق الأدنى بصفة عامة، نظرا لاختلاط أنساب هؤلاء السكان اختلاطا شديدا[2].

---

(١) سير فاندرز تيرى، «فلسطين واسرائيل».

(٢) سابتينو موسكاتى، «الحضارات السامية القديمة».

طبوغرافية
الشرق الأدنى

الخريطة العامة لمنطقة الشرق الأدنى
خريطة رقم (١)

ولعل من الفائدة بمكان، ونحن فى هذا المقام، أن أوضح قبل الخوض فى مناقشة قصة العهد القديم، أن الموقف، كيفما كان، ليس فى المفاضلة السهلة بين الايمان أو عدم الإيمان، بل إن المشكلة تكمن فى كيفية تفسير المعانى.

والسائد هو أن الانسان ينمو ويكبر على مر الأعوام والأيام، وأنه كلما ازداد نموا زادت قدرته على إدراك الله. فقد كان الانسان الأول يفكر فى الآلهة وكأنما هى على غرار رؤساء قبيلته، تفرح أوتغضب أو تضطرب، وهى التى تمنح مؤيديها جزيل عطائها وتحاول الإنتقام من أعدائها. ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن الله كان أبدا على هذه الشاكلة، ولكن كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى استطاعت بها عقلية الانسان البدائى أن تتصور الله.

وبنفس الطريقة يرى الأطفال الصغار أباهم وكأنه على جانب من القوة والبأس ويحسون بالأمن والأطمئنان كلما أمسكوا بيده. ولكن عندما يكبرون قد يخافونه أو يمقتونه لأنه يسعى إلى السيطرة عليهم، فإذا ما بلغوا سن المراهقة اعتبروه غبيا أو رجعيا لايتواءم مع زمانهم. ولكنهم بعد ذلك كلما تقدمت بهم الحياة فانهم يحكون لأبنائهم كم كان أباهم رجلا جليلا فاضلا. والأب هو نفس الشخص طوال الوقت، إلا أن الأبناء كانوا يرونه فى مظاهر مختلفة حسب تطور عقولهم. والله سبحانه هو الله الواحد وهو ثابت لايتغير ولكن عقول البشر هى التى تتغير وتتبدل، وقد تخيلته فى صور متباينة على مر الدهور المتعاقبة.

وفى زمن العهد القديم تخيل الرجال البدائيون ربهم محارباعظيما يكره أعداءه ويغتبط عند قتلهم، وفى مرحلة تالية أخذوا فى نقده وظنوا أنهم قادرون على أداء عمل الله على صورة أفضل، تماما، كما يفكر المراهقون بالنسبة لآبائهم.

ولكن الله الرحيم لم يكن ينتقم من أبنائه جزاء تخيلاتهم الصبيانية المخطئة، فقد كان «عليما بمايكنه صدر الانسان وما توسوس به نفسه». ومع هذا فإنه تعالى كلما رأى إنسانا مقبلا على عبادته يبتغي وجهه فقط ولا يبتغي أى مكسب مسه بروح منه وأمده بقوة من عنده وأعانه على عبادته وخدمته. وعقليا بالطبع يكون هذا العبد المخلص واحدا من أهل زمانه له إدراك معاصريه المحدود، ولكن تقواه وعباداته المخلصة كان يمكن إستخدامها بالرب حتى لو كانت عقلية صبيانية. ولهذا، فإننا لو طالعنا أن الله أراد للإسرائيليين أن يذبحوا الكنعانيين، فإنى أعتقد أن لنا مطلق الحرية أن نفكر فى أن هذه هى صورة الله التى تخيلها هؤلاء الرجال البسطاء. وعلى هذا النحو، يتقبل المدرس فى مدرسته ما تقوله الطفلة الصغيرة من أن أباها هو أهم رجل فى العالم حتى لو كانت هى نفسها تعرف أنه ليس فى الحقيقة الا عاملا غير ماهر.

وليس بالضرورة الشك فى الآراء التى جاءت فى العهد القديم عن الله إلحادا ولا إنكار «صدق» العهد القديم أو عدم الاعتقاد فى «المعجزات» إلحادا، لأن حقيقة كون الروح القدس تستطيع أن تثير قلوب الناس هى أكبر المعجزات، والحياة لها معجزة، ولغز، ولكنى أعتقد بوجوب أن نكون مقتنعين بأن رب هذا العالم إنما هو روح لاتوحى إليه البشرية وأطماعها بالإنتصار فى المعارك وقتل الأعداء.

والحقيقة أن كثيرا من المتاعب التى تصادفها الأديان تعزى الى محاولة حسنى النية من الناس، الزعم بأن الأقوال التى قالها شخص منذ أربعة آلاف من السنين هى أقوال مقدسة تساير كل زمان ومكان رغم ما يتضح من أنها إنما تحمل طابع العصر الذى عاش فيه ذلك الشخص، وأنها تتنافى مع المبادىء الأخلاقية التى نحترمها فى أيامنا هذه.

* * *

ويعتقد الباحثون العصريون أن سيدنا ابراهيم عليه السلام عاش فى المدة من حوالى عام ١٨٥٠ ال عام ١٨٠٠ قبل الميلاد. وكانت مصر وفلسطين وسوريا وبابل فى ذلك الوقت حضارات قوية عند ما جاء ابراهيم من أرض العراق. ومنذ آلاف السنين قبل المسيح حتى وقتنا هذا تواجدت قبائل تعيش فى الخيام كانت دائبة الحركة على امتداد حدود الأرض المنزرعة فى دول الشرق الأدنى. وأحيانا ما كان يطلق على هذه القبائل اسم شبه رعاة أو بدو الحمير، ولم يكن فى استطاعتهم التوغل بعيدا فى الصحراء لأنهم كانوا لايستخدمون الجمال، بل كانوا يحملون متاعهم وخيامهم على ظهور الحمير، كما كانوا يعيشون على أغنامهم وماعزهم أو علي تقديم العون للمزارعين أثناء مواسم الحصاد. وكان ابراهيم على رأس جماعة صغيرة من هؤلاء الناس.

* * *

وكثيرا ما كنت أمتطي صهوة جوادى فى العشرينات، وأتجول بين قبائل البدو وحول النار التى يوقدها العرب فى مضاربهم، وكنت أستمع الى القصص عن نسب القبيلة. وكانت هذه القصص تتخذ صورة سرد لمنجزات مؤسس القبيلةوأبنائه وربما أحفاده. ثم تتوقف القصص بعد أجيال ثلاثة، أى عندما يصبح عدد الأبطال من الكثرة بحيث يتعذر على الرواة تذكر هؤلاء الأبطال جميعا.

وقد أصبحت قصص الأبطال الأصليين مدبجة بدرجة عالية، وتتضمن خطبا حرفية أو قصائد شعرية جاءت على ألسنة أسلاف القبيلة، أوالأغانى التى كانوا يتغنون بها احتفالا بانتصاراتهم. أما إذا ما طلب من الراوية أن يذكر مزيدا من هذه أو تلك أتى بوقائع ترجع إلى أيام أبيه التى تفصلها عن أيام أسلاف القبيلة مئات السنين. ويبدو لى أن قصص الآباء فى سفر التكوين تشبه هذا الشكل تماما. ومن المحتمل أن تكون قصة سيدنا ابراهيم قد كتبت بعد وفاته بحوالى تسعمائة سنة، بل

لعل القصة كما تعرفها الآن قد اكتملت بعد وفاته بنحو ألف وخمسمائة عام. ونتيجة لاعادة التدوين تظهر فى السرد إضافات هنا وهناك تعبر عن الآراء السائدة لقرون تلت هذا الحدث بكثير.

ففى سفر التكوين الاصحاح ١٨ يسأل إبراهيم «أديان كل الأرض لايصنع عدلاً» ؟ وذلك برهان واضح على أن ابراهيم كان موحداً بالله. ومع هذا فإن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن ابراهيم لم يكن مؤمنا بإله واحد، وهكذا فإننا مجبرون عل الافتراض بأن هذه العبارة قد أدخلها المدون بعد ألف ومائتين من السنين، أى عندما كان الاعتقاد فى التوحيد منتشرا. ويميل الناس البدائيون (وليس الموغولون فى البدائية) الى التفكير فى إلهم وكأنه رجل من البشر، وبالتالى فإن إله ابراهيم كان يزوره فى خيمته ويتناول العشاء وإياه ثم يدعوه إلى الخروج معه ليتأمل فى النجوم، وبعدئذ يستودع الرب مضيفه ويستأنف رحلته.

والكثرة الغالبة منا تعتقد أن «البيت» يعنى مكانا ما، إلا أنه بالنسبة للرعاة الرحل يعنى جماعة من الناس. وكان رب الرعاة هو حامى الأسرة. ونحن معتادون على عبارة «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» حتى أننا لانقف عندها لكى نحللها ولكن إذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن التعبير يوحى بحامى أسرة واحدة بعينها. ويبدو أنه ليس من المحتمل أن ابراهيم قد أعطى فكرا كبيرا أبدا لكل العالم حيث لم يكن فى إمكانه أن يكون لديه أى تصور وإدراك له. وبينما كان إله الرعاة رجلا بالضرورة آمن أهل الحضر بالآلهة المحليين الذين يحمون مدينتهم وأرضهم. وقد ورد أن ابراهيم ضرب خيمته فى ما مر (الخليل) حيث يوجد مقام للآله المحلى. وكان الناس يتطلعون الى الآلهة المحلية وكأنهم أصحاب الأرض الشرعيين فإذا ما أراد إبراهيم أن يعسكر فى منطقة الخليل كان حتما عليه أن يحصل على موافقة الإله المحلى. وتستعمل كلمة «الشاداى»[٣]، أى رب الجبل، فى بعض المواقع لتعنى الإله

---

(٣) سفر التكوين الاصحاح السابع عشر.

الذى خاطب سيدنا ابراهيم، وقد يكون هذا الاسم ملائما لإله منطقة الخليل لأنه أكثر المواقع ارتفاعا فى فلسطين. والطقوس التى جاء وصفها فى سفر التكوين الاصحاح الخامس عشر من الفقرة ٩ إلى ١٨ هى مراسم وثنيه مألوفة، حيث كانت الحيوانات المضحى بها تشطر إلى نصفين متساويين يسير بينهما الذين يأخذون القسم[٤]. وقد يفسرهذا الطقس الوثنى وكأنه يوحى بأن ابراهيم قد عقد اتفاقا مع الاله المحلى لمنطقة الخليل.

ويرى كثير من المؤرخين العصريين والمعلقين على كتاب العهد القديم أن أغلى أمنية كان يتمناها كل الرعاة هى أن يحصل على الأرض التى يستطيع أن يستقر عليها. وهذا خطأ بالكامل، حيث أن الحياة الرعوية هى طريقة فى الحياة متأصلة بعمق فى نفوس مثل هؤلاء الناس، بل إن حكومات كثيرة بذلت فى وقتنا هذا جهودا عظيمة بغية إستقرار الرعاة الرحل إلا أنها لقيت معارضة شديدة، ولايوجد سبب للاعتقاد بأنه كانت لدى ابراهيم وأسرته أية رغبة فى الاستقرار. ويقول جون برايت فى كتابه الدقيق «تاريخ اسرائيل»، أن ذرية إبراهيم أخذت تتجول فى ربوع الأرض» يشد من أزرها وعد بأن هذه الأرض سوف تؤول يوما إلى نسله. «بالاضافة إلى ذلك فإنه رغم انقضاء قرابة ألف عام على غزو كنعان كانت ذرية إبراهيم لاتزال تفضل العيش فى الخيام. ولقد أراد ابراهيم أن يرعى أغنامه فى منطقة بير السبع، ولكن البرك التى تخلفها الأمطار على سطح الأرض كانت تجف فى الصيف، وكان لزاما أن ترتوى الأغنام من مياه الآبار. وأغلب الظن أن براهيم لم يرد الاستقرار أو العيش كما يعيش الفلاحون، بل إنه أراد إمتلاك بعض الآبار[٥]. وبعد ذلك اشترى مغارة لتدفن فيها أسرته بعد موتها، ولكنه ظل هو ونسله يعيشون فى الخيام.

---

(٤) قارن ذلك بما جاء فى كتاب رونالد كليمنتس «داود وابراهيم» . «دكتور آر. أى. كليمنتس قس معمدان مرسوم» .

(٥) سفر التكوين الاصحاح الحادى والعشرون ٣٠.

ويتفق العلماء على أن وعود ابراهيم لم تكتب لفترة امتدت قرابة تسعمائة عام، وعندما كتبت كانت مملكة داود تتطلع، فى ذلك الوقت، الى حكم فلسطين كلها، ومن ثم يثور احتمال بأن المدونين الذين جمعوا وصنفوا سفر التكوين كانوا هم الذين نسبوا أطماعهم الى إبراهيم البدوى راكب الحمار. فإذا كنا مستعدين لقبول اعتبار أن ابراهيم لم يكن أول الموحدين بالله، وأنه كان يسعى إلى الآلهة لحماية أسرته، فإنه ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا كيف كان الاعتقاد فيما بعد بأن الإله الذى خاطب ابراهيم كان هو الله رب العالمين.

إننا لم نعرف من هم آلهة ابراهيم، إلا أنه بعد وفاته ببضع مئات السنين ظهر يهوه باعتباره رب اسرائيل. ولعل رجال الدين الذين نشروا العهد القديم استخدموا إسم «يهوه» بدلا من الأسماء الأخرى التى كانت تطلق على آلهة ابراهيم فى الرواية الأصلية، كما فقد المترجمون مغزى أهمية الأسماء المختلفة التى كانت مستخدمة من قبل بترجمتها جميعا باسم يهوه. وبربط هذه العبارة ذهنيا مع الله خالق السموات والأرض، افترض اليهود بأنه هو الله الذى تناول العشاء مع ابراهيم فى خيمته وأنه هو الذى تناقش مع الشيخ الجليل حول مصير سادوم[٦] (بلدة لوط المذكورة فى التوراة).

وبعد الآباء انقضت حقبة من الزمن تقدر بنحو أربعمائة عام، فى صمت وسكون. وفى غضون هذه الحقبة، وحوالى عام ١٧٢٠ قبل الميلاد غزا الهكسوس وهم أقوام آسيوية كلا من سوريا وفلسطين ومصر. وربما كان الهكسوس أتراكا لأن متوسط طول أجسامهم خمسة أقدام فقط[٧]، ويضاف إلى ذلك أنهم أدخلوا الخيل إلى هذه الربوع، وقد برع أتراك آسيا الصغرى فى تربية الخيول[٨]. وقد يكون

---

(٦) سفر التكوين الاصحاح الثامن عشر الفقرات من ١٦ إلى ٣٣.

(٧) سير فلاندرز بترى: «فلسطين واسرائيل».

(٨) يعتقد بفانيفر أنهم خليط من الساميين والحوريين والحثيين، أنظر كتابه: «مصر وخروج اليهود».

فرعون مصر الذى قرب إليه سيدنا يوسف هو واحد من حكام الهكسوس. ولاشك أن الهكسوس كانوا يثقون فى الرعاة الفلسطينيين، بوصفهم أجانب مثلهم، أكثر من ثقتهم فى المواطنين المصريين الذين تعرضوا لغزوهم.

وتمكننا الأحوال الخاصة لدلتا النيل من تصور أساليب الاقامة المؤقتة فى مصر، حيث أن ثروة مصر لم تقم على الأمطار، بل كان مصدر ازدهارها هو نهرالنيل فقط، وكانت الأرض التى يغمرها فيضان النيل خصبة بدرجة غير عادية، أما الأرض التى تعلو بضع بوصات ولايغمرها النيل فكانت صحراء جرداء.

وكان يعيش فى سيناء وبير السبع وفى شمال الجزيرة العربية أناس تتوقف حياتهم على تربية الأغنام والجمال، إلا أن الطقس كان عرضة لتغييرات كثيرة بالنسبة لسقوط الأمطار. وعندما كان المطر لا يسقط كانت قطعان الماشية تنفق ويفقد الراعى الذى تموت أغنامه كل رأس ماله. ولهذا لم تكن تجديه السنوات الممطرة القادمة نفعا حيث لاتوجد لديه أغنام لتربيتها. ومن ثم كان لزاما عليه أن يحصل على المال ليشترى الأغنام ويبدأ فى ممارسة نشاطه مرة أخرى. ولآلاف السنين أمدت مصر الرعاة المفلسين بالحل، وذهب إبراهيم فى السنوات العجاف إليها[٩]. وتقع الصحراء على مقربة من الأرض المزروعة بحيث يستطيع الراعى أن يضرب خيمته المتواضعة فى الصحراء القريبة ليتطفل على المدينة ويحصل على نقود تمثل أجر ما قد يؤدى من عمل، وبهذه الأجور يتمكن من شراء الأغنام والحمير حتى تصبح أسرته قادرة على الحياة مرة أخرى. ومن ثم يبدأون مرة أخرى فى الاتجاه الى الشرق حيث يستأنفون أسلوب حياتهم التقليدى.

وليس من شك، تحت هذه الظروف، فى أن يضرب كثير من فقراء الرعاة السوريين، خيامهم على حافة الدلتا الشرقية فى الفترة بين عام ١٧٢٠ وعام

---

(٩) سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر فقرة ١٠.

۱۲۸۰ قبل الميلاد. وفى حوالى عام ١٥٦٨ قبل الميلاد نجحت أخيرا حركة وطنية مصرية فى طرد الهكسوس وأقامت الأسرة الثامنة عشرة. وكثيرا ما يحدث أنه كلما استرجع شعب مغلوب على أمره حريته فإنه ينتقل مباشرة إلى فترة من التعدى العسكرى ويبدأ فى قهر شعوب أخرى. وعلى هذا، دخلت الأسرة الثامنة عشرة فى فترة زمنية فتحت فيها فلسطين وسوريا، إلا أن مصر نتيجة لانهيار الأسرة الثامنة عشر فى حوالى عام ١٣١٠ قبل الميلاد تعرضت لفترة من الضعف، ولكن رمسيس الأول (١٣١٠ ـ ١٣٠٩ قبل الميلاد) أعاد النظام وأسس الأسرة التاسعة عشرة، وخاض رمسيس الثانى (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ قبل الميلاد)، معركة ضارية ضد الحيثيين عند نهر العاصى[١٠] وثبت الحدود شمال دمشق، وكانت بقية سنين حكمه أيام سلام ورخاء.

وكانت العواصم المصرية القديمة فى طيبة أو ممفيس، إلا أن الهكسوس أقاموا عاصمة ملكهم فى أفاريس التى عرفت فيما بعد بإسم تانيس، وعادت الأسرة الثامنة عشرة الى ممفيس ولكن رمسيس الثانى نقلها مرة أخرى إلى أفاريس حيث بنى فى هذه المنطقة مدنا كبيرة محصنة مستخدما عمال السخرة.

وتسجل احدى المخطوطات المصرية القديمة استخدام رمسيس الثانى لأسرى الحرب الذين أسروا إبان حملاته العسكرية على سوريا. وإذا كانوا من سوريا الشرقية فلابد وأن يكونوا من نفس نوع الرعاة الفقراء المقيمين على حافة الدلتا، ومن المحتمل جدا أن شبابهم كان مجندا أيضا. وكان المصريون يستخدمون أيضا السخرة، ولكن الفرعون كان يسره بلاشك استخدام الأجانب بدلا من إستخدام رعاياه. وكان المصريون دائما معادين للرعاة «لأن كل راعى غنم هو رجس للمصريين»[١١].

---

(١٠) خريطة (١).

(١١) سفر التكوين الاصحاح ٤٦ فقرة ٣٦.

ولم يكن أسرى الحرب يتطلعون إلى معاملة أفضل، إلا أن التجميع المعتاد للرعاة الفقراء لابد وأنه سبب سخطاً كبيرا، لأنهم جاءوا لينالوا أجورهم، ومن الطبيعى أن تحبط آمالهم لأنهم عملوا دون أن ينالون أجرا، إلا أن هذا «الاسترقاق» فى الواقع لايمكن أن يسمى «عبودية». وقد إقترض بنو اسرائيل من المصريين، قبل مغادرتهم مصر، الحلى من الفضة والذهب بغرض سرقتها منهم: «وأعطى يهوه نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين»(١٢).

وهنا لاينظر إلى يهوه على أنه رب العالمين، بل على أنه رب إسرائيل، الذى يحتال ويسلب المصريين. ومع هذا، فإن إقراض المصريين حليهم لبنى إسرائيل لايوحى بالعبودية كما نتصوره ولكنه دليل على جوار بدون صداقة. نرد على ذلك أنه عندما اشتدت الظروف وصعبت أحوال المعيشة، فيما بعد، حزن بنوا اسرائيل على فقد حياة الترف والرغد فى مصر بما يشير إلى إرتفاع مستوى معيشتهم فيها وليس عبوديتهم.

ومن المؤكد أن موسى ولد من بنى إسرائيل وتبنته إبنة فرعون مصر ونال تعليما راقيا وربما تعلم مع كهنة هليوبوليس. ويقول مانثو الكاهن والمؤرخ المصرى الذى كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد «أن موسى أصبح كاهنا بالفعل»(١٣). وكيفما كان فقد تعاطف مع الرعاة الفقراء المستخدمين فى أعمال السخرة، وقتل رئيس عمال مصرى ثم فر الى سيناء. وهناك استقبله بترحاب، يثرون الذى يوصف بأنه كاهن مدين وأكرم وفادته وزوجه إحدى بناته(١٤).

وعمل موسى راعيا عند يثرون، وفى ذات يوم بينما كان يرعى الغنم تلقى أول نداء قدسى من الله رب العالمين، ويطلق على هذا الحادث إسم «عليقة

(١٢) أطلق على الإسرائيليين الأقدمين إسم «بنى اسرائيل» لتمييزهم عن الإسرائيليين المعاصرين (المترجم).

(١٣) انظر بفايفر المشار إليه سابقا.

(١٤) مدين شمال الحجاز خريطة (١).

سيناء والخروج

البحر الأبيض المتوسط

السهل الساحلي الكثيف السكان

شيلوة

أريحا

أورشليم

عسقلان

لخيش

غزة

الخليل

جرار

بير السبع

عوين

نبو

حشبون

مؤاب

عروية وفاشية على الأموريين

الأموريون حول حشبون

هجوم فاشل

الطريق الى فلسطين

٤٠ سنة هنا

الكلبيين

قادش

باردينع (عين قاديش)

أدوم

حوفن

صحراء

بنو القين

عصيون جابر

مدين

(حشمد)

رفيديم

جبل سيناء

الطريق التى سلكها بنو إسرائيل

دلتا

النيل

قانتير

جوشن

هليوبوليس

ممفيس

سلسلة البحيرات والمستنقعات

نهر النيل

سنة ١٢٢٥ ق.م كان البحر الأحمر يضم البحيرات المرة الحديثة

البحر الأحمر

٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠

أميال

خريطة (٢)

موسى». وإذا كان موسى قد تلقى تعليمه كمشرك فهل يمكن أن يكون قد تلقى أول معرفته بالرب من حميه كاهن مدين؟ ولكن لايبدو هناك سبب للشك فى أن هذه التجربة القدسية كانت تجربة جد أصيلة، وأمر موسى أن يذهب ويقود شعبه خارج مصر. ولكن موسى يسأل عن إسم الرب الذى يأمره، وكانت الاجابة: «إننى أناالذى أرسلتك». ويبين سفر الخروج الاصحاح السادس أن تلك هى أول مرة يوحى فيهاباسم «يهوه» وهو اللفظ العبرانى لاسم الله (والمعتقد أن يهوه يعنى «هو الكائن»)، ومن الواضح أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا من قبل بهذا الاسم. ويستأذن موسى من يثرون ويصطحب زوجته وولديه ويتجه شطر مصر. «وعندما وقف موس، وهو فى رحلته. ليقضى ليلته جاء يهوه لمقابلته وحاول أن يقتله[15]. وهكذا فعندما يشعر القارىء بأن موسى لديه حالة تجلى روحية وأن القصة مفهومة، بل وحتى ملهمة بوحى إلهى، فإن مقطعا غامضا كهذا يصيبه بالربكة.

* * *

وتوخى إعادتنا بناء حياة الرعاة الفقراء على الحدود الشرقية لمصر بوضوح، أن هؤلاء الناس كانوا يغدون ويروحون باستمرار منذ وصل يعقوب وأهله لأول مرة قبل ذلك بأربعمائة سنة. والسرد الموجز فى العهد القديم يبين أن يعقوب هاجر الى مصر مع سبعين شخص من عائلته[16]، وزادت ذريتهم فى السنوات الأربعمائة التالية دون أن يختلطوا بسلالة أخرى. وفى الحقيقة لم يكن هناك مفر من أن يتكونوا من جماعات مختلطة من بدو الحمير لسوريا وفلسطين. إلا أنه لايمكن أن نتكهن الآن ما إذا كان أى من هذه الجماعات أيا كان عددهم، قد انحدر فعلا من ذرية سيدنا ابراهيم.

---

(١٥) سفر الخروج الاصحاح ٢٤/٤ «وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله».

(١٦) سفرالتكوين فقرة ٢٧.

ويبدو أن بعض الرعاة تحت قيادة موسى هربوا حوالى سنة ١٢٢٢ قبل الميلاد. وربما كانت الفوضى التى ضربت أطنابها بعدوفاة رمسيس الثانى سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد[١٧]، هى التى أتاحت تلك الفرصة. ولابد أن الرعاة كانوا على علم تام بمصر وجيشها. وفى ذلك الوقت كانت العجلات الحربية التى تعلم المصريون استخدامها من الهكسوس تسيطر على ميدان المعركة، تماما كما تسيطر عليه الدبابات فى وقتنا هذا. وكان موسى قد عاش عددا من السنين فى سيناء وبالتالى كان ملما بطبيعة أرضها، كما أنه ولابد أنه ناقش خطط الهروب مع كبار الرعاة.

وبطبيعة الحال، فإن أمل الرجال الذين كانوا يسيرون على أقدامهم هو أمل ضعيف فى مواجهة عربات القتال ما لم يكونوا قادرين على العمل فى الأرض الفجة أو الجبال (قارن هذا الموقف فى الحروب الحديثة فى المواجهة المشاة والدبابات) وأرض الدلتا التى كونها طمى النيل منبسطة ويرتفع مستوى الأرض قليلا فوق مستوى سطح البحر كما يوجد بها كثير من البحيرات والسبخات، (وقد غيرت قناة السويس من صورة الطرف الشمالى) وربما كان هذا الطرف يضم عام ١٢٢٢ قبل الميلاد سلسلة من البحيرات والسبخات تربط البحيرات المرة الحالية ببحيرة المنزلة. ولابد أن تكون الأرض السبخة قد بدت لبنى اسرائيل وكأنها ملاذ ممكن من العجلات الحربية. ويخبرنا العلماء أن البحر الأحمر (يم سوف) الوارد ذكره فى سفر الخروج ليس هو البحر الأحمر فعلا، بل إنه يعنى بحر الغاب، ممايوحى بوجود بحيرة ينبت بها الغاب (البوص). وفيما وراء المستنقعات وعلى بعد أقل من ثلاثين ميلا تقوم جبال سيناء وهى غير ملائمة للعجلات بشكل سوى. وقد كان هدف الرعاة فى الحقيقة، هو الوصول إلى بئر السبع إلا أنها كانت تبعد

---

(١٧) سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢.

مائة وخمسين ميلاعبر سهل رملى، وإذا ما طاردتهم عجلات القتال كان ذلك يعنى هلاكهم فى هذه السهول، ولذا هرب الرعاة جنوبا على امتداد خط البحيرات مارين شرق مدينة السويس الحالية، ومن ثم عبروا الى الجبال، ومن الأرجح أنهم كانوا كثيرا ما يتجهون الى تلك المناطق فى فصل الربيع لكى يتمكنوا من رعى أغنامهم، ولذافلابد وأنهم كانوا يعرفون طبيعة الأرض معرفة تامة، أما رتل العجلات الحربية المطاردة فقد تخبط فى الأرض السبخة حيث غاصت العجلات حتى محاورها.

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أنه عندما هرب بنو اسرائيل كان يرافقهم «جمع مختلط» مكون من طوائف مختلفة من الرعاة السوريين والفلسطينيين. وكانت معهم أيضا قطعان كبيرة من الماشية[١٨]، ولابد أن الماشية يقصد بها هنا الأغنام، لأن الأبقار لاتستطيع أن تعيش فى سيناء. ونجد أن هذه الفقرة فى العهد القديم هى على الوجه التالى: «وصعد معهم لفيف كثيرا أيضا مع غنم وبقر، مواش وافرة جدا».

وعندما وصل الهاربون الى جبال سيناء الجنوبية أصبحوا فى مأمن من عجلات القتال، الا أن المنطقة كانت جرداء تماما ودون أى مدن.وكانوا قد جلبوا معهم أيضا بعضا من الدقيق حملوه عل ظهور حميرهم، إلا أنهم عندما وصلوا إلى سيناء كانوا قد أكلوامعظمه» ويستطيع الرعاة العيش فى فصل الربيع على اللبن الذى يجلبونه من قطعانهم لمدة قد تصل إلى أسبوع أو أسبوعين، إلا أنهم فى الأوقات الأخرى يكونون فى حاجة إلى الخبز. ولايمكن الحصول على الشعير أو القمح الا من المناطق المنزرعة، وكنتيجة لذلك لابد للرعاة أن يتحركوا الى مثل هذه المناطق على فترات. حيث يبيعون هناك بعضا من خرافهم أو بعض أصوافها

(١٨) سفر الخروج الاصحاح ٣٨/١٢.

ليشتروا شعيرا أو قمحا بما يحصلون عليه من ثمنها. ولكن لعدم تواجد أى قرى فى جنوب سيناء، فقد هاجموا موسى طالبين منه الخبز، فالأغنام بالنسبة للراعى رأس ماله ولا يستطيع بالتالى الا فيما ندر ذبحها من أجل أكلها.

وبينما كان الرعاة فى سيناء الجنوبية اعتكف موسى إلى إحدى قمم الجبال ليتأمل ويتفكر، وهناك تلقي رسالة سماوية قدسية أخرى. وكنتيجة لذلك سجل الوصايا العشر على قطع من الحجارة، حيث كانت الحجارة هى مادة الكتابة الوحيدة التى فى متناول يده. ولو كان موسى قد تلقى علومه على أيدى كهنة هيموبوليس لاستطاع أن يكتب. وقد صنع تابوتا أودعت فيه قطع الحجارة كان يحمله الناس عندما يتحركون من مكان الى آخر. وللتابوت أهمية خاصة، لأن علماء الاثار القديمة يذكرون أن الكهنة المصريين كانوا فى المناسبات الدينية يحملون رموز آلهتهم فى توابيت، وربما نقل موسى عنهم هذه العادة المصرية.

ونختتم هذا الفصل تاركين المهاجرين فى جبال سيناء فى مأمن من العجلات الحربية فعلا، وإن كانوا لايحملون معهم سوى القليل من الطعام والشراب.

تواريخ هامة

ابراهيم حوالى ١٨٥٠ ــ ١٨٠٠ قبل الميلاد

الخروج حوالى ١٢٢٢ ــ قبل الميلاد

خاتمة

١ ـ هناك شك فيما اذاكان سيدنا ابراهيم وعشيرته من بدو الحمير، كانوا فى الحقيقة يريدون أرضا، فلقد ظل قومه يعيشون فى الخيام بعد وفاته بتسعمائة عام، ويحتمل أن يكون النص الموجود حاليا قد كتب بعد وفاة ابراهيم بنحو تسعمائة عام.

٢ ـ لايزال الرعاة الرحل الفقراء يضربون خيامهم على امتداد الحانب الشرقى للدلتا، الا أن قناة السويس غيرت من هيئة الأرض الطبيوغرافية.

٣ ـ ليست هنالك أية بيانات عن الفترة التى امتدت قرابة أربعمائة عام أى من فترة الآباء الى عهد سيدناموسى، ولانستطيع أن نعرف ما اذاكان بنو اسرائيل فى عهد موسى قد انحدروا فعلا من سلالة ابراهيم. ولقد كان إبراهيم من غير شك هو سلف القبيلة من الوجهة النظرية، إلا أنه لم يكن هناك مفر من عقد كثير من الزيجات المختلطة وكمثال على ذلك زواج يوسف عليه السلام من زوجة مصرية.

٤ ـ استخدم رمسيس الثانى عمال السخرة فى الأعمال العامة، مثله فى ذلك مثل أى حاكم من حكام مصر من قديم الأزل.

٥ ـ كانت لموسى عليه السلام تجربة قدسية أصيلة فى «العليقة المشتعلة». وقبل هذه التجربة لم يكن بنو اسرائيل قد سمعوا قط عن يهوه الذى سيصبح إله إسرائيل، ومرة أخرى تلقى موسى الوحى على جبل سيناء.

* * *

الفصل الثانى

اذا توقفت قليلاً فى هذا المقام فاننى أستطيع أن أؤكد بالدليل بأن دين اسرائيل يمكن تصويره وتجسيده بكلمة واحدة، تلك هى اسم: يهوه. إن هذا الاسم يسيطر سيطرة تامة على جميع ينابيع المادة التى نستحوذ عليها.. وهو يتردد أكثر من أى اسم أو فعل آخر فى العهد القديم. ولقد أحصى هذا الاسم عدا فوجد أنه جاء أكثر من ستة آلاف وثمانمائة مرة فى مقابل استخدام الكلمة العامة لإسم «الله» (الوهيم) التى ذكرت ألفين وخمسمائة مرة.

تى. سى. فريزن. (دين اسرائيل القديمة)

إن التأكيد على أواصر القربى، والإفتقار إلى الارتباط بالمعابد الثابتة افتراضان مقبولان بالنسبة لدين تعتنقه جماعة غير مستقرة من أهل البادية.

آر. آى. كليمنتس، (إبراهيم وداود)

الفصل الثانى

الرب يهوه

عندما وصل بنو اسرائيل إلى سيناء خرج يثرون، شيخ مدين الكبير لتحيتهم وقد اصطحب معه زوجة موسى وولديه. وقص موسى عليه كل مافعله يهوه لتخليص بنى اسرائيل من مصر، وأجاب يثرون «الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة» ثم أخذ يثرون ذبائح للإله العظيم. وجاء هارون وجميع شيخ بنى اسرائيل ليأكلوا طعاما مع يثرون أمام الله[1]. وتوحى هذه العبارة بأن يثيرون كاهن مدين كان أرفع مقاما من موسى فى عبادة «يهوه»، إذ أنه هو الذى أمّ الطقوس الدينية بينما كون موسى وهارون وكبار بنى اسرائيل جماعة المصلين. وينبغى ألا يغيب عن البال أن موسى كان يعيش مع يثرون عندما رأى العليقة المشتعلة. ولقد نُبئنا أن بنى اسرائيل لم يكونوا قد سمعوا قط باسم «يهوه» قبل عليقة موسى[2]، لذا فمن المحتمل أن يكون موسى قد سمع عن «يهوه» من يثرون. وقد يثور جدل بأن يثرون هو الذى عرف يهوه عن طريق موسى، وعندئذ يصبح موسى المعلم ويثرون تلميذه، ولكن عندما أقيمت صلاة الشكر كان يثيرون هو الذى تولى إدارتها بينما انضم موسى الى جماعة المصلين.

ويعلق وليام نيل على هذا الحادث بأن كثيرا من الباحثين يذكرون أن الأثر الذى تركته هذه الرواية، هو أن يثرون لم يكن إماما لأنه من المهتدين الطائعين الذين دخلوا فى دين يهوه القويم، بل كان إماما باعتباره شخصية دينية بارزة يكن لها موسى إحتراما ملحوظا. وإذا كان «يهوه» هو إله سيناء الذى كان يعبده أهل

---

(١) سفر الخروج الاصحاح ١٨ الفقرات ٨ ـ ١٢.

(٢) سفر الخروج الإصحاح ٦. ٢.

مدين او الكنعانيين، وكان يثرون هو كبير كهنة «يهوه»، فلا يجوز القول بأن حما موسى نال أكثر مما كان يستحق لأنه لقى معاملة بالغة الاحترام من بنى اسرائيل جميعا»[٣].

ولكن وليم نيل فى الفقرة التالية يبدو عليه الجزع من جراء مجازفته فيقول: «إن العهد القديم يختص موسى بأنه العقلية المبدعة التى استخدمها الرب لتوصيل مفهوم جديد عن ذاته وصفاته لشعبه المختار وإن كان ذلك تحت إسم قديم. وفى العليقة المشتعلة لم يتم إختيار موسى بواسطة إله قبلى خيالى لعشيرة مدين الغير مشهورة ولكن الذى اختاره رب العالمين». ومن الأسف أن يثرون لم يكن منتسبا الى سلالةفرعون، ولعلها حكمة رب العالمين أن يختار الأشخاص العاديين حيث اختار فى فترة تاريخية تالية نجارا قرويا مؤثرا إياه على القيصر أوغسطوس.

ويتساءل ناقد عصرى للعهد القديم، عما إذا كان اعتقاد بنى إسرائيل فى إله واحد قد تطور من التعدد الوثنى للآلهة، ولكنه يجيب على سؤاله بالنفى[٤]. لذا جرت المجادلة بين ما إذا كان الاعتقاد فى إله واحد قد أوحى به بطريق مباشر من الله الى موسى وحده ومن موسى الى بنى اسرائيل دون غيرهم. وقد أخبرنا علماء الآثار القديمة أن الشعوب المجاورة كانت جميعها تعتقد فى تعدد الآلهة، وذلك أمر لايحتمل الجدل، إلا أن علم الآثار القديمة تتناول المدن والمخطوطات، ومن ثم فهى لاتستطيع أن تحدثنا عن ديانة أهل الخيام فى سيناء. ويخبرناوليام نيل نفسه، فيما بعد، بأن الأنبياء وناظمى سفر مزامير النبى داود كانواينظرون الى أيام الصحراء وكأنها أعلى علامة تميز طاعة بنى إسرائيل لله، أى عندماكان الإيمان الخالص فى «يهوه» يمضى جنباً إلى جنب مع قانون أخلاقى صارم». ويستطرد نيل فيقول: «إن

---

(٣) القس وليام نيل، «تعليق على التوراة».

(٤) دجى. أي. رايت «العهد القديم فى مواجهة بيئته».

حياة قبيلة بدوية بمطالبها البسيطة واقتنائها المشاع لضرورت الحياة، ووضعها الجسماني الصحي المفيد للعلاقات الجنسية ووجودها غير المعقد بصفة عامة، هي حياة لاتبدو فيها المواد التي تضمنتها وصايا موسى العشر وكأنها أمور غريبة بأية حال. والواقع أنه ليس من قبيل المجازفة أن نذهب إلى الظن بأن جانب من دعوة موسى لعبادة إله واحد يرجع الى التبادين الواضح في ذهنه بين الفجور والشرك اللاأخلاقي بالله الذى صادفه في مصرعن كثب، وبين التقوى السليمة والفضائل التي وجدهابين الكنعانيين الذين كانوا يعبدون الله رب العالمين»[5].

وتبدو هذه العبارة جد معقولة وإن كانت لاتلقى ترحيبا بصفة عامة من الكتاب الكهنوتيين، لأنها تعكس الاعتقاد بأن الله أوحىّ أول ما أوحى الى موسى الذى حول أتباعه، بالتالي، إلى «شعب الله».

والرد على ذلك، هو أنه وجد في معبد سرابيت الخادم عدد لا حصر له من الذبائح التي تحرق للعبادة، وقد تكونت منها طبقات كثيفة من الرماد، إلا أنها كانت خالية من العظام ومن ثم كان الرماد متخلفا من الذبائح التي كانت المتعبدون يستهلكونها، أي أنه لم يكن متخلفا من حرق كلي للذبائح الضحية. وقد اكتشفت في هذا المعبد ثلاثة هياكل للبخور. وهكذا ليست هناك أية جدوى من محاولة تحديد بداية التطهر بالماء أو هياكل البخور في الشريعة اليهودية، لأن القبائل العربية التي كانت تنسب إلى أصل واحد كانت تستخدمها قبل خروج اليهود ويقضى هذا النموذج في معابد شمال الجزيرة العربية على أى مبرر للجدل حول الوقت الذى نبذت فيه اسرائيل الصور من عبادتها»، ذلك لأنها لم تكن قد دخلت قط في ذلك النظام، إن اتخذته فيما بعد نقلا عن التقاليد الكنعانية.

---

(٥) القس وليام نيل «تعليق على الكتاب المقدس».

إن اكتشاف أماكن العبادة هذه، التي كانت خالية من اللوحات والصور، والتي تتشابه في تصميمها مع آخر معابد أورشليم، في المكان الذي التقى فيه يثرون مع موسى.وهو قادم من مصر، يزيد كثيرامن احتمال أن حما موسى كان هو الوسيط الذي اتخذه يهوه ليحول موسى الى عبادته وينبذ الأصنام. وربماكان يثرون كاهن مدين هو الذي قدم الذبائح التي أحرقت تعبدا، وبالتالي أكل منها هارون وكبار بني اسرائيل في ذلك المعبد بالذات. وربماكان أكثر مظاهر التشابه إثارة بين ديانة شمال الجزيرة العربية وديانة بني إسرائيل، أن الكعبة في مكة هي بناء صغير مكعب الشكل ليس به مكان لصنم أو محل لصورة، أي علي غرار قدس الأقداس في أورشليم. وهناك وجه آخر للشبه، ذلك هو أن بني اسرائيل وعرب الصحراء كانوا جميعا يجرون عملية الختان (الطهارة)؛ أماابراهيم الذي جاء من شمال سوريا فلم يكن يعرف شيئا عن الختان إلا عندما وصل الى جنوب الخليل.

ومن سوء الحظ أنه بينما عاش موسى حوالي عام ١٢٢٥ قبل الميلاد، لم تتوفر لنا أول المعلومات المفصلة عن الديانة العربية إلا في عهد محمد رسول الله ﷺ، أي بعد ذلك التاريخ بنحو ألفي سنة. ويرفض أحد المعلقين على العهد القديم المقدس الفكرة القائلة بأن ديانة سيناء جاءت من الجزيرة العربية على أساس أن العرب في عهد سيدنا محمد كانوا «مشركين» وليس هذا صحيحا بالكامل، أولاً: لأن معرفتنا بالديانة العربية جاءت بعد إنقضاء ألفي سنة على مولد موسى عليه السلام، أي بعد فترة من الزمن تساوي الفترة من عهد المسيح عيسى بن مريم الى وقتناهذا. ثانيا: لأن الديانة العربية لم تنحت الحجارة بحيث تحاكي الكائنات الحية، اللهم إلابعض التماثيل القليلة التي جلبت من سوريا الرومانية. وكانت آلهة مكة أرواحا قادرة على التوسط بين الإله والانسان ولم يكن محمدا ﷺ يطلق على أعدائه صفةعباد الأصنام، ولكنه كان يسميهم المشركين لأنهم كانوا يشركون الأرواح الصغرى مع الله الواحد.

وكيفما كان، فلم تكن الأرواح الصغرى تتزوج قط، كما أن الله الصمد لم يلد ولم يولد، بينما نرى أن أغلب النظم التى تقول بتعدد الآلهة، إن لم يكن جميعها، تصور آلهتها وقد اتخذت لها زوجات وأنجبت بنين وبنات. وهكذا كانت الديانة العربية فى غيبة هذه العلاقة الجنسية، أشبه ما تكون بديانة سيناء.

ويعتبر سفر أيوب دليل آخر على ذلك، لأنه ينطوى على مناقشة فى التوحيد لاتذكر إسرائيل على الاطلاق. وتقتضى الغارة على أبل ايوب ضمنا وجود اقليم صحراوى. وهناك ما يوحى بأن أيوب كان يعيش فى «تبوك» أو «تيماء» كما كان هناك بعض مبشرين أخرين دعوا الى التوحيد فى الجزيرة العربية وجاء ذكرهم على فى القرآن الكريم.

وهكذا يبدو محتملا ألا تكون ديانة سيناء وحيا جديدا نزل على حين فجأة ولكنها جاءت نتيجة عملية تطور ممتدة يرجع تاريخها فى شمال الجزيرة العربية الى عدة قرون ماضية. ويطابق هذا الافتراض سنة الله فى خلقه عبر التاريخ. أما النظرية العكسية فهى أن الرؤيا التى رآها موسى من آيات ربه الكبرى كانت رؤيا فريدة أصيلة ــ بل إنها طفرة مفاجئة للأمام على طريق تقدم البشرية.

وقد مر موسى بتجربة دينية حقيقية فى سيناء. والتاريخ مليء بمثل هذه الدعوات الروحانية التى كان ناتجها تكريس النفوس المعنية تكريساً مطلقاً. وعندما نزل موسى من جبل سيناء «جاء وجهه مشرقاً يتلألأ نورا بحيث لم يكن أحد ليجرؤ عل الاقتراب منه». وهذه النورانية خاصية معروفة تصاحب الانجذاب الروحى. ويوافق كثير من المعلقين على أن ديانة بنى اسرائيل الأولى أخذت منبعها من الصحراء. ويكتب رونالد كليمنتس أن «هناك بعض الدلائل على أن قادش كان مركز عبادة يهوه الذى كان موقرا فى أيام ما قبل اسرائيل باعتباره رب سيناء ــ حوريب»[٦].

(٦) آر. آى. كلمنتيس. ابراهيم وداود «مستشهدا بكتاب جى. جراى»: «الحياة فى الصحراء والعبرانيين وتقاليد حوريب سيناء».

وقد قوى من احتمال أن ديانة اسرائيل جاءت من الصحراء بعض اكتشافات سير فلندرز تيرى[7]. فقد وجد فى تل العجول (غزة القديمة) عددا من الغرف الصغيرة المنفردة، المنعزلة عن المبانى الأخرى وهى مطلية بالكامل بالمصيص والجير الأبيض دون زخرفة أو ألوان ومن غير ما صورة أو موضع لصورة. وتشير العلامات إلى أن الغرض من هذه الغرف يرجع إلى أنه كان يوجد أمام بابها منصة ترتفع عن مستوى الأرض بقدم واحد سطحها الأعلى الذى تبلغ مساحته ياردة مربعة مغطى بأصداف بحرية مطعمة، وتنحدر هذه المنصة نحو بالوعة لتصريف المياه. والظاهر أن هذا المكان كان معدا لغسيل الأقدام قبل الدخول الى المعبد ومن ثم يدخل الفرد بعد عبور المنصة الى أرض المعابد المستوية والمصنوعة من المصيص الأبيض». ويرجع سير فلندرز تاريخ هذه المعابد التى لم يكن بها مكان للأصنام، إلى الفترة ما بين عام ٢٠٠٠ وعام ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بين أربعمائة سنة وثمانمائة سنة قبل مجىء موسى. وكان الاكتشاف المثير هو سرابيت الخادم فى سيناء والتى تبعد بضعة أميال عن رفيديم القديمة حيث التقى يثرون بسيدنا موسى وهو بقايا معبد يعود الى نحو سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، أى ثلاثة قرون قبل موسى[8]. وكان يقوم خارج الباب خزان مكعب من الحجر، كما كان يوجد فى الفناء المربع خزان اسطوانى من الحجر كذلك، تحيط به أربعة أعمدة ترتفع عليها عريشة تظلل الخزان، وكان هناك خزان ثالث فى فناء ثان، محاط هو الآخر بأربعة أعمدة. وهذا أنموذج للحوض النحاسى فى فناء المعبد اليهودى[9]. ودورة المياه (ميضة الحنفيات) فى فناء الجامع الإسلامى.

---

(٧) سير فلندرز تيرى: «فلسطين واسرائيل».

(٨) خريطة (٢).

(٩) الملوك ٢٥ فقرة ١٣،

ولاتتبع أى من هذه الأدوات التى تستخدم للاغتسال والوضوء المعابد المصرية ولا المعابد أو الأضرحة فى شمالى غزة، وإنما هى تمثل أسلوبا عربيا ظل قائما قرابة أربعة آلاف سنة أو أكثر، دون أن يضم هذا النمط صورة أو صنما.

وعندما نفكر ونتأمل فى أمر الديانة التى اعتنقتها اسرائيل القديمة، ينغى لنا أن نتذكر أمرين اثنين، أولا : بينما كان موسى قديسا وروحا مميزة، كان رجال القبائل رعاة جهلة، ومهما رأى موسى من آيات ربه فإن الفرد العادى من بنى اسرائيل كان يفكر فى «يهوه» وكأنه رب القبيلة الذى يصاحبها بشخصه فى المعركة ضد القبائل الأخرى التى تنتصر لها آلهتها وبالطبع يحارب معها هى الأخرى. ثانياً : كان تطور الحالة العقلية والروحية العامة بين الرعاة مختلفا تماماعنه بالنسبة للأنبياء بعد خمسمائة عام كما كان مختلفا أيضا عن الكهنة الذين أشرفوا في النهاية على تجميع واخراج نسخة العهد القديم. أو من غير المعقول أن يقال أن بنى اسرائيل فى سيناء كانوا يؤمنون بهذا أو ذاك، وأن نستشهد «بعاموس» أو إشعياء لإثبات هذا القول.

إن فكرة أن الديانة اليهودية أوحى بها بالكامل الى موسى هى أمر مخالف للتجربة البشرية لأن كل شىء فى الحياة ينمو ويتغير بصفة مستمرة، وموسى تلقى رسالة من الله وهذه الرسالة كانت قاطعة وكانت كاملة لأن الله لايتغير، إلا أن واقع الحال هو أن كل من يتلقى رسالة ما يستطيع، كما رأينا، أن يستوعب منها على قدر ما تسمح به معرفته.

والرأى هو أن موسى كان روحا مميزة ولكن الرعاة كانوا مجرد رجال على شاكلة أهل زمانهم ومكانهم، وقد مس جانب قليل من روح موسى فئة قليلة من هؤلاء الرجال.

وليس هناك دليل فى قصة العهد القديم على أن رعاة سيناء كانوا يظنون أنفسهم أعلى كعبا ممن عداهم من القبائل الأخرى. وتسجل القصة عهدا بين يهوه وبين هؤلاء الرعاة الذين اعتبروه (أى يهوه) من ذلك الوقت وصاعدا، رب قبيلتهم تماما كما كان «كموش» رب المؤابيين ـ نسل مؤاب أكبر أبناء لوط عليه السلام/ وقد حدث سوء الفهم ـ ان كان هناك سوء فهم ـ بعد ألف سنة عندماتغيرت عبارة «يهوه» الى الرب (إيلوهيم).

وليس مستغربا أن يقضى موسى أربعين سنة ليجعل من هذا الجمع الغير متجانس من الرعاة مجموعة متماسكة. ويخبرنا سفر الخروج أن شيعة موسى عندما غادروا مصر كانوا جمعا مختلطا، وإن كان بنو إسرائيل، وهم عشيرة موسى، على رأس هذا الجمع. ومن سوء الطالع أنه يوجد سبعة وثمانون إصحاحا من سفر الخروج الاصحاح ٢١ إلى سفر العدد الاصحاح ٢٠[١٠] تصف الطقوس الدينية والأثاث فى هيكل أورشليم قبل (السبى) البابلى، بالإضافة إلى جانب غير قليل من التشريعات التى تلائم الحياة الزراعية. وقد سجل الكهنة هذه التفاصيل، بعد تدمير الهيكل، إبقاء عليها إلى أن يحين الوقت مستقبلا لإحيائها من جديد. ويخفى هذا الجانب من المادة الدخيلة الأثر الطبيعى الساطع لقصة الرعاة فى سيناء.

وكان الرعاة، كما رأينا، يرعون على امتداد حافة الأرض المنزرعة، وينتقلون الى القرى فى فصل الربيع، حيث يبيعون خرافهم الصغيرة وأصوافهم اوالزبد والسمن ليشتروا من الثمن الذى يقبضونه الحبوب ليصنعوا منها الخبز. ولكن لم تكن هناك أية مجتمعات زراعية فى سيناء، ولذا فسرعان ما افتقدوا الخبز. وكانت بير السبع أقرب المناطق التى تغل الحبوب. وعلى هذا تحرك الرعاة إلى تلك المنطقة. ولعلهم قد استقوا فى وادى عراية وهم فى طريقهم[١١]. وقد ورد أنهم ضربوا خيامهم فى «قادش بارنيع» والمعتقد أنها عين قديس الحالية.

(١٠) باستثناء سفر العدد الاصحاحات ١٠ ـ ١٤ التى تعود الى القصة.

(١١) خريطة (٢).

وقد اكتشف فى مصر عمود عليه نقوش أثرية من عهد مرنبتاح إبن رمسيس الثانى، وتصف هذه النقوش حملة الى فلسطين. وسجل فرعون مصر أنه هزم الحيثيين والكنعانيين والحوريين، ثم يضيف أن إسرائيل قد «تشتت شملها، وإن لم يتفرق ذريتها» . وفيما يختص بالشعوب الأخرى، فقد جاء ذكر مدنهم، إلا أنه لم تكن هناك إشارة إلى أية مدن تنتسب لاسرائيل. وكانت هذه أول مر يذكرفيها إسم إسرائيل فى خارج الهد القديم وربماكان تاريخ ذلك حوالى عام ١٢٢٠ قبل الميلاد.

ونظر لأنه لم تذكر أية مدن اسرائيلية، فإنه يبدو أن اسرائيل كانت لاتزال تسكن الخيام فى سيناء. وعندما ضربوا خيامهم فى سهول بير السبع ليشتروا الحبوب باغتتهم واجتاحتهم العجلات الحربية المصرية، ولأن المهاجمين بالعجلات الحربية لايستطيعون أن يحملوا الخيام أو الأغنام، فإن الرعاة يعودون ليلا ليجمعوا ما بقى من ماشيتهم. وكانت المنطقة تضم قبائل بنى القينى ـ قبيلة يثرون ـ والكاليبيين الذين من المحتمل أنهم كانوا يعبدون يهوه قبل أن يعبده بنو إسرائيل. وقد وجد بنو القينى مع بنى إسرائيل فى فلسطين، أما الكاليبيون فقد ضموا قدرهم مع اسرائيل وفى النهاية أخذوا الخليل واندمجوا فى يهوذا.

ولعل مما يستحق الذكر أن بنى اسرائيل إبان وجودهم فى «قادش بارنيع» كانوا فى «أرض ابراهيم» وهى الأرض التى وعد بهاابراهيم بناء على ماء فى سفر التكوين، وبالرغم من ذلك لاتوجد أى اشارة إلى إبراهيم إطلاقا فى ذلك الجزء من القصة، الذى يصف وصول الطائفة الى جنوب الخليل. فهل كان بنو اسرائيل فى ذلك الوقت لايعلمون شيئا عن الوعد الذى وعد به ابراهيم؟ لقد أشار بعض الباحثين الى أن إسم إبراهيم لم يذكر منذ نهاية سفر التكوين الى السبى البابلى إلا

فيما نذر، ولذلك فعندما زالت دولة اسرائيل أصبحت للوعود التى وعد بها ابراهيم أهميتها.

* * *

ويعزو العهد القديم التخلى عن الهجوم فى الجنوب الى أوامر «يهوه» لأن السهل الساحلى الجنوبى كان مكتظا بالسكان، وكان يمثل المنطقة الأكثر حضارة وقدما فى فلسطين، إلا أن الجبال الممتدة من يهودا الى السامرة (إذا ما استخدمنا أسماءا حديثة) كانت فقيرة وقليلة السكان، لذا كان الهجوم من الشرق سيكون أسهل بكثير من الهجوم من الجنوب. وربما قضى رعاة بنى إسرائيل ما يربو على أربعين سنة يعيشون عيشة الرعاة الرحل فى منطقة «قادش بارنيع» ـ وادى عرابة ـ ولكن لايوجد فى سرد العهد القديم أية تفاصيل.

ومن هنا نشأ جيل جديد فى الصحراء، وكان شظف العيش وقيادة موسى، وإيمان هذا الجيل فى «يهوه» باعتباره قائدا حربيا من الأسباب التى شدت من عزيمتهم، وقرر موسى أن يتجه شمالا فيعيد الكرة فى محاولة أخرى. ولما كانت أدوم ومؤاب غير أصدقاء فقد إلتف قوم موسى من جهة الشرق، وفى منطقة «حرمة» تعرضوا للدغ الحيات ولاتزال هذه المنطقة معروفة حتى يوما هذا بكثرة ثعابينها السامة[١٢].

ولايمكن التعرف على كثير من الأماكن، الا أن «بئر» قد تكون «بئرا». ولما كانت البئر قائمة فى قاع واد ضيق فقد كانت عرضة لأن يترسب بها الطين عندما لاتكون مستخدمة وكان ينبغى أن تطهر من جديد على أيدى الوافدين الجدد[١٣].

---

(١٢) خريطة (٢)، انظر سفر العدد الاصحاح ٢١/ ٦ ـ ٩.

(١٣) سفر العدد الاصحاح ٢١/ ١٦ ـ ١٩.

خـريطة (٣)

وقد كانت سلسلة الجبال شرق وادى الأردن مقسمة فى ذلك الحين بين جموع من القبائل، فكان الأموريون فى «حوران» وعلى جبال جلعاد حتى جنوب نهر أرنون، وكان العمونيون الى الشرق حول عمان الحالية. وإلى الجنوب من أرنون كانت توجد تجمعات «مؤاب» القبلية الصغيرة ثم تجمعات «أدوم». وقد اجتاح بنو اسرائيل مجموعة الأموريين الجنوبية الذى كان إسم ملكهم (أو شيخ قبيلتهم) سيحون يعيش فى حَشْبون (حسبان الحالية). وبذا تمكن بنو اسرائيل من الوصول إلى قمة الجبال المطلة على وادى الأردن. وكانت المنطقة جنوب دمشق آهلة كذلك بالأموريين الذين جاءوا لمساعدة عشيرتهم، لذا اتجه بنو اسرائيل بسرعة الى الشمال وأغاروا على الأموريين قبل أن يتمكنوا من إعداد العدة للقائهم، فهزم الأموريون عند «إذرعى» وهى «درعا» الحالية، هزيمة منكرة، ويبدو أن قد ذبحوا جميعهم.

وقد كان ذلك الأمر مدعاة لانزعاج مؤاب، الذى أرسل شيخها الى «بلعام» وهو نبى كان يبدو أنه يعيش على نهر الفرات فى شمال سوريا. ومما يسترعى الالتفات أنه كان كاهنا من كهنة «يهوه». وتوحى هذه الحقيقة مرة أخرى، بأن يهوه كان إله قبائل الصحراء. ولما كان بنو اسرائيل من عبدة يهوه أيضا، فإن بلعام لم يكن فى استطاعته صب لعنته عليهم. ويلخص سفر التثنية قصة الخروج من مصر الى الوصول إلى «مؤاب» فى صيغة أحاديث نسبت الى موسى عليه السلام. ثم يأتى بعد هذه الأحاديث مزيد من التشريعات وحديثان آخران من أحاديث موسى. والمعتقد الآن أن أغلب هذه المواد جمعت بعد مضى خمسمائة سنة. وكانت مادة الكتابة الوحيدة فى هذه الحقبة هى قطع الحجارة أو قوالب الآجر مما كان يصعب حمله على ظهور الحمير.

وقد توفى موسى ودفن على جبل «نبو»[١٤]، وهبط بنو اسرائيل من الجبال

---

(١٤) خريطة (٤).

الشديدة الانحدار التى ترتفع حوالى أربعة آلاف قدم وضربوا خيامهم فى مخاضة الوادى تجاه «أريحا». ويذكر العهد القديم بأن العدد الاجمالى لبنى اسرائيل كان ستمائة ألف رجل فى سن الجندية، وبالتالى يوحى هذا الرقم بأن العدد الإجمالى للعشيرة هومليونان من الأنفس. ويفسر فلندرز تيرى هذه المعادلة الصعبة بمقارنة الأعداد المستخدمة عام ١٢٢٠ قبل الميلاد بتلك التى كانت مستخدمة بعد ذلك بخمسمائة سنة، ويتابع بعض الأعداد التى كانت مستخدمة فى الحقبة السابقة وينتهى إلى أنها تتشابه الى حد ما مع تلك الأعداد التى كانت مستخدمة فى تاريخ لاحق وإن اختلفت دلالتها. واذ يجرى التصحيحات الضرورية فإنه ينقص أجل الآباء وأعداد بنى إسرائيل الى النسب المألوفة.

ومع هذا، فلا مناص من وقوع الخطأ، إذ يعتقد أغلب الباحثين العصريين أن اسرائيل كان لديها نحو خمسة آلاف مقاتل، وبالتالى كان مجموع سكانها خمسة عشر ألف أو ستة عشر ألف نسمة. وإذ رجعنا إلى أن بنى اسرائيل كانوا جميعا قادرين على أن يستقوا من بئر واحدة، وأنهم ساروا حول «أريحا» سبع مرات فى صباح واحد فإنه يصعب القول بأنهم كانوا أكثر من ذلك عددا.

خــاتمــة

١ ـ يبدو أن هناك كثيراً من الدلائل على أن عبادة «يهوه» كانت تمارس فى سيناء بل ربما أنها كانت تمارس فى شمال الجزيرة العربية قبل الخروج. وأن موسى عليه السلام أخذ هذه العبادة عن يثرون شيخ مدين الكثير. والرأى هو أن موسى تلقى وحيا روحانيا حقيقيا فى «عليقة موسى»، إلا أنه نسب إلى يهوه، ولايبطل الاعتقاد العقلى والفكرى المخطىء التجربة الروحانية.

٢ ـ كانت عبادة يهوه عبادة مجردة بسيطة حتمتها ظروف معيشة الرعاة الرحل. والمظهر البارز فى تلك العبادة هو نبذ الصور، كما كانت المعابد التى أقيمت لعبادة يهوه عبارة عن بناء مقدس مكعب الشكل خال من الصور، فقد كان يصعب على البدو الرحل أن يحملوا معهم الهياكل المعقدة والأصنام والتماثيل.

٣ ـ لا جدال فى أن موسى ﷺ كان روحا مميزة دينية وأن ما رآه فى «العليقة المشتعلة» بسيناء كان تجربة روحانية أصيلة. ومع هذا فقد كان بنو اسرائيل يعتقدون أن يهوه هو قائدهم العسكرى الذى سوف يقودهم فى المعركة. وفى سيناء التقى بنو اسرائيل بالقينيين (أهل مدين) الذين سبق لهم أن عبدوا يهوه طويلا، ويحتمل أنهم كانوا هم الذين قدموه الى بنى اسرائيل على أنه قائدهم. ويصعب علينا فهم الأفكار المعقدة لهؤلاء القوم البسطاء.

٤ ـ أن السرد الكامل للخروج من مصر إلى الصراع مع مؤاب، جد واضح وسائغ. إلا أنه أصبح معقدا بكثرة المواد التى أضيفت، فيما بعد، بالإضافة لتناول وصف الطقوس الدينية فى هيكل أورشليم والتشريعات التى كانت تحكم المجتمع الزراعى.

الفصل الثالث
الغـــزو

«فإن ملاكى يسير أمامك ويجىء بك الى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين. فأبيدهم.. أرسل هيبتى أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين. فإنى أدفع الى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك..».

«فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام. فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التى تكلم بها الرب نفعل..»

سفر الخروج الاصحاح ٢٣/٢٣ إلى ٣٢ الاصحاح ٣/٢٤

«وكان لماانتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاى فى حقل فى البرية.. أن جميع اسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال. ونساء إثنى عشر ألفا جميع أهل عاى...»

سفر يشوع الاصحاح ٢٤/٨ و٢٥

الفصل الثالث

نقف فى هذا الفصل لنتأمل معانى الأسماء المختلفة المستخدمة للرب. لقد كان الاسم العبرى «يهوه» أكثرها استخداما. وبعد عدة قرون، وربما كان ذلك حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، رأى كبار حاخامات بنى اسرائيل أن كلمة «يهوه» كلمة مقدسة بدرجة كبيرة لايجوز استخدامها فى الأمور المعتادة يوميا فاستبدلوها بكلمة «أدوناى» ومعناها الرب. وعندما ترجمت أسفار موسى الخمسة فى أعقاب ذلك إلى اللغة اليونانية ترجمت أدوناى بكلمة «كيريوس» ومعناها الحرفى الرب. وفى اللاتينية صارت كيريوس دومينوس وفى الترجمات الانجليزية أصبحت كيريوس ودومينوس الرب، وهو اصطلاح قبل دون مجادلة ليعنى خالق الكون.

وقد عاد الآباء الدومينيكيون الى استخدام كلمة «يهوه» في ترجمتهم الجديدة التى نشرت سنة ١٦٦٩. والرأى عندى أن رد الفعل الذى أحدثه كتاب العهد القديم كان طاغيا، فحيثما كان يهوه يخاطب موسى أو بنى اسرائيل كانت العبارة التى يستخدمها هى «إنى أنا يهوه ربك» أو «إنى أنايهوه ربكم» وفى صيغة الغائب «يهوه رب إسرائيل». ويبدو أن الرعاة إعتبروه «يهوه» هو الرب الذى اختارهم والذى وعدهم بالسير على رأسهم للقضاء على القبائل الأخرى التى كان كل منها بطبيعة الحال تحت قيادة إلهها.

وقد سبق أن اتفقنا على أن موسى مر بتجربة روحانية أصيلة. وقد يرد هنا سؤال: كيف أمكن حدوث ذلك إذا كان يظن أنه يتحدث إلى إله قبلى محلى؟. وأننى أجترىء وأقترح أن الله قد يكون غير ذى بال بالنسبة لمفاهيمنا الفكرية العقلية رغم ما نعلقه عليها من كبير الأهمية. وعلى أى حال فان عقول البشر اذا ما قورنت بحكمة الله، فاننا نجدها أصغر قطعا من عقول البعوض اذا ما قارناها

بعقول البشر. فهلا يجوز أن يكشف الله عن ذاته العلية لرجل يبدى الاستعداد لتكريس نفسه لعبادته، حتى وإن كان فكرته العقلية عن الله مضحكة؟

لكن مهما كان اعتقاد موسى نفسه، فان الرعاة كانوا يتخيلون الله وكأنه قائدهم في الحرب، والمسيحى فى أيامنا تأخذه الحيرة عندما يقرأ أن «الرب» يأمر بذبح كل شيء حي. ففي وصف سقوط «أريحا» يقال لنا أنه قتل كل ما هو حي في المدينة. «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»[1]. وتتردد نفس القصة مرارا وتكرارا. أيمكن أن يأمر الله بهذه المذابح وبهذه الأعمال الوحشية التى لاتقف عند حد في حين أن المحبة هى أبرز سجاياه؟

وبتغيير إسم يهوه إلى «الرب» وضع المترجمون «الطائفة المسيحية» فى معضلة منذ ذلك الوقت، إذ وقع المدافعون عن الدين المسيحى فى ورطة شديدة كيمفا يفسروا هذا التناقض الظاهر، وكان سبيلهم الى ذلك أن «الكنعانيين أشرار يستحقون الابادة» ويتعذر علينا اليوم أن نقدركم كانوا أشرارا، ولكن على فرض أن الكنعانيين كانوا خليعين جنسيا ـ وهو الادعاء المألوف ـ فإنه من العسير قتل فئة بأسرها بسبب إنحلالها الجنسي.

وقد كان ما يطلق عليه إسم البغاء، طبقا للعقيدة الدينية، والذى كان يمارس فى فلسطين سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، أمرا مألوفا لدى كثير من الشعوب الزراعية فى ذلك الوقت، وكان يقوم على أساس المحاكاة السحرية. فلكى تأتى الثمار كان من الضرورى أن تثيرها وتنبهها، وعلى هذا فإن رش الماء على الأرض، هو بمثابة تقليد للمطر الذى يتساقط من السماء وبالمثل كان العلاقات الجنسية الانسانية تثير وتنبه خصوبة الحقول[2]. وهكذا كان الكنعانيون والأموريون يمارسون خطأ يتعلق

---

(١) سفر يشوع الاصحاح ٢١/٦ .

(٢) جى. بى. جلوب «القرون الضائعة».

بحقائق الزراعة، ولكنهم كانوا يشاركون معظم معاصريهم المزارعين فى هذا الخطأ، لكن هل يكون هذا الخطأ مبررا لأن يبادوا عن آخرهم؟

وفى مقدمة الطبعة المنقحة لسنة ١٩٥٢ للكتاب المقدس، فسرت لجنة المترجمين سبب الاستمرار فى استخدام كلمة «الرب» مفضلة إياها على الكلمة العبرية الأصلية «يهوه»، بأن استخدام أى اسم مناسب وملائم لتمييز الله الواحد الأحد وكأنما هناك آلهة أخرى غيره، قد بطل من الديانة اليهودية قبل العصر المسيحى، وهو أمرغير لائق تماما للمذهب العام لكنيسة المسيحية، وكان الحل الذى اتخذه المترجمون هو تغيير اسم الإله القبلى إلى اسم الله خالق الكون، وبذا لاينسبون الى إله المحبة تلك العقلية البهيمية التى منحها الرعاة الرحل لإلههم القبلى، بمل يؤدى إلى أن قراءة أسفار موسى الخمسة، تعنى الشعور بانطباع غامر، وهو أن واضعى هذه الأحاديث المنقولة لم يكن لديهم أى تصور أو أى فهم لله رب العالمين.

لقد كان عالمهم محدودا بمصر وسوريا والفرات والصحراء، واذا ما امتدت رقعة هذا العالم الى الوراء لم يكن ذلك يهمهم. وكان شغلهم الشاغل فى ساعات يقظتهم هو أن تأكل الأغنام كفايتها، وأن يعتنوا بالخراف، ويحلبوا النعاج، ويوقفوا الذئاب عند حدها، أماعلم اللاهوت فلم يكن ليشغلهم البتة. وكانوا يحمدون يهوه ربهم كلما أصابهم خير، فإذا مسهم الضر جاروا وانقلبوا عليه. وهناك شك فى أن يكون دينهم قد ذهب الى أبعد من ذلك.

إن حياة الرعاة حياة مقفرة بصورة غير معقولة، خيمة أكبر قليلا من سرير النوم، من غير ما إضاءة أو مصابيح، وكل السكان أميون ولاتوجد أى أدوات للكتابة. وعند أمثال هؤلاء الناس يكون المبدأ أو العقيدة مستحيلا، فالمعابد والطقوس الدينية تحتاج إلى المبانى، ولايمكن أن يتواجد اللاهوت عندما لايستطيع أحد أن يقرأ أو يكتب.

وتتساءل مقدمة كتاب العهد القديم كيف كان يهوه الله الواحد إله اسرائيل وكيف أصبح بنو اسرائيل شعب الله من بين شعوب الأرض جميعا؟ وتجيب أسفار موسى الخمسة: لأن الوعد المقدس قطع لاسرائيل». إلا أن هذه الاجابة ليست شافية، فان «الله اختار إسرائيل لأنه وعد بأن يختار إسرائيل».

ولقد أشيع أن صفات بنى اسرائيل الأقدمين كان صفات فريدة فى العالم القديم، وقيل أن إهتمامهم بالفقرء كان اهتماما منقطع النظير. فالديانات مثل الديانة المجوسية والديانة الإسلامية تعرف القدرة الآلهية والقداسة والطهارة والصلاح. أما العدالة التى تحنو على الضعفاء والمنبوذين رحمة بأولئك الذين أهملتهم الدنيا ـ فهى جد أمر فريد فى ديانة اسرائيل[٣]. ويبدو لى أن هذا التعميم بالنسبة للدين الاسلامى هو تعميم مخطىء خطأ جسيما، فإن الآية الثالثة عشر ومابعدها فى سورة البلد تصف السلوك الذى يرضى عنه الله بأنه «فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة» وهكذا ينصف الاسلام الفقراء والضعفاء بحيث يراه بعض الكتاب العصريين على أنه ثورة الفقراء على الأغنياء.

ويظهر أن هذه المحاولات الطيبة لتبرير اختيار الله بتصوير بنى اسرائيل القدماء بصورة فاضلة فريدة فى عالم شرير هى محاولات لاتتفق مع الكتاب المقدس. ويطالعنا سفر التثنية فى التوراة الاصحاح ٦/٤ «فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب يهوه هذه الأرض الجيدة لتمتد لك لأنك شعب صلب الرقبة. إذكر لاتنسى كيف أسخطت الرب يهوه فى البرية».

وإذا كنا قد تعلمنا منذ نعومة أطفارنا أن بنى اسرائيل البدائيين فى سيناء كاناو «شعب الله» ، فإنه يصعب علينا الآن أن نكون موضوعيين. وأستطيع بكل تواضع أن أسلم وأخضع للصورة المنطبعة فى ذهنى، لأننى وقد عشت مع مثل

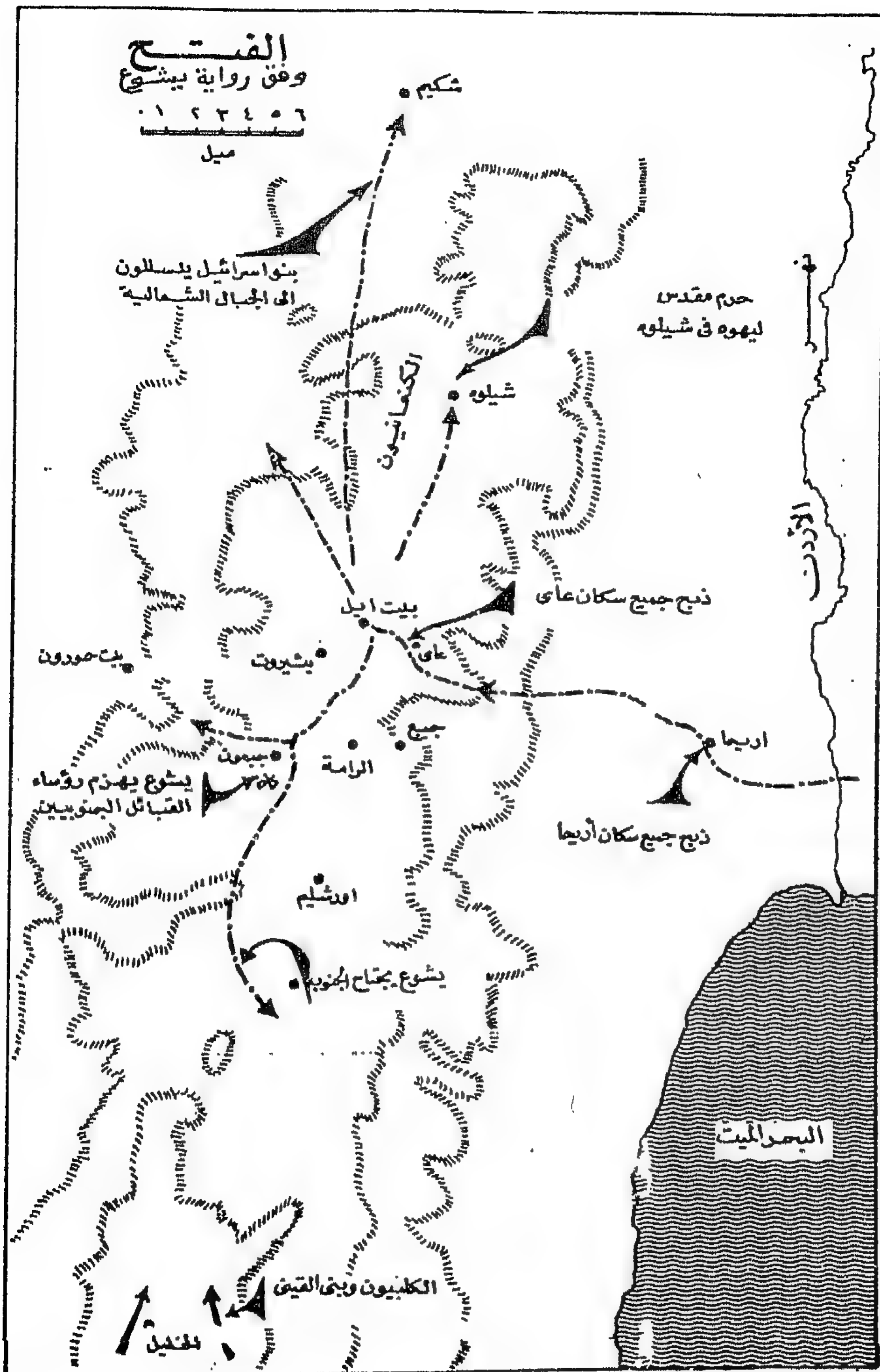
(٣) جى ايرنست رايت «العهد القديم فى مواجهة بيئته».

هؤلاء الرعاة أجد أن قصة الخروج قصة حقيقية حية جدا، بل إنها قصة طبعية لدرجة أنها تجبرنى عل تقبلها من غير ماحاجة إلى إيضاحها بالمعجزات أو الوساطة الآلهية أو شعب الله المختار.

وقبيل وصول بنى اسرائيل الى أريحا بفترة قليلة كان الفلسطينيون القدماء قد استقروا على السهل الساحلى الجنوبى، وكان هؤلاء الفلسطينيين غزاة جاءوا عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخبيل بحر إيجة. ويحتمل أنهم تعرضوا لغزو شعب فاتح من شعوب الشمال ـ الداوريين ـ فطردوا من أرضهم وديارهم، وقد وصلت جماعات أخرى منهم إلى مصر ولبنان فى نفس الوقت. وكان الفلسطينيون القدماء أكثر تقدما من بنى اسرائيل بصورة ملحوظة.

* * *

ويبدو أن سفر يشوع هو من نوع القصص الزاخرة بأعمال البطولة التى كتبت بعد ذلك بزمن طويل لتمجيد البطل، أما سفر القضاة فانه يروى قصة مختلفة وأكثر حقيقة وواقعية. فبعد الاستيلاء على أريحا، وهى قرية يبلغ سكانها أقل من ألفى نسمة وتغطى مساحة تقرب من ست هكتارات، وقد تحرك بن اسرائيل الى بروز فى الجبال المطلة على أريحا يؤدى إلى بيت إيل، ولايزال هذا البروز هو الطريق السهل الوحيد عبر الجبال بين الصخور الممتدة شمالا وجنوبا. والجزء الأعلى من سلسلة الجبال الممتدة من بيت ايل (بيتين الحديثة) الى جبعون (الجب الجديدة) هو أكثر استواءا وانفتاحا عن أكثر سلاسل الجبال الممتدة من الخليل الى «شكيم»، ومن ثم فقد كان يضم قرى جديدة. وكان يسكن بعض هذه القرى الجيبعونيون الذين توصلوا إلى اتفاق مع يشوع عندما كان فى أريحا. وكان فى مواجهة انحدار البروز المؤدى إلى بيت أيل طريق سهل نسبيا عبر بيت حورون (بيت عور الآن) الى السهل الساحلى. وتقع جبعون على رأس المنحدر الى


الفتح
وفق رواية يشوع
٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠
ميل
شكيم
بنو اسرائيل يتسللون
الى الجبال الشمالية
حرم مقدس
ليهوه فى شيلوه
شيلوه
الكنعانيون
الأردن
بيت ايل
ذبح جميع سكان عاى
عاى
بيت حورون
بئيروت
جبع
جبعون
الرامة
اريحا
يشوع يهزم رؤساء
القبائل الجنوبيين
ذبح جميع سكان أريحا
اورشليم
يشوع يجتاح الجنوب
البحر الميت
الكلبيون وبنى القين
الخليل

خريطة (٤)

بيت حورون، ومن ثم كانت لها أهمية استراتيجية. ويشكل هذا السهل الصغير الآهل بالسكان حائلا حصينا بين الجبال الصخرية الجرداء الضاربة إلى الجنوب وبين الأقليم الممتد شمالا الى شكيم (نابلس الحالية).

ويذكر سفر يشوع الاصحاح العاشر أن ملك أورشليم أدونى صادق استنجد بحكام منطقة الخليل ومنطقة لخيش وعجلون فى السفوح الغربية ثم مضى لمهاجمة جبعون مركز المواصلات الهام التى كانت ببساطة قد باعت الممر بعقدها اتفاقا منفردا مع بنى اسرائيل، الا أن يشوع هب لمساعدة حلفائه الجدد وهزم رؤساء القبائل الجنوبيين مطاردا أياهم على منحدر حورون. وتوصف قبائل الخليل هذه فى سفر يشوع الاصحاح العاشر بأنها من الأموريين. واغتنم يوشع فرصة هذا الانتصار فاكتسح الاقليم الجبلى الى الجنوب.

وقبل هذا الحادث، أو حوالى ذلك الوقت. قامت قبيلة بنو القينى، وهى قبيلة حمى موسى من أتباع كالب، بغزو الخليل من الجنوب، ولعل مما يذكر أن هذه القبائل كانت شبه رعاة فى منطقة بير السبع ـ سيناء، ومن الأرجح أنها كانت تعبد يهوه قبل خروج اليهود من مصر، ومع أنها لم تكن حاضرة عند طور سيناء إلا أنها اندمجت فيما بعد فى قبيلة يهودا التى إحتلت منطقة الخليل.

وبينما نرى أن سفر يشوع يصفه بأنه غزا كل سلسلة الجبال من الخليل الى شكيم، وبأنه مسحها وقسمها بين الأسباط، يقص علينا سفر القضاة قصة أكثر واقعية حيث يصور الأسباط المختلفة وقد قام كل سبط منها بعمل مستقل فى محاولة منها للاستيلاء على منطقة خاصة بها. وغالبا ما تم ذلك بالاتفاق مع السكان الموجودين فى المنطقة. فعلى سبيل المثال، يذكر الاصحاح الأول/ ٢٩ من سفر القضاة، «وافرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين فى جازر فسكن الكنعانيون فى وسطه فى جازر». ويستطرد، «ولم يطرد أشير الكنعانيين فسكن الاشيريون فى وسط

الكنعانيين سكان الأرض». وفى أغلب الترجمات يقال أن سكان البلاد كانوا يجبرون على أعمال السخرة، الا أن رونالدتوكس يترجم ترجمة أكثر دقة فيقول أنهم كانوا تحت الجزية[٤].

ويعتقد أغلب الباحثين العصريين أنه حدث قتال على أضيق نطاق، بل يذهب البعض إلى القول بعدم وقوع قتال البتة شمال بيت ايل فى هذه المرحلة. فقد تسلل بنو اسرائيل الى البلاد وتوصلوا الى تفاهم مع السكان. ولعل الأمر أن يكون كذلك فى بعض الحالات، لأن القرويين كانوا يفضلون أن يدفعوا الجزية للرعاة ويصبح فى امكانهم زرع حقولهم. ومثل هذه الاتفاقات قد تواجدت فى الشرق الأوسط منذ أمد بعيد جدا، وهى فى الواقع لم تبطل وتلغى إلا فى العشرينات فقط. والرعاة الرحل بالرغم من قلة عددهم إلا أن مقدرتهم على خلق المتاعب جد كبيرة، أما الفلاحون الذين كانوا يريدون أن ينتشروا فى حقولهم ليعملوا بها فقد كانوا غالبا على استعداد لدفع الجزية فى مقابل ممارسة نشاطهم دون أن يمسهم أحد.

ويفترض الباحثون فى أى مجتمع مستقر منظم (حتى ولو كان تحت حكم سليمان، بل فى أوروبا الحديثة) درجة كبيرة من التنظيم أكثر مما عساه أن يكون فى مجتمع رعاة رحل ويقولون أن اتحادا فيدراليا بين إثنتى عشرة قبيلة يستلزم بالضرورة عقد معاهدة. أما سفر يشوع فيصور يشوع بأنه كان يقسم الأرض ويقيم الحدود بين الأسباط ـ وتلك آراء مألوفة فى مجتمع زراعى مستقر إلا أنها لاتتفق مع حياة الرعاة الرحل. ومثل هذه العبارات مثل كثير غيرها مما جاء فى أسفار موسى الخمسة لابد وأنها كتبت بعد مضى عدة قرون. وأحسن وصف لمجتمع القبائل الرحالة، هو ما جاء فى آخر سفر القضاه «فى تلك الأيام لم يكن ملك فى اسرائيل، كل واحد عمل ما حسن عينيه».

---

(٤) ترجمة الكتاب المقدس، لرونالد توكس.

ولقد رأينا أن مصر كانت تتدخل مرارا فى فلسطين قبل خروج اليهود، بل إنها فى الواقع حكمت سوريا طوال فترات عديدة. وكيفما كان، فقد حلت الفوضى بمصر قبيل غزو بنى اسرائيل مباشرة لفلسطين، وكان ذلك من جراء انهيار الأسرة التاسعة عشرة وانسحاب مصر من فلسطين.

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تكن هناك قوة موحدة تقوم بتنظيم جيش واحد بل ترك كل سبط صغير أو كل قرية تدبر أمر دفاعها عن نفسها على طريقتها. وفى غيبة الحكومة المصرية حصل الرعاة الرحل على الميزة الخارقة لخفة الحركة. فقد كانوا يستطيعون، وقد اعتادوا على الأسفار بقطعانهم وعائلاتهم عبر الصحارى والقفار، وأن يتنقلوا كما تنتقل الفرقة خفيفة الحركة. أما السكان المستقرون والموزعون بين المدن والقرى، ودون أن يكون لديهم قائد مشترك يأتمرون بأمره وينتظمون تحت لوائه، فقد كانوا غير قادرين على وضع قوة موحدة فى الميدان. وهكذا استطاع الرعاة الرحل رغم قلة عددهم، أن يحرزوا دائما التفوق العددى فى أية نقطة واحدة.

وليست هناك بطبيعة الحال أرقام للتعداد، وبالتالى فإن تقديراتنا ليس أكثر من حدس وتخمين ولكن يمكن القول بأن سكان فلسطين كانوا قرابة نصف مليون، وربما كانت الكثرة الغالبية من هؤلاء السكان فى السهل الساحلى، إلا أنه يجدر بنا أن نختص المناطق الجبلية بمائة ألف نسمة، وكان عند بنى اسرائيل خمسة آلاف مقاتل فقط مما يجعلهم قلة قليلة إذا ما قورنوا بالسكان المستقرين فى المدن والقرى. ومن الأرجح أن سكان أريحا، المقاتلون منهم فقط، كانوا أقل من ألفى رجل، وكان فى إمكان الغزاة أن يحشدوا فى مواجهة هؤلاء الرجال خمسة آلاف مقاتل. وهكذا استطاع بنو اسرائيل بتقدمهم الجماعى أن يكتسحوا، على التعاقب، كل واحدة من المدن الصغيرة، أو كل قبيلة على حدة.

وقد حدثت أن عشت لسنوات عديدة في منطقة جنوب العراق حيث لمست أن ظاهرة مماثلة قد حدثت. إن المؤرخين العرب القدامى يذكرون أن قبيلة من الرعاة الرحل يطلق عليها اسم «منتفق» كانت تعيش فى الصحراء جنوب نهر الفرت فى القرن الثانى عشر بعد الميلاد. وفى سنة ١١٢٤ ميلادية قامت هذه القبيلة بغزو البصرة كمثال. ومن الأرجح أنها تمكنت من عبور نهر الفرات فى القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر إلى الأرض المنزرعة. وهكذا استطاع الرعاة الرحل وعددهم أقل بكثير جدا من عدد السكان المستقرين أن يغزوا القبائل الصغيرة واحدة بعد أخرى. واذا كانوا يضربون خيامهم على حافة الأرض المنزرعة أو في الأرض البور، أو بين القرى فقد أجبروا المزارعين على أن يدفعوا لهم الجزية.

وحوالى سنة ١٦٠٠ ميلادية كان المنتفقون هم حكام المنطقة بلا منازع وكانوا يذكرون وكأنهم الأمراء والحكام. وقد ثاروا على الحكم العثمانى وحارب المزارعون تحت إمرة «أسرة» المنتفق. ولازال هؤلاء الرعاة الأولون فى خيامهم ينظرون بشيىء من الكبرياء والتفوق على رعاياهم. وفى سنة ١٩٢٢ ذهبت بنفسى لأعيش فى منطقة المنتفق، وكان الرعاة لازالوا يعيشون فى خيامهم يجمعون الإتاوات من المزارعين، وكان هذا بعد انقضاء ما يقرب من خمسمائة عام منذ قدومهم من الصحراء، ولم يتحطم هذا النظام إلا فى الأربعين سنة الماضية فقط.

وكانت قبيلة بن صقر رعاة رحل فى الحجاز إبان القرن الرابع عشر بعد الميلاد، وقد قيل أنهم كانوا يدفعون الجزية للمماليك فى مصر. وفي القرن الخامس عشر أو السادس عشر ظهروا فى الصحراء فى شرق الأردن، وهم الآن وبعد مضى أربعمائة سنة منذ وصولهم، يمتلكون القرى على امتداد حافة الصحراء ويفلحون الأرض مستخدمين العمال الزراعيين من المناطق المستقرة. ولايزال أغلب بنى صقر بدوا يسكنون الخيام الى هذه الأيام.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى شبيهة حيث نرى فى كل حالة أن عدد الرعاة الرحل كان جد صغير إذا ما قورن بعدد السكان المستقرين، إلا أن خفة حركتهم مع تماسكهم أتاحت لهم أن يغزوا المزارعين جماعة فى إثر أخرى، ومن ثم كانوا غالبا ما يطلقون على المنطقة التى يغزونها إسم قبيلتهم، رغم أنهم من الناحية السلالية يشكلون جانبا ضئيلا من السكان. كما أنهم لم يتخذوا مهنة الزراعة بسرعة، بل كانوا يعيشون فى خيامهم لسنين طويلة معتمدين على الأتاوات التى يجمعونها من القرويين.

ويبدو لى أن غزو بنى اسرائيل لفلسطين هو واحد من هذه الأمثلة التى لاتدخل تحت حصر منذ عصر ما قبل التاريخ إلى وقتنا هذا. واذا صح هذا الرأى فان غزو بنى إسرائيل لم يكن تدخلا إلهيا فريدا لصالح مجموعة من الرعاة الرحل الذين فضلهم الله رب العالمين على خلقه أجمعين.

ويوجز سفر القضاة الاصحاح الثالث/٥، الموقف الناجم عن الغزو كالآتى: «فسكن بنو اسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم».

وقد تشير عبارة «سكنوا» بينهم» إلى أنهم كانوا يضربون خيامهم بين القرى كما كان المتنفقون يفعلون فى العراق، كماتدل ضمنا هذه العبارة أيضا على أن بنى اسرائيل كانوا أقل عددا من «أهل البلاد».

وقد علق العلماء الباحثون على حقيقة بأنه «فى حين يظهر أنه كان هناك قتال جنوب الخط الممتد من أريحا الى بيت حورون، فإنه يبدو أن السلسلة الجبلية الممتدة من بيت إيل الى شكيم قد اخترقت دون معركة. ويستنتج البعض أن القبائل فى هذه المنطقة كانوا عل شاكلة بنى اسرائيل، وأنهم انضموا إليهم طائعين. وهذا استنتاج محتمل من غير ماشك، حيث رأينا أن بنى إسرائيل فى مصر كانوا جمعا مختلطاً.

ويجوز، بشكل سوى، أن يكون هؤلاء الفلاحون قد آثروا دفع الجزية نظير السماح لهم بالاسمترار فى عملهم. وبناء على ماجاء فى سفر القضاة الاصحاح الأول، استطاع الأموريون أن يصدوا الغزاة فى بعض الأحيان إلا أنهم كانوا يجبرون فى أحيان أخرى على دفع الجزية، وأحيانا ما استقروا سوريا. وقد بنى معبد لعبادة يهوه فى شيلوه حيث أودع تابوت يهوه.

ولاتعنى كلمة «القضاة» بالطبع موظفين قضائيين بل تعنى قادة حربيين. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، لم تقع حرب مع الكنعانيين على امتداد الجبل فقد اندمج بنو اسرائيل وإياهم، وإنما هب قادة الحرب كلما هاجم الجيران الخارجيون منطقتهم. وعادة ما كانت تشتبك فى هذه الحملات المحلية قبيلة اسرائيلية أو أكثرتحت إمرة رئيس عسكرى محلى. وتطلق أغلب الترجمات الانجليزية على هؤلاء الرؤساء العسكريين إسم القضاة. وما لم تحدث مثل هذه الأزمات كان «كل واحد عمل ما حسن فى عينيه» وهذه هى المثالية للمجتمع والحياة فى رأى معظم رجال القبائل.

خاتمة

يبدو محتملاً أن:

١ ـ كان إله إسرائيل اعتبارا من الخروج من مصر وصاعدا هو يهوه الذى عبد مسبقا فى سيناء وأماكن أخرى بالأخص من سكن الصحراء.

٢ ـ كان الرعاة الرحل غير قادرين على عمل الصور أو حملها وبالتالى لم تتضمن عبادة يهوه الصور والأشكال.

٣ ـ حظى موسى بثواب إلهى روحانى يحتمل أنه من روح القدس التى تتجلى لكل هؤلاء المستعدين لخدمة الرب.

٤ ـ وكيفما كان فقد فكر رجال القبائل من بنى اسرائيل فى يهوه كمحارب سوف يقودهم شخصيا الى النصر. وقد كانوا ذوا حظ عظيم إذ «اختارهم» مثل هذا الآله البارع فى فنون القتال.

٥ ـ هذه القصة المجردة المنطقية الطبيعية، إذا جاز لى أن أقول ذلك بكل خضوع تبدو لى وكأنها كانت خافية علينا لأن المترجمين جعلوا ترجمة يهوه «الرب».

الفصل الرابع
أيام مجيدة

ليس هناك سبب يدعو إلى الشك فى أن الايمان بعقد ميثاق بين يهوه وداود وقد حدث منذ وقت مبكر جدا. وقد أفلحت قطعة من الفلسفة اللاهوتية اليهودية فى اقرار مزاعم آل داود، فأصبحت تأكيدات الاختيار اللاهوتى لجبل صهيون مقرا ليهوه، وإختيار آل داود لتقديم ملوك بنى اسرائيل، مظاهر رئيسية لتقاليد أورشليم الدينية.

آر. أى. كليمنتس، «ابراهيم وداود»

لانستطيع أن نتطلع إلى أى من الملوك والرهبان بكثير من الإعجاب، أو الكبرياء، إلا أن العالم بأسره سوف يذكر دائما أسماء عاموس، وهوشع، يونان، ميخا.. إن روح الاستقلال الأخلاقية الباسلة الخالدة هى التى نكرمها فى الأنبياء، لا الاستقلال السياسى الذى يحارب الناس من أجله دون نهاية كدفاع عن النفس أحيانا، أو حربا عدوانية أحيانا أخرى لنيل مزيد من الأرض، أو للتحكم فى مزيد من الرقيق، أو للاثراء على حساب الجيران.

موشى منوحين، «تدهور الديانة اليهودية فى هذا العصر»

الفصل الرابع

جاء الغزاة الفلسطينيون القدماء (شعب البلست) عن طريق البحر من جزيرة كريت وأرخبيل بحر إيجة حيث وطدوا أنفسهم فى السهل الساحلى، تماما كما وطد بنو اسرائيل أنفسهم فى المناطق الجبلية. وصناعيا كانوا أكثر تقدما من بنى اسرائيل فقد كان لديهم الحديد الذى استخدموه مع النحاس والبرونز لصنع عجلات القتال والسيوف والرماح وأسلحة المحاريث، وقد اندمجوا بسرعة مع أهالى البلاد كمافعل بنو اسرائيل مع سكان الجبال. وبعد أن أحكم الفلسطينيون سيطرتهم على السهل الساحلى الجنوبى اتجهوا الى مرج ابن عامر(سهل زبولون)(١). ولكى يسترضوا السكان الوطنيين عبدوا الإله المحلى «داجون». وفى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد كان الفلسطينيون يشقون طريقهم شمالا فى داخل المنطقة الجبلية.

وبعد عام ١٠٥٠ قبل الميلاد بقليل وصلت قوة من الفلسطينيين إلى أفيق على سفوح التلال، وطرد الاسرائيليين بعد أول اشتباك فأرسلوا فى طلب تابوت يهوه الذى كان محفوظا فى شيلوه عل بعدسبعة وعشرين ميلا(٢). وعلى الرغم من هذا التدبير هزمت اسرائيل هزيمة منكرة واستولى الفلسطينيون عل تابوت يهوه واجتاحوا بعدئذ النصف الشمالى من المنطقة الجبلية ودمروا معبد «شيلوه» وكانت قوتهم على غرار قوة بنى اسرائيل مؤلفة من مجندين من القبائل لايأخذون أجرا، ويمكن استخدامهم فى الحملات الحربية القصيرة، ولكن كان من الضرورى بعد ذلك أن يصرفوا أنفسهم لمتابعة اشغالهم المعتادة، ولم يكن لديهم جيش نظامى لحراسة المناطق المحتلة، ولكن يبدو أنهم تركوا قليلا من الحصون الصغيرة فى المناطق الجبلية.

---

(١) خريطة (٥).

(٢) سفر صموئيل الأول الاصحاح ٤.

وأخذ الفلسطينيون تابوت يهوه إلى «أشدود»، إلا أن أهل هذه المدينة سرعان ما أصابتهم النزلات والأورام، مما يحتمل أن تكون أعراض الطاعون الدملى، فنقل التابوت الى «جت»، الا أن سكان هذه المدينة أصيبوا أيضا بالأورام. وعلى سبيل استعطاف يهوه أعاد الفلسطينيون التابوت وأرسلوا معه تقدمه تمثلت فى خمسة بواسير من ذهب وخمسة فيران من ذهب[٣]. ولعل مما يسترعى الانتباه أن الفلسطينيين ربطوا بين الطاعون الدملى والفئران، فى حين أن أوروبا لم تتمكن من اكتشاف العلاقة بين الاثنين إلا بعد أنقضاء ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة.

وفى هذه الضائقة، علا صيت النبى شموئيل (صموئيل)، وكان رجلا على خلق عظيم، عاش فى الرامة حيث بنى هيكلا لعبادة يهوه بعد أن دمرت «شيلوه». واذ دعا ربه يهوه أن يساعده، أثار فى بنى اسرائيل روح الحمية، الا أنه لم يكن هناك شخصية رئيسية لتتولى قيادتهم. ولم يشترك كثير من القبائل فى معركة أفيق، أما شموئيل فكان قد بلغ من الكبر عتيا، كما كان واضحا أن أبناءه غيرقادرين على تولى أعباء القيادة. وترتب على ذلك أن ذهب شيوخ بنى اسرائيل الكبار الى شموئيل حيث طالبوا بملك يتولى قيادتهم. ويعرض سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن تحذير النبى للشعب من رسامة ملك عليهم، إلا أن الفصل التالى يعرض شموئيل وهو يتلقى الأمر من يهوه لينصب عليهم ملكا.

وفى الاصحاح الثانى عشر يعود الموقف السابق للظهور فيقول شموئيل للشعب «وترون أنه عظيم شركم الذى عملتموه فى عينى يهوه بطلبكم لأنفسكم ملكا»[٤]. إن هذه الآراء المتعارضة التى يحتمل أن تكون قد كتبت بعد مضى قرن

---

(٣) سفر صمويل الأول الاصحاح ٥، ٦.

(٤) سفر صموئيل الأول الأصحاح ١٢/١٧.

فلسطين
في عهد شاؤل

٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠
ميل

البحر
الأبيض المتوسط

بيروت
صيدا
دمشق
صور
الصوريون
(الفينيقيون)
عكا
الكرمل
الفلسطينيون يهزمون
بني إسرائيل في أفيق
أفيق
جبل جلبوع
إسرائيل
شكيم
جلعاد
شيلوة
يافا
بيت إيل
الرامة
جبعة
جبعون
اشدود
أورشليم
عمون
عسقلان
جت
الخليل
غزة
ديبون
يهوذا
مؤاب
بيرالسبع
الفلسطينيون
أدوم
العمالقة

شاؤل يهزم ويقتل
على جبل جلبوع

الفلسطينيون يدمرون
المعبد في شيلوه

صموئيل يعيش
في الرامة

شاؤل ويوآب يهزمان
الفلسطينيين في جبعة

خريطة (٥)

من الزمان تبدو وكأنها تمثل وجهة نظر عجوز من رجال الاسباط يتحرق شوقا الى حرية الرعاة القديمة، بينما تمثل، من جهة أخرى، وجهة نظر ملكى، ربما من أتباع سليمان، سعى إلى تصوير يهوه وكأنه يحبذ الملكية. ثم جاء مدون بعدهما بفترة وجمع وجهتى النظر المتعارضتين.

،كان شاؤل فى ذلك الوقت فتى يافعا رائعا، فلما رسمه شموئيل ملكا بدأ بهزيمة العمونيين، إلا أنه لم يستطع أن يجابه الفلسطينيين فاستخدم معهم تكتيكات حرب العصابات. وينبئنا سفر ضموئيل الأول الاصحاح ١٥/١٣ أنه كان تحت إمرته ستمائة رجل فقط، وأنه استطاع بفضل مبادأة ابنه «يوناثان» فى المقام الأول أن يهزم قوة فلسطينية فى جبعة على بعد خمسة أميال شمال أورشليم. ويبدو أن هذا النجاح زعزع قبضة الفلسطينيين على المنطقة الجبلية شمال أورشليم وعزز موقف شاؤل.

وعندئذ جاء شموئيل الى شاؤل وأخبره بأن يهوه يريد أن ينتقم من العماليق الذين قاموا بالاغارة على بنى اسرائيل منذ مائتى سنة عندما خرجوا من مصر. وقال شموئيل أن يهوه قد أمر بذبح جميع الرجال والنساء والأطفال ويذبح جميع الحيوانات الموجودة على قيد الحياة من الثيران والأغنام والجمال والحمير. وهزم شاؤل العماليق وقتل جميع الكائنات الحية بغض النظر عن السن أو الجنس. وذلك باستثناء رئيس القبيلة الذى أخذه أسيرا، كما أبقى على خيار الأغنام والبقر والخراف.

وجاء شموئيل لمقابلة شاؤل واستنكر عدم إطاعته للأوامر، لأن أجاج ملك العماليق كان لايزال حيا، ولأن الحيوانات لم تذبح كلها، ثم قال «لأنك رفضت كلام يهوه رفضك من الملك». وهنا أرسل شموئيل فى طلب «أجاج» فلما جاء ذبحه بيديه». ويعتبر هذا الحادث واحدا من الأحداث التى يواجه بها المسيحيون لأن أغلب الترجمات الانجليزية تقول أن الرب أصر على المذبحة.

وفى «ديبون» (ديبان الحديثة) عثر على نقش «ميشع» الأثرى الخاص بملك مؤاب، وقد نقشت عليه عبارة مؤداها أن «كموش» إله مؤاب غضب لأن المؤابيين أهملوا عبادته، ونتيجة لذلك سمح لاسرائيل، بأن تغزو معظم إقليمهم، إلا أنه عطف على مؤاب فيما بعد فعقد لهم النصر واستولوا على «عطاروت» و«نبو» وذبحوا كل سكانهما قربانا لكموش.

وكتب فريتسن قائلا: «يستطيع المرء أن يدرك أن اعتقاد المؤابيين فى إلههم كان يوازى اعتقاد بنى اسرائيل فى إلههم». ويضيف ملاحظة بأن «أبحاث بريسكل مانز» تشير الى أن هذه المذبحة الجماعية لم تعرف فى الدنيا القديمة (على حد علمنا) ـ باستثناء إسرائيل ـ إلا فى مؤاب فقط. وإذاكان هذا البيان صحيحا، فإنه يتضح أن اسرائيل ومؤاب كانتا أكثر وحشية من أى مجتمع آخر غيرهما. فكيف نوفق، والأمر كذلك، بين هذا الرأى والرأى الذى عبر عنه الدكتور دجى. أرنست رايت، حين قال «إن العدالة التى تحنو على الضعفاء والمنبوذين كانت سجية خاصة منفردة فى بنى اسرائيل الأقدمين؟».

وتوضح الاكتشافات الأثرية فى «أوجاريت»، بالقرب من اللاذقية فى سوريا، أن الأغنام والثيران كانت تقدم قربانا فى ذلك المكان، كما كانت الحال فى اسرائيل. وكان يتحتم أن تكون هذه الحيوانات سليمة دون عيب كما كانت الضحايا تحرق على النحو الذى كان معمولا به فى اسرائيل، وتواجد هناك موظفون للمعبد وكان من بينهم كاهن كبير، وقد تمثلت فى «أوجاريت» أيضا سمة التبجيل و«الارتباط الحبيب باللاهوت»(٥).

وهكذا نرى، على السطح على الأقل، أن ديانة بنى اسرائيل الأقدمين كانت فى بعض مظاهرها أشبه بديانات الأمم المحيطة بهم، إلا أنه ينبغى لنا أن نتذكر أن

(٥) توماس. بى. فريتسن، «ديانة إسرائيل القديمة».

ديانة اسرائيل نفسها كانت عرضة للتغيير الدائم، لذا فإن أقصى ما يمكننا أن نعمله هو أن نحاول وصفها فى وقت محدد. إن تقديم القرابين من الأغنام والثيران لايمكن أن يدخل إلا فى ظروف زراعية لأن الثيران لاتستطيع العيش فى الصحراء، لذا فمن الأرجح أن تكون هذه القرابين منقولة عن «شعب البلاد».

وقد تميزت الديانة فى أيام الصحراء بغياب الصور، وبالتكريس الكامل ليهوه وبغيبة الجنس فى صفات يهوه. وعلى أية حال، فالمحتمل أن هذه كانت مميزات جميع ديانات الصحراء البسيطة فى ذلك الوقت، وربماكان بنو اسرائيل أكثر اخلاصا فى عبادة يهوه مثل العمونيون فى عبادة «كموش» أو الفلسطينيون فى عبادة «داجون». ولعل هذا الاخلاص كان هو البذرة التى جاء منها التوحيد، الا أن النتيجة التى ترتبت على الاخلاص، كانت التعصب الذى لم يشارك بنى اسرائيل فيه الا المؤابيين على حد قول فريتسن، إن صح قوله.

وكان هذا التعصب خليقا بأن يجر المسيحية الى شذوذ غير عادى، فهى وقد سلمت بأن العهد القديم أوحى به كما أوحى بالعهد الجديد. فإنها كانت ستصبح ديانة جائرة، رغم أن وصايا المسيح كانت على عكس ذلك على خط مستقيم. وأننا نرى دوام هذا التعصب بعينه فى اسرائيل الحديثة.

وبهذا التأمل يمكن إدراك التباين فى وجهة النظر التى أبداها وليام نيل حيث يقول: «إن بنى اسرائيل شعب عجيب مختلف عن أى شعب آخر، لأن صلاتهم وعبادتهم تجعل لهم صفة فريدة تميزهم عن أى شعب غيرهم بأنهم العدة المختارة لمشيئة الله»[٦] وعندما نصل الى نهاية القصة، فى قيام اليهودية الربانية وقيام المسيحية، يمكننا أن ننظر الى الوراء لنرى القصة كاملة ونعجب من تطورها، الا أنه يبدو لى أن من الخطأ أن نصور الغزاة الاسرائيليين البدائيين بتلك الصورة الصالحة.

---

(٦) ويليام نيل، «تعليق على الكتاب المقدس».

من هذه المرحلة وصاعدا تصبح المسألة التى تزداد الحاحا هى مسألة اندماج أولئك المنحدرين من رعاة سيناء مع المواطنين الفلسطينيين. وتظهر الفقرة التالية فى الصفحتين اللاحقتين للعبارة المستشهد بها آنفا من كتاب ويليام نيلب: «أما الآن فقد تغير الموقف، فان الكنعانيين الذين كانوا ساميين[٦]. على شاكلة بنى اسرائيل، والذين كانوا قد وصلوا قبل بنى اسرائيل بفترة بسيطة، لم يعد ذكرهم يأتى باعتبارهم أعداء أو منافسين، فقد اندمج الشعبان وصار الكنعانيون وبنو اسرائيل شعبا واحدا، واكتمل الامتزاج بينهما بالتزاوج والتعاهد والمتاجرة، وصارت اسرائيل الشريك البارز فى الأعمال المالية والقيادة العسكرية. وفى عملية الامتزاج هذه تحول كثير من العادات الكنعانية الى عادات اسرائيلية، واندمج بصفة خاصة، كثير من الديانة الكنعانية فى ديانة يهوه».

وتوافق الكثرة الغالبة من علماء العهد القديم العصريين على هذه العبارة الواضحة.ان الرعاة الغزاة فى أيام يشوع كانوا خمسة آلاف رجل فقط، وكان الاندماج الذى حدث بين بنى اسرائيل وسكان المناطق الجبلية (ذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى السهل الساحلى) امتزاجا كنعانيا أكثرمنه اسرائيليا وذلك من وجهة النظر السلالية (العرقية).

* * *

وقد تقوض مركز شاؤل على يد شموئيل الذى رسم داود ملكا منافسا، وقد جأرد داود بالشكوى بعد أن جد شاول فى اقتفاء أثره قائلا «قد طردونى اليوم من الانضمام الى نصيب الرب (يهوه) قائلين إذهب أعبد آلهة أخرى»[٧]. ويصعب

---

(٦) كان الفلسطينيون سنة ١٢٠٠ ق.م، كما رأينا شعبا من أجناس شتى، فكان بعضهم من آسيا الصغرى أو اليونان أو آسيا الوسطى، وربما كان اسم الكنعانيين اصطلاحا مشتركا للفلسطينيين دون أن يكون له أى مغزى سلالى.

(٧) سفر صموئيل الأول (١٩/٢٦).

علـى ضـوء هذه العـبـارة أن نزعم بأن داود (وناهيك عن ابراهيم) كـان مـوحـدا بالله.

وقد انتهى الأمر بقتل شاؤل خائبا، مغيظا، فى معركة مع الفلسطينيين على جبل جلبواع[8]. وقبلت يهودا وحدهاداود ملكا، وحكم متخذا مقره فى الخليل طوال سبع سنوات ونصف سنة بينما حكم واحد من ذرية شاؤل فى الشمال، وقد احتفظ داود السياسى الواسع الحيلة، بعلاقات الود مع الفلسطينيين وعندما شن الفلسطينيون الحرب على بنى اسرائيل ـ فى الحملة التى قتل فيها شاؤل ـ طلب أخيش ملك جت من داود أن يمضى معه إلى الحرب.

ويوضح هذا الحادث أن يهودا التى تضم قبائل القينيين والقينيزيين وقبائل أخرى كانت متميزة من قبل عن القبائل الشمالية، بل إنها كانت على أهبة الاستعداد لتنضم الى الفلسطينيين ضد القبائل الشمالية، وحتى بعد أن وحد داود الشمال والجنوب بقى الاختلاف قائما بينهما.

وقد ظل داود فى الخليل بضع سنوات فى حرب مع «إيشبوشت» ابن شاؤل، وفى النهاية انضم «افنير بن نير «قائد جيش إيشبوشت الى داود إلا أنه قتل بيد يوآب قائد جيش داود الذى رأى فيه منافسا خطيرا له. وبعد ذلك اغتيل إيشبوشت وخضعت قبائل الشمال لداود وكان ذلك حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد. وقد حكم داود ثلاثة وثلاثين عاما.

كانت مواهب داود خارقة، فقد كان قائدا متمرسا، واستراتيجيا موهوبا وسياسيا فذا. وطالما بقى داود فى الخليل مشتبكا فى حرب مع إبن شاؤل، كان من دواعى سرور الفلسطينيين أن يقدموا له العون، إلا أنه عندما وحد إسرائيل أدرك الفلسطينيون أن تفوقهم أصبح مهددا فهاجموه، إلا أنه استطاع أن يصد هجومهم.

---

(٨) خريطة (٥).

وعلى الرغم من مضى ٢٥٠ سنة منذ غزو يشوع، فقد ظلت أورشليم فى حوزة اليبوسيين وكانت المدينة بوجودها على حدود يهودا الشمالية، بالإضافة إلى أن الجبعونيين والمدن غير الاسرائيلية الأخرى فى السهل حتى بئيروت وبيت إيل[٩] كانت تعزل يهودا عن القبائل الشمالية. وفضلا عن ذلك، كانت لأورشليم سمعتها بأنها حصن لايقهر. وقد رأى داود أن أورشليم بمركزها المتوسط خليقة بأن تكون عاصمة ممتازة لاسرائيل المتحدة، كما كان لها أيضا ميزة «الحياد» بين يهودا والشمال، لذا استولى داود على أورشليم ونقل مقره اليها، الا أن اليبوسيين ظلوا يشكلون الأغلبية فى المدينة كما ظلوا كذلك أيام السبى البابلى. وكان لليبوسيين تقليد مرعى يرجع إلى ثمانمائة سنة على الأقل، ذلك هو تقليد الملوك الكهنة. ويذكر (سفر التكوين الاصحاح ١٧/١٤ ـ ٢٤) ملكى صادق ملك شاليم كاهنا للرب الأعلى الذى كان يطلق عليه اسم «العليون». ويبدو أن هذا التقليد اليبوسى هو الذى أوحى بفكرة داود ومبايعته الخاصة ليهوه.

ولكى يزيد داود من سمعة عاصمته الدينية جلب اليها التابوت الذى كان مهملا فى زوايا النسيان بإحدى القرى منذ أعاده الفاسطينيون. وأوحت الدعاية الملكية بأن يهوه عقد عهدا خاصا مع داود كى تحكم أسرته الى الأبد. وزعم أن أورشليم المدينة اليبوسية هى المقر الخاص ليهوه. ويتردد ذكر ذلك فى المزامير[١٠] وفى مواقع أخرى وكان لهذه الدعاية دور فى تغيير تاريخ العالم، إلا أن القبائل الشمالية، فى ذلك الوقت، لم تخدع بهذه الدعاية، وظلت مخلصة لمعابدها المحلية القديمة وعملت على التقليل من شأن معبد داود (الجديد) فى أورشليم.

وإذ عزز داود مركزه على هذا، النحو شرع فى فتوحاته فهاجم مؤاب أولا ثم تقدم صوب آرام ملك دمشق وأقام حكاما وحامية فى المدينة، وعند عودته الى

---

(٩) خريطة (٤).

(١٠) المزامير ٧٢ و ٧٦ (٦٧ ـ ٧٢) و٨٧ و٩٧ (٩)، ٩٩ وأخرى.

أورشليم هزم قبائل الأدوميين جنوب البحر الميت وعين عليهم الحكام، «وكان يهوه يخلص داود حيثما توجه»[11].

وكان العمونيون الضحية التالية لسياسة داود التوسعية، وبينما كان الجيش يحاصر عمون (عمان الحالية) اغتصب داود بتشبع زوجة أوريا الحثى الذى كان غائبا فى الحرب، وقد أرسل الملك أوامره الى يوآب قائد الجيش ليدبر أمر قتل أوريا، وهكذا تزوج داود أرملته، أى أن بتشبع التى صارت أم سليمان كانت أمرأة حيثية، وكانت جدة داود من المؤابيين.

وقد كان بنو اسرائيل حتى ذلك الوقت حشودا قبلية تحارب أفضل فى مناطقها الجبلية. ولكن لكى يغزو داود مدينة دمشق أنشأ جيشا نظاميا من المرتزقة، وكان أغلبهم من الشريتيين والبليثيين الذين يبدو أنهم من الفلسطينيين، إلا أنه يزعم أنه استخدم الغاليين، كما استخدمت اسرائيل لأول مرة قوة من العجلات الحربية.

وكان الاسرائيليون والكنعانيون فى المنطاق الجبلية شعبا واحدا فى ذلك الوقت. والواقع أن يهوه غالبا ما كان يطلق عليه اسم «بليعال»، الا أن داود كان قد غزا أقاليم أخرى وعمل على تشجيع سكانها على الاندماج فى بنى إسرائيل. وكان من بين أتباعه أهيملش الحيثى، ودعيل الأدومى، وأوريا الحيثى. وقد احتفظ الفلسطينيون باستقلالهم الا أنه كان يسرهم أن يعملوا جنودا مرتزقة فى جيش داود، ولم يستوطن بنو اسرائيل المناطق التى فتحت ـ آدوم ومؤاب ودمشق.

وكان نهوض اسرائيل المفاجىء «إلى هذه المكانة السائدة بين جيرانها داعية لتحول بنى اسرائيل، فقد تقدموا الى دمشق وآدوم بعد أن كانوا من قبل جماعة من القبائل الجبلية المتخلفة. وجاء المواطنون من دمشق وآدوم الى أورشليم لتقديم

(١١) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ١٤/٨.

ولائهم كما توغل داود أيضا خمسين ميلا على الساحل جنوب حيفا حيث يمتد طريق التجارة الرئيسى من دمشق إلى مصر[١٢].

ودائما ما كان الشرق الأوسط يستمد جانبا من ثروته من التجارة العابرة من المحيط الهندى الى البحر الأبيض المتوسط، وكان هناك تجارة رابحة أخرى هى تجارة البخور المستوردة عن طريق قوافل الجمال من اليمن الى مصر وسوريا. وقد أتاحت السيطرة عل آدوم الفرصة لداود ليفرض مكوس التجارة العابرة على هذ البضاعة النادرة.

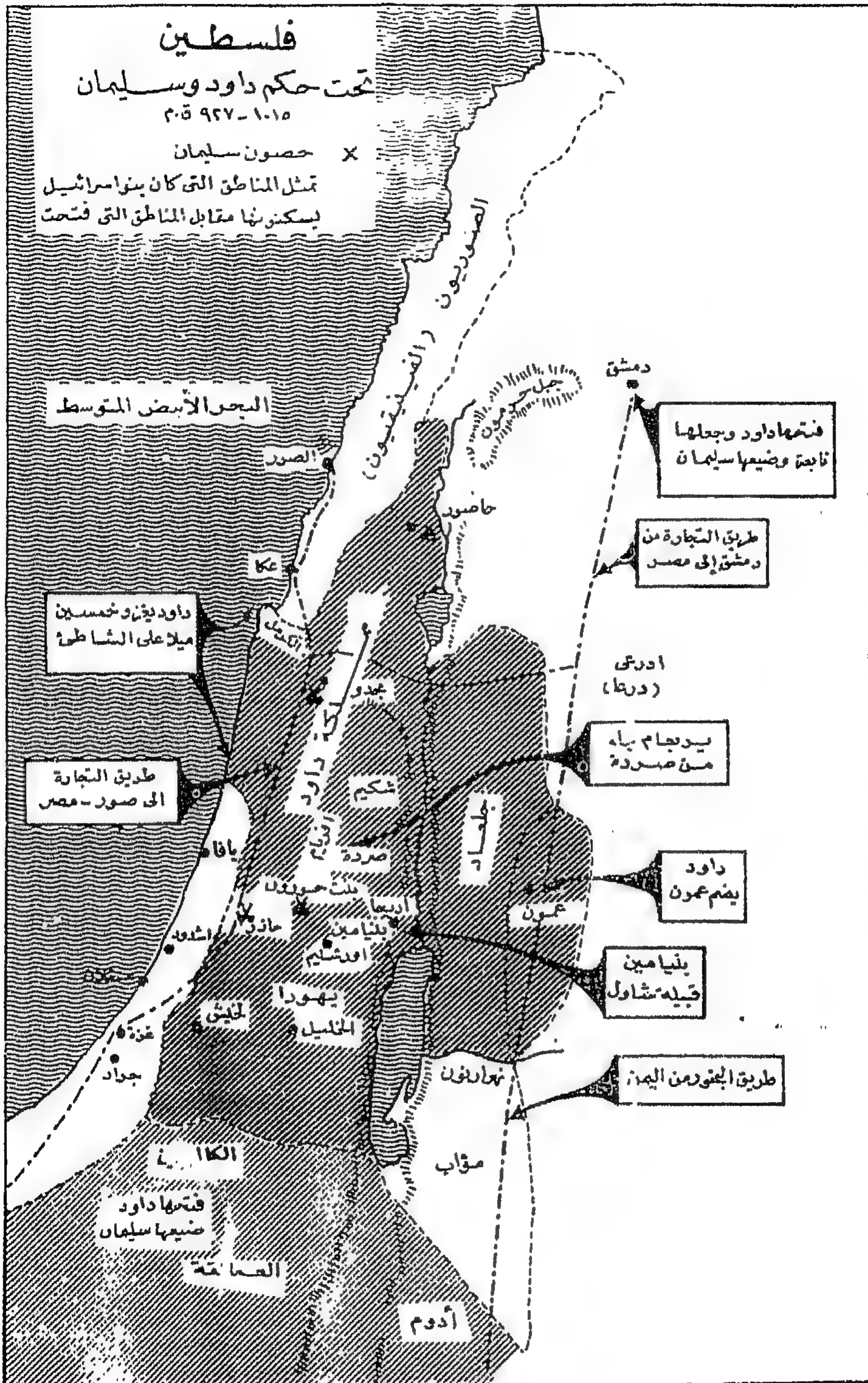
وكان حكم داود بالنسبة لإسرائيل نهاية المرحلة العسكرية فى تاريخها، ولكن الكراهية المريرة التى سادت بين أفراد آل داود شوهت الأمجاد الخارجية ، إذ اعتدى إبنه امنون على عفاف أخته تامار شقيقة أخوه أبشالوم وقام أبشالوم وقتل أمنون ثم ثار بعد ذلك وحاول أن يقتل أباه[١٣]. وانتهى الأمر بقتل أبشالوم، إلا أن هذه المعاداة الداخلية أطلقت الزناد لثورة أخرى أشعلها هذه المرة شبع بن بكرى البنياميني وهو من قبيلة شاؤل. وقد صرخ شبع قائلا: «ليس لنا قسم فى داود، ولا لنا نصيب فى ابن يسى. كل رجل الى خيمته يا إسرائيل. فصعد كل رجال اسرائيل من وراء داود الى وراء شبع بن بكرى. أما رجال يهودا فلازموا ملكهم من الأردن الى أورشليم»[١٤]. وهكذا ظهر على حين فجأة أن اتحاد اسرائيل الذى حققه داود كان اتحادا سطحيا. وينبئنا سفر صموئيل الثانى الاصحاح الحادى والعشرون كيف كان هناك قحط تسبب عن عدم سقوط الأمطار، وكيف استعلم داود من يهوه، فأخبره بأن السبب فى ذلك يرجع الى أن شاؤل قتل الجعبونيين الذين حلف لهم بنو اسرائيل، وقد سبق أن ذكر أن الجعبونيين كانوا قد تحالفوا مع اسرائيل منذ

---

(١٢) خريطة (٦).

(١٣) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٤/١٧

(١٤) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٢٠/ ١، ٢.


فلسطين
تحت حكم داود وسليمان
١٠١٥ - ٩٢٧ ق.م
حصون سليمان
تمثل المناطق التى كان بنو اسرائيل يسكنونها مقابل المناطق التى فتحت
البحر الأبيض المتوسط
الصور
عكا
حاصور
دمشق
فتحها داود وجعلها تابعة وضمها سليمان
طريق التجارة من دمشق إلى مصر
داود يمنح خمسين ميلا على الشاطئ
طريق التجارة الى صور - مصر
يافا
شكيم
صردة
يربعام يأتى من صردة
داود يضم عمون
عمون
أورشليم
يهوذا
الخليل
بنيامين قبيلة شاول
طريق البخور من اليمن
مؤاب
أدوم
فتحها داود ضمها سليمان
غزة
جرار

خريطة (٦)

عهد يشوع، ويخبرنا السفر أن داود سألهم ماذا أفعل لكم وبماذا أكفر؟. فطالبوا برأس سبعة من ذرية شاؤل، فقدم داود سبعة من أبناء شاؤل وأحفاده الى الجعبونيين صلبوهم على ربوة مرتفعة خارج قريتهم[١٥]. فهل لنا أن نصدق أن إله المحبة أصر على موت هؤلاء الرجال السبعة الأبرياء؟ أم أن داود أراد أن يتخلص ممن بقى من أسرة شاؤل».

وحتى فى الأيام القليلة الأخيرة لداود مزقت الكراهية والغضاء الأسرة المالكة شر ممزق، حيث حاول أدونيت إبن حجيت وهو أخ لأبشالوم القيام بانقلاب فسارع داود الى المناداة بسليمان خليفة له، وجلس سليمان على العرش يشد أزره المرتزقة الأجانب. ويلح داود، من فراش موته، على سليمان أن يقتل يوآب، وما أن مات داود (من ٩٧٠ ـ ٩٦٠ قبل الميلاد) حتى عمل سليمان على اغتيال أخيه الأكبر أدونيا هو وبعض منافسيه الخطرين، وكان يوآب واحدا منهم.

وكما هى حال فى معظم الأمم تلى المرحلة العسكرية فى عهد داود طور تجارى فى فترة حكم سليمان. لقد كان سليمان يريد السلام، وقد سعى اليه عن طريق الزيجات الأجنبية ، وكان أبرز زوجات سليمان إبنه أحد الفراعنة الضعاف من الأسرة الحادية والعشرين المصرية.

وكانت «صور» (لبنان الحديثة) أخلص حلفاء سليمان، تمتد جنوبا الى جبال الكرمل، وكان اسمها الاغريقى فينيقيا، إلا أن شعبها كان يطلق على نفسه اسم الصوريين ومن الأرجح أنهم كانوا من أصل يونانى مختلط، وكانوا بحارة مهرة يتاجرون مع كل حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانوا فى ذلك الحين يقيمون وينشؤن مستعمرات لهم فى قبرص وسردينيا وصقلية وشمال أفريقية.

---

(١٥) سفر صموئيل الثانى الاصحاح ٢١ يقول «أنهم خوزقوا»، بينما فى النسخة المنقحة المعترف بها «أنهم شنقوا» ٠ المترجم).

وقد عرف سليمان أن أولئك الذين يريدون السلام ينبغي لهم أن يستعدوا للحرب، ففي حين اعتمد داود في المقام الأول على مشاته من الجنود المرتزقة، بنى إبنه قوة كبيرة من العجلات الحربية، كما شيد سليمان كثيرامن الحصون والقلاع حول الجزء الجبلي من إسرائيل، أي في حاصور ومجدو وبيت حورون وجازر[١٦]. وكانت حاميات هذه القواعد من جيش يدفع له أجره بانتظام، ويبدو أن سليمان لم يستدع للخدمة قط الحشود القبلية القديمة.

وسرعان ما ثارت دمشق واستعادت استقلالها، وأخذت الأقاليم التي كان يحكمها داود في الانكماش، وكان انكماشا بطيئا ولكه كان أكيدا، وكان اهتمام سليمان بالتجارة والصناعة أشد كثيرا من اهتمامه بالحرب، وقد تناول نشاطه عملية شراء الخيول من آسيا الصغرى وبيعها في مصر. وامتد طريق رئيسي للتجارة من دمشق عبر ادرعي (درعا) الى وادى ازدريلون فوق التلال القريبة الى مجدو ثم ينزل من الجبال ليسير على امتداد ساحل فلسطين الى مصر[١٧]، كان قطاعا طويلا من هذه الطريق يمتد عبر الأراضي التي يسيطر عليها سليمان، زد على ذلك، أن صداقة سليمان لصور التي بها أكبر موانيء العالم التجارية، جلبت له كثيرا من الأعمال التجارية، وكرست القبائل الشمالية نفسها للتجارة أكثر فأكثر، ولكن لم تتأثر يهودا كثيرا مثل الشمال.

وقد أحكم سليمان السيطرة على آدوم وجنوبا الى الخليج المعروف الآن باسم خليج العقبة، وكان له أسطول تجارى يجوب البحر الأحمر ويعمل عليه بحارة صوريون. وعلى مقربة من عصيون جابر[١٨] استغل سليمان المناجم وصهر النحاس، وربما الحديد. وأصبح سليمان على درجة كبيرة من الثراء، وإن صاحب هذا الثراء ارتفاع في نفقات المعيشة وارتفاع في الأجور.

---

(١٦) خريطة (٦).

(١٧) خريطة (٦).

(١٨) خريطة (٢).

وكان من نتائج سيطرة سليمان على العقبة أن تمكن من فرض رسوم عالة عل قوافل البخور اليمنية. وربما كان الغرض من الزيارة الشهيرة التى قامت بها ملكة سبأ هو الاحتجاج على المطالب الجائرة للمسئولين الاسرائيليين. واذا كانت فطنة الملك فى إدارة الأعمال التجارية قد جبلت له أموالا طائلة، فإن تبذيره وحبه للظهور كلفه أكثر مما يجب. وكان الهيكل أشهر المبانى التى شادها، وقد بناه على طراز سرابيت الخادم. كما كان هناك مبنى صغير مكعب الشكل أطلق عليه اسم قدس الأقداس. وكان الهيكل واحدا من بين عدد من المبانى أقيمت فى الجناح الملكى الذى كان يضم عدة قصور وترسانة للسلاح. ولكى ينفذ سليمان كل أعماله البنائية استخدم عمال السخرة من «جميع أنحاء اسرائيل»[١٩]، أى كما كان يفعل رمسيس الثانى فى مصر. وعلى الرغم من استخدام عمال السخرة فقد غرقت البلاد فى الديون واضطر سليمان لبيع عشرين مدينة على حدوده الشمالية لملك صور.

وكان يربعام فتى يافعا من صرده (يحتمل أن تكون سرده الجديدة) الواقعة على بعد أحد عشر ميلا شمال أورشليم. ولما كان على قسط كبير من التعليم فقد عهد اليه سليمان بوظيفة ملاحظ عمال السخرة فى الهيكل، وشهد الظلم الذى حاق بالفقراء والمفترض أنه اتهم بالتحريض والاثارة وصدرت الأوامر بالقبض عليه، ولكه تمكن من الهرب الى مصر.

ويلقى العهد القديم اللوم على سليمان للتهاون فى أمور الدين وينسب إليه أنه اتخذ سبعمائة زوجة معظمهن من الدول المجاورة. وقد رغبن فى اقامة المعابد لعبادة آلهتهن، واستجابة لرغبتهن أقام سليمان (أماكن عالية) فوق التلال المجاورة وكان التعبد على قمم المرتفعات مظهرا من مظاهر الديانة السورية الفلسطينية منذ

---

(١٩) سفر الملوك الأول «الاصحاح الخامس / ٢٧».

أمد بعيد. وحتى فى اسرائيل اندمجت عبادة بعل فى عبادة يهوه لدرجة أننا نجد شموئيل يقدم القرابين فى «مكان عال».

والواقع أنه لم يعد نى الإمكان تقييم معنى مصطلح «بنى اسرائيل»، حيث استمر تبادل الزواج حرا مع شعب البلاد على جميع المستويات، «وتوضح المطالعة المدققة للعهد القديم بالذات أن وحدتهم (يعنى وحدة بنى اسرائيل) كانت وحدة جد غامضة سياسيا وعرقيا، فلم يكن دين يهوه دين منطق جغرافية بعينها، بل كان دين الارستقراطية العسكرية والكهنوتية، ولم يكن أبدا الدين الوحيد القائم داخل حدود مملكة بنى اسرائيل»[٢٠]، إلا أننا إذا كنا لا نستطيع أن نعرف من هم بنو اسرائيل، ولانستطيع أن نفصلهم عن الجماعات الأخرى فكيف كانوا، والأمر كذلك، الشعب المختار الذى يختلف عن كل ما سواه؟

* * *

توفى سليمان حوالى سنة ٩٢٧ قبل الميلاد، واستطاع أن يرفع دولته الى مستوى عال من الثراء، إلا أنه لكى يحقق ذلك ظلم الشعب ظلما فادحاً، ولذا فقد تبع وفاة ملك بنى اسرائيل إنفجار الثورة.

تواريخ تستحق الذكر

حكم داود حوالى ١٠٠٠ إلى ٩٦٧ قبل الميلاد.

حكم سليمان حوالى ٩٦٧ الى ٩٢٧ قبل الميلاد.

خاتمة

١ ـ حكم داود وحكم سليمان نموذجان من تطور الشعوب البدائية من الحرية القبلية الى الحكم الملكى المطلق ومن الحياة العسكرية الى الحياة التجارية.

---

(٢٠) جى. باركس «النزاع بين الكنيسة والمعبد اليهودى».

٢ ـ تغطى هذه الحقبة تغييرات اجتماعية عميقة الجذور، تتمثل فى زيادة الرفاهية وظلم الفلاحين. ومن الناحية السلالية اندمج المنحدرون من رعاة سيناء مع شعب البلاد. ومن وجهة النظر الدينية كانت عبادة يهوه هى الدين الرسمى للدولة إلا أن الناس كانوا يمارسون جميع أنواع المزج مع الديانات المحلية الأخرى.

٣ ـ كانت الأسرة الملكى فاسدة تماما، فأبناء داود يغتال أحدهم الآخر، أو يعصى ويثور، وقد قتل سليمان كل إخوته.

إن البشرية التعسة تبنى فى خيالاتها بصفة دائمة عصورا ذهبية فى الماضى والمستقبل لتتخلص من آلام الحاضر. وهكذا كان حكم داود وحكم سليمان يمثلان الأيام المجيدة، إلا أن واقع الأمر، هو أن حكم داود كان سلسلة ممتدة من الثورات والحروب والاغتيالات. وفى أواخر عهد سليمان كانت الدولة تغلى بالثورة التى انفجرت بعد موته مباشرة.

الفصل الخامس
التفسخ والأفول

«لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى...

بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى...

فأنا أيضا أضحك عند بليتكم..

أشمت عند مجىء خوفكم..

لأن ارتداد الحمقى يقتلهم..

وراحة الجهال تبيدهم..

أما المستمع لى فيسكن آمنا..

ويستريح من خوف الشر..»

(الأمثال الاصحاح الأول / ٢٤ إلى ٣٣)

بَطُل فرح الدفوف..

انقطع ضجيج المبتهجين..

بَطُل فرح العود..

دمرت قرية الخراب..

أغلق كل بيت عن الدخول..

صراخ على الخمر في الأزقة. غَربُ كل فرح..

انتفى سرور الأرض..

الباقى فى المدينة خراب..

وضرب الباب ردما...

(إشعياء الاصحاح الرابع والعشرون/ ٨ إلى ١٢)

الفصل الخامس

«سقط شاؤل وسقط داود، وسقط سليمان، ووضعت الملكية والملوك فى الميزان فبان العجز. والقصة منذ وفاة سليمان ونهاية مملكة اسرائيل الموحدة قصة حزينة مزرية للفساد والتآمر والحرب والرشوة، حتى تحطمت آخر الأمر إسرائيل مع حطام أورشليم، ولما تنقض خمسمائة سنة على رسامة شاؤل أول ملك لها، حتى دفعت إسرائيل ثمن لعبها بسياسة القوة، وتقليدها السلوك الوضيع للأمم، واختيارها الخاطىء للحضارة بدلا من الدين، وهى بهذا كانت لاتختلف كثيرا عن أى من الولايات الصغرى التى ترنحت من أزمة الى أخرى فى عالم البحر الأبيض المتوسط القديم.. بل إن ظهور «حزقيال» و«هوشع» لم يكن ليكبح رعونة الشعب الذى «أسلم أمره لقيادة خاطئة، وفشل فى أن يدرك أن السعى وراء الثروة والصيت والسطوة والأمن الزائف الذى تجلبه هذه الأمور لم يكن ليمهد السبيل التى كان ينبغى «لشعب الله» أن يسلكها.. إلا أن بنى اسرائيل كانوا شعب الله، شعبا له دعوة، وله رسالة»[1]. إن هذه العبارة، كلها من أولها لآخرها، تبدو وكأنهاتلخيص موجز لتاريخ اسرائيل القديم.ة فقد كانت مجرد ولاية صغيرة ناشئة تترنح من أزمة إلى أزمة، مثلها مثل أى دولة أخرى من الدول، التى قامت ثم سقطت، وقد أسلمت أمرها لقيادة مخطئة وفشلت فعلا فى أن تدرك أن الجرى وراء الثروة والصيت والسلطان يشترى إحساسا زائفاً للأمن.

أن قصة الثورة ضد رحبعام قصة معروفة، وهى مصورة فى أروع صورة فى سفر الملوك الأول الاصحاح الثانى عشر. فعلى غرار ما حدث فى ثورة شبع بن بكرى ضد داود كان الثوار يطلقون أصواتهم قائلين «كل رجل الى خيمته يا إسرائيل» بما يوحى بأن أغلب بنى اسرائيل كانوا لايزالون من سكان الخيام.

---

(١) ويليام نيل، «تعليق على الكتاب المقدس».

وقد عاد يربعام من مصر واختير حاكما للملمكة الشمالية. ويشبه هذا الحادث ما يحدث فى عصرنا الآن، فما أكثر ما شهدنا الزعماء الشعبيين الساخطين على حكامهم يطلبون اللجوء السياسى فى مصر، ليرجعوا بعد قليل ويصبحون حكامها المطلقين.

وقد ظلت يهودا مخلصة لآل داود الذين كانوا قبل كل شيء عشيرة فى نفس قبيلتهم. ولقد رأينا من قبل أن يهودا كانت تختلف كثيرا عن القبائل الشمالية منذ بداية التاريخ، كما كانت منطقة يهودا منطقةجبلية جرداء وظل كثير من سكانها رعاة بسطاء.

وقد كانت المملكة الشمالية قبل الغزو أكثر انتاجا وتستطيع أن تأوى عددا أكبر من السكان الكنعانيين، وهؤلاء لم يقتلهم الاسرائيليون، وبعد مضى مائتى سنة اندمج بنو اسرائيل فى الكنعانيين وصار يهوه الى درجة كبيرة يتطابق مع الإله بعل.

ولقد تأكد التباين بين اسرائيل ويهودا، بصورة أكبر، فى عهد سليمان عندما فتحت الدولة أبوابها لدولتى صور (لبنان) وسوريا الأكثر تمدينا، وأخذت شعوب القبائل العشر الشمالية دورا متزايدا فى الأعمال التجارية. وعندما قتل آخاب سنة ٨٥٠ قبل الميلاد كان الأمر الذى صدر للجيش «كل رجل الى مدينته وكل رجل الى أرضه». فلم يعد هناك ذكر لخيام بنى اسرائيل فقد تم امتصاص الاسرائيليين الشماليين فى حياة سوريا التجارية الحضارية.

وكان على يربعام أن يواجه كثيرا من المشكلات، حيث استطاعت الدعاية الملكية طوال سبعين سنة أن تقنع كثيرا من الناس بأن أورشليم هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يعبد فيه يهوه، كما أن الصلوات فى الهيكل الملكى كانت تتضمن الاشارة الى عهود يهوه ومواثيقه الدائمة مع آل داود.

لذا أقام يربعام المعابد فى الشمال (فى بيت إيل وفى دان) كى يقصدها الحجاج وكان له ما يبرره فى ذلك العمل، فقد انقضت ثلثمائة عام منذ الغزو ولم تتبوأ أورشليم مكانتها كمدينة مقدسة إلا فى الأعوام الخمسين الأخيرة.

على أنه ينبغى لنا أن نتذكر دائما أن العهد القديم أعيدت كتابته بأيدى كهنة أورشليم عندما زالت دولة اسرائيل، ومع أنهم ضمنوه بعض مواد من الشمال - ما أطلق عليها إسم الرواية الايلوهيمية - فإنهم كانوا أحرارا فى نبذ أية مادة لاتروق لهم، وبالتالى كانوا قادرين على تحريف القصة كلها. بل إن من الباحثين من يعتقد أن بعض المزامير استعاره كهنة أورشليم من طقوس العبادة الكنعانية. وعموما كان الموقف كله مائعا لدرجة يصعب معها التوصل الى تمييز واضح وصارم.

* * *

وكانت المملكة الشمالية غير مستقرة، حيث خلف يربعام ابنه ناداب الذى اغتيل فى نفس السنة على يد «بعشا» (٩٠٠ - ٨٧٧ ق.م) الذى نصب نفسه حاكما. وخلف «بعشا» إبنه «أيلة» (٨٧٧ - ٨٧٦ ق.م) الذى قتله زمرى بعد بضعة أشهر. وفى خلال أسبوع وقع انقلاب عسكرى آخر ترتب عليه أن إعتلى عمرى (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) وهو رئيس الجيش العرش.

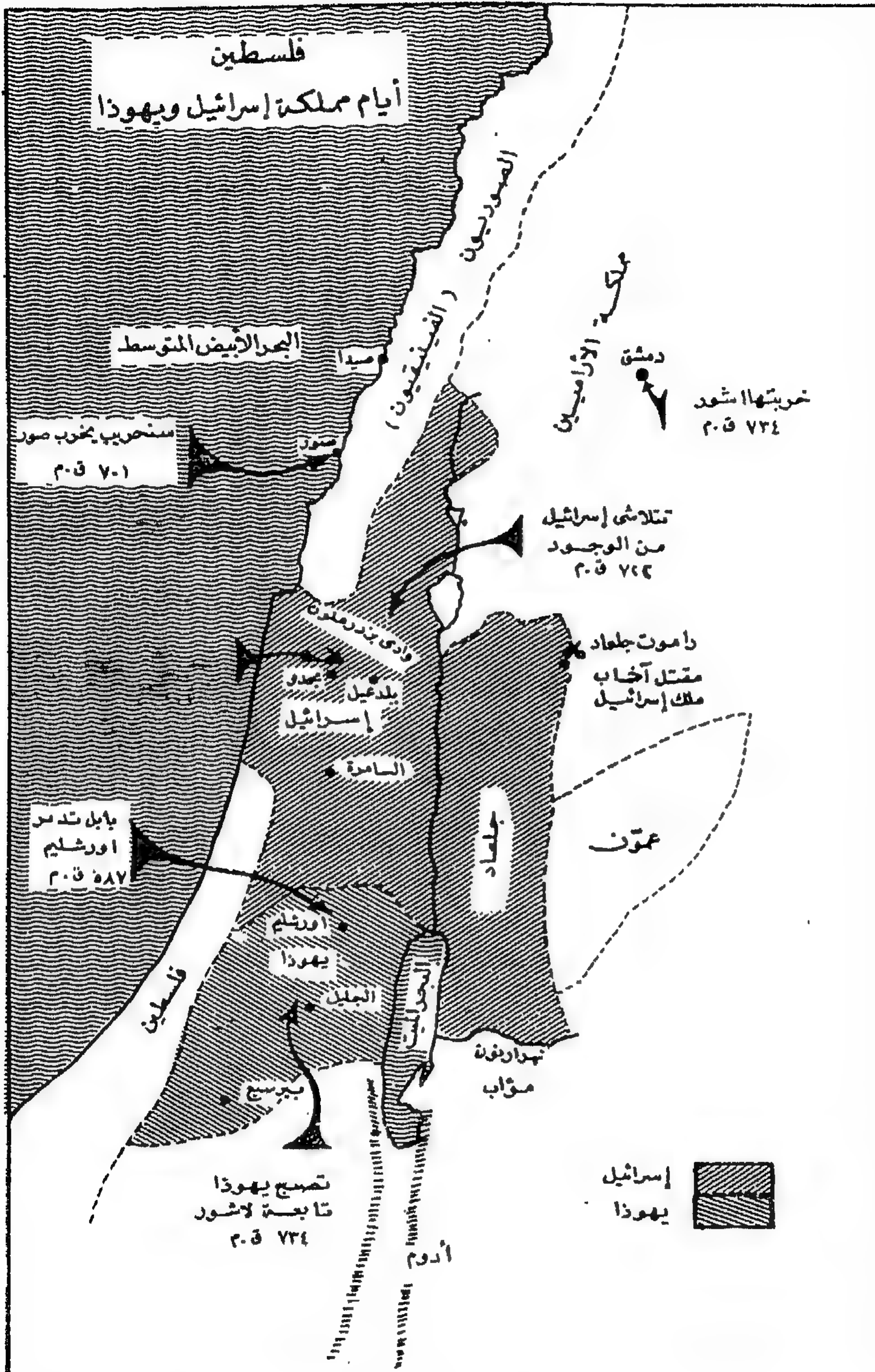
وكان عمرى رجلا يتميز بمقدرة فائقة، إلا أن فترة السنين الاثنتين والسبعين التى مرت تحت نير الملكية الطاغية من عهد يربعام الى عهد عمرى كانت خليقة بأن تنزل اسرائيل، الى درجة من الوهن والضعف، حتى لقد أصبح ملك دمشق هو الحاكم صاحب النفوذ فى سوريا. وكان أساس سياسة عمرى قائما على التحالف مع صور التى كانت فى ذروة ازدهارها التجارى وكانت مستعمرتها فى قرطاجنة ستقام بعد سنوات قليلة. واذ كانت صور تعيش على التجارة فيما وراء

البحار فإنها كانت تشترى الحاصلات الزراعية من اسرائيل. وقد دعم عمرى التحالف مع صور بأن عقد قران إبنه آخاب على إيزابل ابنه أثعبل ملك الصيدونيين كما تصالح مع يهودا. بعدئذ اشتركت صور واسرائيل ويهودا فى مقاومة دمشق. وقد مكن الصلح بين يهودا واسرائيل الدولتين من الشروع فى حملات محلية، فأكدت يهوذا سيادتها المفقودة على آدوم وأجبرت اسرائيل مؤاب على دفع الجزية، إلا أنه سرعان ما طغى الخوف من آشور على هذا التنافس. ففى حوالى سنة ٨٧٤ قبل الميلاد غزا أشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م) سوريا الشمالية ووصل الى البحر الأبيض المتوسط. وفى عام ٨٥٩ ق.م. عاد شلمناسر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق.م) الى سوريا، إلا أن حمات (حماة الحالية) ودمشق واسرائيل وعمون اتحدت جميعا للوقوف فى وجهه، ووقعت سنة ٨٥٣ ق.م. معركة ممتدة فى «قرقر» على نهر العاصى انسحب الأشوريون على إثرها.

وقد ازدهرت اسرائيل وزادت ثروتها زيادة سريعة تحت حكم أخاب الذى زقام عاصمة جديدة لملكه فى السامرة وبنى قصرا آخر فى جرزيم[٢]. على بعد خمسة وعشرين ميلا. إلا أن التحول من الزراعة الى التجارة كان حريا أن تترتب عليه العواقب المعتادة، فأصبح رجال الأعمال على درجة كبيرة من الثراء بينما زاد الفقراء فقرا وعاش الأغنياء فى بذخ واشتروا بفضل الأرباح الطائلة من التجارة مزارع زراعية شاسعة، وتخلصوا من صغار المزارعين وأصبح السكان الزراعيون عمالاً أجراء. وكانت هذه الأحوال التى تناقض الحلم الاسرائيلى فى الحرية والمساواة، داعية لقيام عدد من «الأنبياء» الذين أنكروا رذائل ذلك العصر. وكان واحدا من أوائل الأنبياء «ايليا». ويعزو سفر الملوك الأول معارضة إيليا لآخاب وايزابل لأن إيزابل اتخذت البعل إلها. ويتملك المرء الفزع إذا ما قرأ قصتهما.

---

(٢) خريطة (٧).


فلسطين
أيام مملكة إسرائيل ويهوذا
البحر الأبيض المتوسط
صيدا
صور
سنحريب يخرب صور
٧٠١ ق.م
دمشق
خربتها آشور
٧٣٤ ق.م
تتلاشى إسرائيل
من الوجود
٧٢٢ ق.م
راموت جلعاد
مقتل آخاب
ملك إسرائيل
مجدو
إسرائيل
السامرة
بابل تدمر
اورشليم
٥٨٧ ق.م
أورشليم
يهوذا
جلعاد
عمون
البحر الميت
بيرسبع
تصبح يهوذا
تابعة لآشور
٧٣٤ ق.م
مؤاب
أدوم
إسرائيل
يهوذا

خريطة (٧)

كان ايليا التشبى مواطنا من شرق الأردن، ولم يكن من السامرة ذات البذخ والثراء. وكان مخلصاءتماما فى عبادة يهوه مؤمنا يذبح أعدائه[٣] ولما طاردته ايزابل هرب الى سيناء، وتلك واقعة لها مغزاها، لأن سيناء كانت مهد التقاليد القبلية القديمة المتحررة، وفى هذا المقام لاقى ايليا تجربة روحانية حيث سمع صوتا منخفضا خفيفا دعاه الى القيام بواجبه.

وحوالى سنة ٨٥٠ ق.م قتل آخاب فى معركة مع ملك دمشق عند «راموت جلعاد» (رمتا الحالية)[٤]. وعلى الرغم من التهديد المتزايد بالغزو الآشورى فقد ظل هؤلاء السوريين النموذجيين يحارب بعضهم بضعا. وخلف «آخاب» ابنه يهورام الذى قتل بعد ثمانية أعوام فى انقلاب عسكرى قام به ضابط من ضباط الجيش اسمه «ياهو»، وقد اشترك «اليشع» فى المؤامرة التى دبرت فى الظاهر ضد انغماس البلاط الحاكم فى الملذات وضد نفوذ صور[٥]، ونجمت عنها مذابح جماعية رهيبة.

وكان رئيس الركابيين على علم بهذه المؤامرة[٦]، والركابيون عشيرة من الرعاة الرحل رفضت التخلى عن خيامها والاشتغال بالزراعة أو تناول الخمر والانهماك فى الملذات، وبقيت على عهدها رعاة، لأنها آمنت بأن دين يهوه الحقيقى لايمكن الحفاظ عليه إلا فى ظل الحياة البدوية. ولعل مما يستحق الاهتمام أن نقارن هذه العبارة بتلك التى رفض يهوه بموجبها أن يسمح لداود بأن يبنى له منزلا حيث يقول «لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى اسرائيل من مصر الى هذا اليوم، بل كنت أسيرا فى خيمة وفى مسكن»[٧].

---

(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح ١٨/٤٠.

(٤) خريطة (٧).

(٥) سفر الملوك الثانى الاصحاح ٩، ١٠.

(٦) سفر الملوك الثانى الاصحاح العاشر/ ١٥ إلى ١٧.

(٧) سفر صموئيل الثانى الاصحاح السابع / ٦.

ويمتدح سفر إرميا الاصحاح الخامس والثلاثين حياة الركابيين ويسوقهم مثلا ليهودا، مع أنهم لم يكونوا من بنى اسرائيل، بل كانوا من القينيين الذين ربما عبدوا يهوه قبل أن يعبده موسى، ومع كل فإن من المثير جدا للانتباه أن الروحانية الأخيرة للديانة اليهودية لم تأت عن طريق هؤلاء الأتقياء الورعين، بل جاءت عن طريق انهيار المتحضرين والأثرياء وعن طريق النظرة الدينية الجديدة التى انبثقت عن الكارثة.. وإذا كان لنا أن ندرك معنى العهد القديم، بدلا من القول بأن الله هو الذى كيف كل كلمة من كلماته، فإننا نستطيع أن نرى الدروس التاريخية والدينية واضحة على كل صفحة من صفحاته.

وبعد ذلك كان انحدار اسرائيل الى الدمار سريعا، فبعد أن انتعشت تحت حكم يربعام الثانى (٧٨٣ ـ ٧٤٣ ق.م) وقعت سلسلة من الانقلابات العسكرية أدت إلى الفوضى، وعلى الرغم من ذلك فإن اسرائيل ودمشق هاجمتا يهودا التى استنجدت بآشور. وفى سنة ٧٣٤ ق.م. غزا «تجلات بلاسر» سوريا كلها حتى سهل يزرعئيل وبعث بسكان الجليل الأعلى إلى المنفى وجعل ملك يهودا تابعا له كما ضم مملكة دمشق الى آشور.

وحوالى سنة ٧٢٤ ق.م قام شلمناسر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م) بغزو فلسطين واستولى على السامرة. وهكذا بعد مضى مائتا سنة زالت المملكة الشمالية من الوجود ونفى سكانها فأرسل بعضهم إلى شمال العراق وأبعد البعض الآخر إلى بلاد الفرس حيث ذابوا فى السكان المحليين، وأحضر محلهم خليط من السكان المستوردين. وكانت الجماعات الوطنية المتجانسة عرضة لأن تثور، لذا كانت سياسة الأشوريين تقضى بأن «يخلط» جميع سكان امبراطوريتهم بحيث لاتكون طوائف متجانسة.

***

وقد وقع فى هذ السنوات تطور جدى ذو مغزى عظيم، ألا وهو ظهور الأنبياء ولم يكن هؤلاء الأنبياء من المنجمين الذين يرجمون بالغيب. ولعلنا نطلق عليهم اسم «المصلحين»، فقد كانوا يدعون للرجوع الى حظيرة الله فى الوقت الذى بلغت فيه اسرائيل منتهى الغنى والفساد والتدهور، ونجد فيهم لأول مرة، على الأغلب، موضوعات أخلاقية أصيلة. وتقدم الكتب التاريخية، مثل صموئيل والملوك وأخبار الأيام، صورة طبيعية للعنف واراقة الدماء والكراهية والبغضاء مماكان شائعا فى كافة الدول الصغرى فى الشرق الأوسط قبل مجىء المسيح بألف سنة. وكان ظهور الأنبياء فى ذروة فترة التفسخ مشجعا للغاية حيث كان تحت سطح القسوة والقتل يوجد التقدم الروحى الهادىء يمضى قدما. وماكان الأنبياء بقادرين على أن يحولوا دون تفتت المجتمع الاسرائيلى، الا أن كلماتهم ما فتئت تتردد على الأسماع بعد وقوع الكارثة مما أدى الى التقدم فى التفكير الروحانى الذى غير وجه العالم.

أرجعوا إلى الله بعونه

وتواصوا بالعدل والمرحمة

ثقوا فى الله..

وهل قال افرايم نعم، ولكننى أصبحت غنيا

وجعلت نفسى ثريا؟

لكن يوشع لم يدع الى الرجوع الى الله وحسب، بل أنه وعد أيضا بأن الله سوف يغفر ويصفح:

سوف أغفر لهم عدم أخلاصهم

ولسوف أحبهم من كل قلبى

بعد أن زال عنهم غضبى[8]

* * *

ومنذ وفاة سليمان إقتصر تعقيبنا على القبائل الشمالية العشر، حيث كان الموقف فى يهودا أبسط من ذلك لأن، أولا، أرضها كانت أفقر، ولأن كثيرا من رجالها ظل يعمل بالرعى، أى كالعمل الأصلى لعبدة يهوه، وثانيا، لم يكن هناك طريق للتجارة الدولية عبر يهودا بحيث يجلب اليها التجار الأغنياء والأفكار الأجنبية، وثالثا، كان هيبة داود واحترام الناس له الذى بقى حيا فى الصدور سببا فى توفير ملكية مستقرة.

وفى الحقيقة جلب حكم داود وسليمان المال إلى أورشليم وكان سببا فى ايجاد «مستوى معيشة مرتفع»، إلا أنه عندما صارت أورشليم عاصمة لمملكة يهودا الصغيرة تبدل الموقف الى ما صار عليه، واحتفظت يهودا بقبضتها على جزء من «آدوم»، وهو إقليم فقير ليست له تأثيرات إفسادية. وكان هناك فترات من التراخى الدينى أعقبتها فترات من الإحياء على غرار ما حدث فى عهد «حزقيا». وشيئا فشيئا دب الفساد فى يهودا، الا أن تلك العوامل أتاحت لها أن تبقى نحو مائة وخمسة وثلاثين عاما بعد زوال المملكة الشمالية. وكان «آحاز» ملك يهوذا (٧٣٥ ـ ٧١٥ق.م) قد أصبح، كما رأينا، تابعا للآشوريين وكان مجبرا على تقديم ولائه إلى «تجلات بالأسر».

ويصف «إشعيا» الفوضى فى ذلك الوقت مشيرا الى يهودا فيقول:

وامتلأت أرضهم ذهبا وفضة.

ولا نهاية لكنوزهم،

---

(٨) جى. بى. فيليبس «أربعة أنبياء».

وامتلأت أرضهم خيلا

ولا نهاية لمركباتهم.

وامتلأت أرضهم أوثانا.

ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه وكل رجل جاره

يتمرد الصبى على الشيخ

والدنىء على الشريف

شعبى ظالموه أولاده

ونساء يتسلطن عليه[٩]

ولعل مما يسترعى الانتباه أننا نلحظ أن إشعيا، يستشهد بدلالتين على الانحلال الاجتماعى هما: ثورة الشباب ومشاركة النسوة فى الحكم. وفى سنة ٧١٥ ق.م أصبح حزقيا ملكا على يهودا وبدت بارقة أمل فى التخلص من الخضوع لآشور، وكان الأنبياء قد أرجعوا سقوط اسرائيل الى هجرها يهوه، وقد يؤدى إصلاح دينى إلى انقاذ يهودا. وكانت بابل قد ثارت ضد أشور، وكان سرجون الثانى فى حرب مع ميداس ملك فريجيا[١٠]. وكانت الحروب الأهلية قد مزقت مصرا إلا أن الأسرة الخامسة والعشرين قامت سنة ٧١٦ قبل الميلاد[١١]، وكان سكان يهودا يؤملون فى التلاعب بالسياسة بحيث يضعون مصر وأشور فى مواجهة بعضهما.

---

(٩) سفر إشعياء الاصحاحين الثانى والثالث. ترجمات مختلفة.

(١٠) خريطة (٨).

(١١) جون برايت، «تاريخ اسرائيل».

وبتشجيع من مصر ثارت صور ويهودا وجزء من فلسطين على آشور عام ٧٠١ قبل الميلاد. وفى عام ٧٠١ ق.م جاء سنحاريب وحطم صور التى لم تسترجع بعد ذلك مكانتها، ثم تقدم الى سهل فلستيا محطما فى طريقه عددا من مدن يهودا، وبناء على نصيحة إشعيا طلب حزقيا الصلح فوافق سنحاريب، إلا أنه زاد الجزية. وضم عددا من مدن يهودا الى فلسطين(١٢).

وبعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاما، أى حوالى سنة ٦٨٨ ق.م عاد سنحاريب الى يهودا. ومن الأرجح أن يكون المشهد الشهير فى سفر الملوك الثانى الاصحاح الثامن عشر/ ١٧ ـ ٣٥ صورة لهذه المناسبة، ولكن خرجت ملائكة يهوه اليه، وضربوا ١٥٨ ألفا فى معسكر الأشوريين»(١٣). ويذكر هيرودوت ذلك الحادث فيقول، أن طاعون الفيران إجتاح الاشوريين، وسرعان ما أصيب حزقيا هو الآخر بالدمامل ويحتمل أن يكون وباء الطاعون الدملى قد تفشى مرة أخرى.

* * *

وينبغى لنا ونحن فى هذا المقام أن ندخل ملاحظة موجزة عن الأنبياء المعاصرين ونخص بالذكر إشعياء وميخا، فقد تلقىإشعياء تجربة روحانية(١٤)، ولو أنه تلقاها فى عبارة شعرية معاصرة. والحق أنه تصور النداء مرسلا من يهوه، إلا أن نداءات الزب الروحانية لاتعتمد، كما لاحظنا مسبقا، على دقة مفهومنا العقلى.

كانت يهودا تترسم خطى إسرائيل، فالأغنياء يظلمون الفقراء، والقضاة يقبلون الرشوة، وقد تبددت الديمقراطية الحرة النابعة من تقاليد الصحراء القبلية. زد على ذلك، أن يهودا كانت تعانى من وهم معين لم تتأثر به إسرائيل، ذلك لأن

---

(١٢) سفر الملوك الثانى الأصحاح الثامن عشر / ١٣ ـ ١٦.

(١٣) جون برايت، (تاريخ اسرائيل).

(١٤) سفر إشعياء، الاصحاح السادس.

الإمبراطورية الأشورية والبابلية

نبوخذ نصر يهزم الفرعون نخوشو ٦٠٥ ق.م

بحيرة فان

بحيرة ارميا

بحر قزوين

الميديون

فرقميش

الجزيرة

نينوى

تستولي ميدي وبابل على نينوى

البحر الابيض المتوسط

قبرص

حماه

نهر الفرات

يقتل الفرعون نخو يوشيا ملك يهودا

دمشق

السبي الاسرائيلي ٧٢٢ ق.م

السامرة

اورشليم

استولى الميديون والفرس على بابل ٥٣٩ ق.م

بابل

نهر دجلة

مصر

منفيس

البابليون يدمرون اورشليم ٥٨٧ ق.م

علام

غزت كل من بابل وانغور مصر ولكن لم تتمكنا من الاحتفاظ بها

فارس

بلاد العرب

البحر الأحمر

نهر النيل

ملاحظة

بعد سقوط نينوى استولت بابل على الامبراطورية الأشورية

الخليج الفارسي

الامبراطورية الأشورية

خريطة (٨)

الدعاية السياسية الملكية كانت قد أشاعت فكرتين: أولاهما، أن أورشليم هى مقر يهوه، ومن ثم فهى لن تقهر، وثانيهما، أن بيت داود سوف يحكم الى الأبد.

ولم تكن هناك مواقف مرتبطة فى التفكير الشعبى بهذين الوعدين حيث شعر الناس بالثقة فى أن يهوه سوف يحمى أوشليم بغض النظر عن فجور العامة. وفى نفس الوقت، صارت طقوس المعبد الدينية مطولة أكثر مما كانت، وأصبحت ملابس الكهنة الرسمية أكثر بهاء، وأضحت القرابين أكثر سخاء دون أن يترتب على كل ذلك أى إصلاح، اخلاقى واستنكر ميخا هذا الموقف استنكارا بالغا فى الاصحاح السادس: إذ يقول:

بم أتقدم إلى يهوه

وأنحنى للإله العلى؟

هل أتقدم بمحرقات لعجول أبناء سنة؟

هل يسر الرب بألوف الكباش؟

بربوات أنهار زيت

هل أعطى بكرى عن معصيتى

ثمرة جسدى عن خطيئة نفى؟

ولكن يهوه يجيب:

قد أخبرك أيها الانسان ما هو صالح

وماذا يطلبه منك الرب

إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة

وتسلك متواضعا مع إلهك.

وقد ابتكر إشعياء، وكان قريب الصلة بالملك، فكرتين لايزال أثرهما ملموسا فى وقتنا هذا. فقد أمن بالعقيدة المعاصرة وبأن يهوه إتخذ مقره فى أورشليم، إلا أن السلوك الدنيوى للعامة وتهديد الأشوريين السياسى، أقنعه بأن لا مناص من وقوع الكارثة، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الاعتقادين المتضادين تناقضا ظاهرا وكان الحل الذى إرتآه أولا. أن الكارثة سوف تنزل وأن يهوه نفسه هو الذى سينزلها مستخدما أشور* لمعاقبة يهودا غير المؤمنة، وثانيا، أن أورشليم، ستبقى مقر يهوه، ولسوف تبقى بقية صالحة، ويقوم وريث من آل داود ليقيم العدل ويحقق النصر، وهكذا نرى بذور عقيدتين إثنتين هما: القدسية الدائمة لأورشليم (أو القدس)، ومجىء المسيح المخلص.

* * *

وتنكر منسى (٦٨٧ ـ ٦٤٢ق.م) بن حزقيا لسياسة أبيه فأصبح تابعا ذليلا لأشور، إلا أن أشور نفسها كانت قد امتدت أكثر من قدرتها، فجددت بابل ومصر الثورة على الآشوريين، وضغطت الشعوب الهندية الآرية المهاجرة، فى الشمال واستقر الميديون بالفعل جنوب بحر قزوين.

وخاض «أشور بنى بال» آخر الملوك الأشوريين العظماء حربا ضارية حتى لقد بدت آشور منتصرة عندما توفى عام ٦٣٣ قبل الميلاد، وبعد انقضاء عشرين سنة على وفاته، أى عام ٦١٢ قبل الميلاد تمكن الحلفاء الميديون والبابليون من الاستيلاء على «نينوى»، وكان فى ذلك القضاء على آشور.

* * *

(*) جاء فى سفر الملوك الثانى الاصحاح العشرون/ ١٦ بأن بابل هى التى ستكون سوط العذاب (المترجم).

وفي عهد الملك «يوشيا» (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق.م) استمتعت يهودا بأخر فترة طيبة، حيث حقق لها انهيار إستقلالها دونما جهد بذلته من جهتها، وفى عام ٦٢٢ ق.م. عثر فى المعبد على كتاب يعتقد بعض الباحثين أنه سفر الشريعة الحالى (التثنية)، ويبدو أن لشعور الذى أحدثه هذا الكشف يدل ضمنا على أن القانون الموسوى كان ملقى فى زوايا النسيان.

والمفترض أن يوشيا، لكى يجتنب البدع الدينية المحلية، منع العبادة فى أى من المعابد المنتشرة فى البلاد، بل أنه قصر إعترافه على كهنة أورشليم، دون غيرهم، أما ما عداهم من الكهنة فى أنحاء البلاد فقد طردوا. وهكذا كان قصر العبادة على أورشليم سببا فى حرمان أهالى المناطق الخلوية من التعبد، حيث أن الوقت لم يكن يسمح لهم بزيارة العاصمة لممارسة نشاطهم الدينى.

وفى عام ٦٠٩ ق.م اكتسح نخو فرعون مصر (٦٠٩ ـ ٥٩٣ ق.م) فلسطين وسوريا ووصل إلى قرقميش[١٥] على نهر الفرات. ولأسباب لانعلمها حاول يوشيا إيقافه عند مجدو، ولكنه قتل، وأبيد جيشه عن آخره، فأصبح ابنه يهوياقيم ملكا تابعا لمصر. وانتهى استقلال يهودا بعد عشرين عام، ونبذت اصلاحات يوشيا الدينية لأنها لم تحل دون وقوع هذه الكارثة.

وفى سنة ٦٠٥ قبل الميلاد انقض «نبوخذ ناصر» ملك بابل على الجيش المصرى فى قرقميش فأباده، وبعد مضى سنة واحدة، أى عام ٦٠٤ ق.م، وصل نبوخذ ناصر إلى فلسطين فحول يهوياقيم ولاءه وأصبح تابعا لبابل. وفى عام ٦٠١ ق.م. قام يهوياقيم بثورة ولكنه توفى عام ٥٩٨ ق.م. وفى عام ٥٩٧ ق.م. وصل البابليون الى أورشليم فاستسلمت لهم، ونفى الملك يهوياكين بن يهوياقيم وكبار المواطنين وجانب من السكان الى بابل، وعين الغزاة صدقيا، عم الملك، ملكا.

---

(١٥) خريطة (٨).

إلا أن الفتنة ما فتئت تمزق يهودا التى ثارت مرة أخرى سنة ٥٨٩ قبل الميلاد، على الرغم من احتجاجات إرميا. وكان سكانها لايزالون على اعتقادهم بأن أورشليم هى مقر يهوه. وفى عام ٥٨٨ ق.م. رجع البابليون وحاصروا أورشليم ومن ثم قاموا بتدمير منظم لكل يهودا مدمرين كل مدينة.

وفى عام ٥٨٧ ق.م. سقطت أورشليم، وسملت عينا صدقيا، وأعدم إبناه، وسويت المدينة بالأرض. ونفى عدد آخر من المواطنين الى بابل، وهرب كثير من سكان يهودا الى مصر، من بينهم «ارميا»، كما فر البعض الى سوريا أو عمون أو موآب، وتركت يهودا محرومة من سكانها.

تواريخ تستحق الذكر

وفاة سليمان	٩٢٧ ق.م.
زوال مملكة اسرائيل الشمالية	٧٢٤ ق.م
زوال يهودا	٥٨٧ ق.م

خاتمة

١ ـ أولئك الذين يعتقدون أن بنى اسرائيل كانوا شعبا فريدا يواجهون مشكلة تعريف بنى اسرائيل، وذلك لأنهم امتزجوا مع شعوب الشرق الأدنى الأخرى خلال وجودهم الذى امتد خمسمائة سنة.

٢ ـ كان يهوه إله الصحراء، وكانت عبادته بالضرورة عبادة مجردة بسيطة، وذلك أيام الرعاة الرحل. وقد عبده بنو اسرائيل الأوائل ولو أنهم اعترفوا بوجود آلهة أخرى غيره.

٣ ـ حتى فى عهد المادية، أخذ الوعاظ الناهضون يعظون تدريجا بأنه ينبغى لله أن يحكم العالم، وأنه يريد الأخلاقيات ولايريد الذبائح.

٤ ـ إنتهت المادية بمأساة، انبثق منها مفهوم أكثر روحانية ووضوحا عن الله.

الفصل السادس

العزلة أو الدولية

« لم ينفصل شعب اسرائيل.. من شعوب الأراضي.. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم. واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي».. فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني.. وبسطت يدي الى يهوه ربي...»

سفر عزرا الاصحاح التاسع/ أجزاء من الايات من ١ ـ ٦

«فغم ذلك يونان غما شديد فاغتاظ. وصلى الى يهوه وقال «فالآن يارب خذ نفسي مني» فقال يهوه «هل اغتظت بالصواب؟. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لايعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة».

سفر يونان الاصحاح الرابع

في كنعان، بطبيعة الحال، ونتيجة للنضال من أجل يهوه ضد الآلهة الآخرين، تركزت مكانة يهوه باعتباره ربا أكثر فأكثر، حول علاقاته باسرائيل. مع أن عاموس يوضح الأمر بصورة مختلفة، إلا أن هذا كان سببا في التوتر الشديد بين ما قد نسميه الاصطفائية والخلاصية*

توماس . سي. فريتسن، «دين اسرائيل القديمة»

* الاصطفائية نظرية لاهوتية تقول بأن الخلاص مقصور على النخبة فقط، بينما الخلاصية تقول بأن الجميع ينعمون آخر الأمر بالخلاص (المترجم).

الفصل السادس

بدى الغزو البابلى فى يهودا كارثة كاملة، حيث سويت المدن كلها بالأرض، وذبح سكانها جميعا، ولم يكن ذلك من قبيل اضطهاد اليهود، بل كانت تلك هى الطريقة التى يعامل بها الأشوريين والبابليون الولايات الثائرة عليهم، وتركت يهودا خربة ومقفرة وغير مسكونة، وأرسلت الطبقات العليا الى السبى فى بابل، وتفرقت البقية فى عمون وموآب وسوريا، وفى مصر بصفة خاصة، فشكلت بذلك بداية الشتات.

وما أن وصل المسبيون الى بابل حتى لقوا معاملة طيبة، فكان لهم مطلق الحرية فى أن يفلحوا الأرض وسمح لهم بمزاولة التجارة وممارسة شعائر دينهم. وكانت الحياة فى بابل أرحب منها فى الجبال الصخرية فى يهودا الضيقة. وبعد اجتياز الحنين الى الوطن ألقى المسبيون بأنفسهم فى خضم الحياة الجديدة، حياة الفرصة السانحة فصار بعضهم واسع الثراء. وكان كثير من سكان يهودا قد فروا الى مصر حيث استقر أغلبهم بالعاصمة ممفيس وتأسست مستعمرة عسكرية يهودية حوالى سنة ٥٨٨ قبل الميلاد فى منطقة فيلة (ألفنتين) عند الشلال الأول على نهر النيل*.

وقد تحطمت المعتقدات اليهودية القديمة، اذ لم يدافع يهوه عن صهيون، ولم يحكم آل داود، الى الأبد، ووجد المنفيون فى مصر وبابل حضارات تفوق حضارتهم بمراحل فأدركوا بعدما عاشوا فى هاتين الامبراطورتين العظيمتين كم كانت يهودا صغيرة. فهل يمكن إذن أن تكون دولة صغيرة كدولتهم محل اختيار الله العظيم.

(*) هناك شكوك كثيرة تحيط بحقيقة الانتماء اليهودى لهذه الحامية التى إستقرت فى ألفنتين وللزميل الدكتور محمد حسن الهوارى أستاذ الديانة اليهودية بآداب عين شمس دراسة علمية تنفى هذا الادعاء نشرها على الانترنت (المترجم).

ويخط إشعيا الذى يظهر أنه عاش فى هذا الوقت، سطرا جديدا يصف فيه يهوه بأنه رب العالمين وخالق الكون[1]. وهكذا من أعماق الكارثة نرى بداية الديانة اليهودية الروحانية. واذ كان اليهود قد حرموا من الهيكل كنقطة جغرافية يلتفون حولها، فقد أصبحت مراعاة الشريعة الدينية هى العلامة المميزة لليهودى[2]. وقد تميز المجتمع اليهودى فى بابل بالنشاط الفكرى العظيم، وأعيدت كتابة أسفار موسى الخمس (الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم) وأدخل سفر اللاويين على التوراة لتسجيل الطقوس الدينية للهيكل الذى دمر.

وبعد وفاة «نبوخذ» ناصر قامت الانشقاقات الطائفية الداخلية فى بابل وتبادلت الأيدى العرش ثلاث مرات فى بحر سبع سنوات. وانتهى الأمر سنة ٥٣٩ قبل الميلاد باستيلاء قورش الفارسى على بابل وامبراطوريتها من أقصاها إلى أدناها. وكان قورش واحدا من حكام العصر القديم المستنيرين[3]، فأعلن التسامح الدينى العام، وأعاد الاعتبار لآلهة بابل. وفى سنة ٥٣٨ صرح بترميم الهيكل فى أورشليم، فكانت سياسته على النقيض من وحشية الآشوريين والبابليين. واكتشف اليهود فى المنفى خبرة روحانية فى الفارسيين الذين كانوا غير مشركين وكانوا لايعبدون الأصنام، بل كانوا يعتقدون أن الدنيا منقسمة عن طريق النضال المستمر بين القوى الروحية للخير والشر. كما استنبط اليهود من الفرس فلسفتهم فى البعث والحساب[4].

وكانت الجماعة الأولى التى عادت إلى أورشليم جماعة صغيرة «وبقى كثير من اليهود فى بابل لأنهم آثروا ألا يتركوا ممتلكاتهم»[5]. ويقدر برايت سكان يهودا

(١) سفر إشعيا الاصحاح ٤٠/١٢. ٤٤/٦

(٢) من هذه النقطة وصاعدا نستطيع أن نتحدث عن اليهود إختصارا ليهودا.

(٣) جون رايت، تاريخ اسرائيل.

(٤) الحاخام ريزين: رد فعل الأميين للمثل العليا اليهودية.

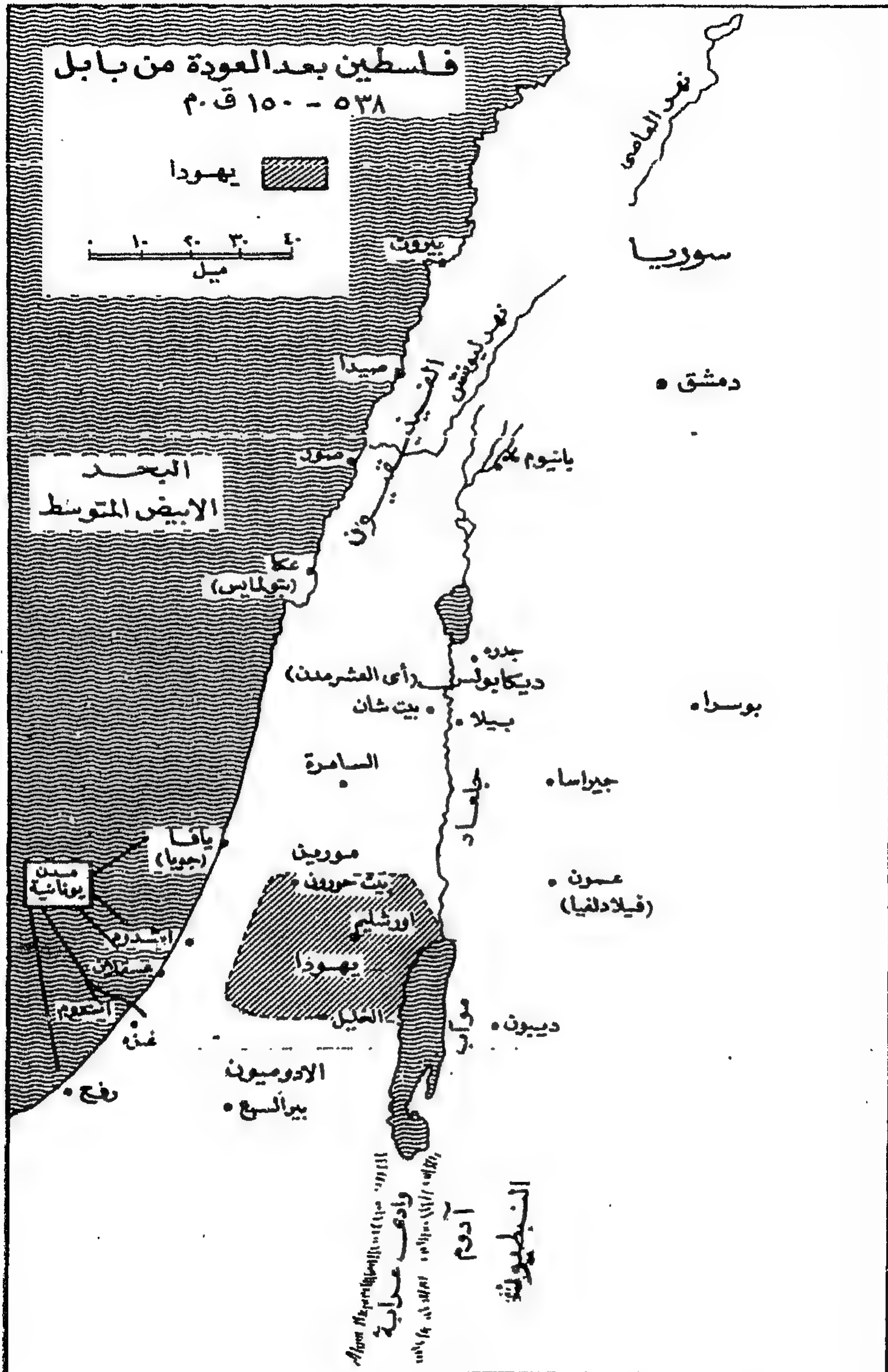
(٥) فليفيوس يوسيفوس: آثار اليهود، الكتاب الحادى عشر.

فى ذلك الوقت بعشرين ألف نسمة، إلا أن هذا العدد كان يضم جانبا من جماعات الأمميين. ولم تبدأ عمارة الهيكل إلا فى عام ٥١٦ قبل الميلاد، أى بعد انقضاء عشرين عاما على عودة أول جماعة يهودية إلى أورشليم. ولا نعلم شيئا بعد ذلك عن الأحداث فى يهودا طوال سبعين سنة. وكانت سوريا وفلسطين تشكلان معا مقاطعة واحدة من المقاطعات العشرين فى الأمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف. وكان يحكم مجتمع القدس الصغير الكاهن الأعظم.

وعلى العكس من ذلك، انتعشت الطائفة فى بابل وفارس انتعاشا عظيما وكان كثير من أعضائها على درجة كبيرة من الثراء، بينما شغل بعضهم مناصب هامة فى الحكومة أو البلاط، وفى مصر أخذ عدد اليهود فى الازدياد، كما كانت هناك طوائف يهودية فى آسيا الصغرى. وربما بلغ سكان يهودا عام ٥٤٥ قبل الميلاد خمسين ألفا، وقد أعيد بناء ثلاث أو أربع مدن فى الريف، إلا أن عدد السكان فى أورشليم كان قليلا.

* * *

كان نحميا ساقى الملك لارتحشتا الأول (٤٦٤ ـ ٤٢٤ ق.م). ويروى الاصحاح الثانى من سفر نحميا بيانا حيا مشرقا عن كيفية حصوله على الإذن ببناء أسوار أورشليم حيث سافر يحمل خطابات من الملك ومعه حراسة عسكرية إلى أورشليم حوالى سنة ٤٤٠ قبل الميلاد. وحيث أنه كان قائدا بطبيعته فقد جمع أهالى المنطقة وأصلح أسوار المدينة. وكانت يهودا مقسمة بين السامرة وإيدوميا وفلسطين التى رفض حكامها أن يفرطوا فى أى جزء من أرضهم. ومع هذا، يبدو أن «أرض الميعاد» نظمت من جديد فى منطقة منفصلة وأن نحميا عين حاكما عليها، ولم يسجل تاريخ وفاته، إلا أن المعلوم هو أن حاكم «أرض الميعاد» سنة ٤١١ قبل الميلاد كان موظفا فارسيا.


فلسطين بعد العودة من بابل
٥٣٨ - ١٥٠ ق.م
يهوذا
ميل
بيروت
سوريا
نهر العاصي
دمشق
صيدا
صور
البحر
الابيض المتوسط
عكا
(بتولمايس)
جدره
ديكابولس (أى العشر مدن)
بيت شان
بيلا
بوسراء
السامرة
جيراساء
يافا
(جوبا)
مدن يونانية
موريث
بيت حورون
عمون
(فيلادلفيا)
اورشليم
يهوذا
أشدود
عسقلان
أشكلون
غزة
الخليل
ديبون
الادوميون
رفح
بيرالسبع
وادى عرابة
أدوم
النبطيون

خريطة (٩)

وكان «عزرا» (وليس نحميا) هو الذى غير تاريخ يهودا.، ويحتمل أنه وصل إلى أورشليم حوالى عام ٣٩٧ قبل الميلاد، ومعه تفويض ملكى باصلاح ديانة يهوه. وكان خبيرا فى القانون وكانت أسفار موسى الخمسة التى استعان بها مختلفة الى حد ما عن الأسفار الحالية، وإن كانت من الأرجح تشبهها بدرجة كبيرة.

وكان التأكيد الأساسى فى اصلاحات عزرا منع الزواج بين اليهود وبقية البشر، أى أنه كان على «الجنس المقدس»، منذ ذلك الوقت وصاعدا، أن يكون فى معزل عن بنى البشر. ويهلل باخلاص كثير من المعلقين على التوراة لاصلاحات عزرا، إلا أن القس ويليام نيل يذهب إلى حد المناداة به «متعصبا مقدسا»، بل أن الحاخام ريزين يرميه بضيق الأفق، ومع هذا، فإن حركة الاصلاح التى بدأها لاتزال ملموسة الأثر حتى يومنا هذا.

وكان منع الزواج المختلط فكرة جديدة تماما، فقد كان لبنى اسرائيل مطلق الحرية فى الزواج من أهل البلاد على مدى ثمانمائة عام. والظاهر أن عزرا كان رجعيا، اذا ما استخدمنا اصلاحطا «حديثا»، وأراد أن يبعث أيام يشوع من جديد فى محاولة لإحياء احتقار الغزاة القديم «لأهل البلاد».

وتلقى اصلاحات عزرا، اليوم، معارضة من الرأى العام لأن فكرة وجود جنس سام يتلوث دمه إذا ما اختلط مع دم الآخرين لم تعد فكرة محببة بعد. ولم يكن هتلر مبتكرا فى مفهومه عن «الجنس السائد»، فقد قيل أن ارسطاليس أخبر الاسكندر الشاب بأن العلاقة بين الاغريق والأجناس الأخرى أشبه بالعلاقة بين الانسان والحيوان، وهكذا نرى أن التكبر المتعصب لطائفة مفردة تظن فى نفسها أنها أسمى من بقية البشر أمر لم ينته قبول غرور بنى الانسان له أبدا.

ويظهر عزرا نس التشوش بين الجنس والدين، وكأنما هو بذلك يحيط اليهودية بضباب كثيف. وكان يتكلم بغير دقة عندما يصف اليهود كجنس مقدس، ذلك لأنهم كانوا من الناحية السلالية قد أصبحوا خليطا من شعوب شتى فى

الشرق الأدنى، بينما يقع الاختلاف بين هؤلاء الذين يعبدون يهوه وأولئك الذين لايعبدونه.

ولقد وضعت اصلاحات عزرا الخاصة بالزواج موضع التنفيذ الصارم، فطلقت الزوجات الأجنبيات، وأنكر الاعتراف بشرعية أولادهن. أما ما كان من أمر ضحايا هذه «البيوت المحطمة» فذلك ما لم يقدم عنه أى إيضاح. وبذا قضى عزرا بأن الانعزالية التى نتج عنها بالتدريج حاجزا متزايدا من المبادىء والممنوعات إنما كانت تهدف إلى فصل أولئك الذين اعتنقوا الديانة اليهودية عن بقية البشر.

إلا أنه ينبغى لنا ألا ننسى أن الديانة اليهودية لم تكن مقصورة على يهودا أو فلسطين دون غيرهما، ومن الأرجح أن يكون تعداد اليهود خارج فلسطين أكثر فعلا من عدد سكان يهودا. وتبدى الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت اتجاهين متعارضين، فاليهود المنتشرون فى أنحاء العالم صاروا هم المدافعين عن الرأى المتحرر لجميع الشعوب، بينما أصر الآخرون على إنعزالية «الأمة المقدسة».

وأحيانا ما يستشهد مفسرو العهد القديم بسفر اللاويين الاصحاح التاسععشر: ١٨، «بل تحب جارك كنفسك» للتدليل على الفضيلة الفريدة لبنى إسرائيل الأوائل باعتبارهم «شعب الله». وتدل كلمة جار فى نظر القبائل العربية على «رجل القبيلة» ويجرى النص الكامل للآية ١٨ من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اللاويين على هذا النحو «لاتنتقم ولاتحتد على أبناء شعبك بك تحب جارك كنفسك»[٦]*. وهكذا يظهر النص وكأنه لايهدف إلى فعل ما فيه خير الانسانية، بل يهدف إلى تأمين التضامن القبلى فى مواجهة العالم.

وإذا ما أضحت الديانة اليهودية أكثر روحانية ظهر معنى الجار مسببا للشك كما يتضح من السؤال الموجه من المسيح الى الرب[٧]. وإذ يسوق المسيح فى إجابته

---

(٦) النص المعدل.

(*) جاء فى طبعة الكتاس المقدس طباعة القاهرة/ ١٩٦٦ كلمة «قريبك» بدلا من «جارك».

(٧) سفر لوقا الاصحاح العاشر / ٢٩.

أمثولة السامرى الصالح، فإنه بذلك يفسر كلمة الجار وكأنها تعنى بنى الانسان جميعا ولكنه كان من نفس هؤلاء السامريين من طالبهم عزرا بالانعزال التام.

وتصر الديانة اليهودية والديانة المسيحية والديانة الاسلامية، سواء بسواء، على الأمر بالشفقة والحنو والحب والاحسان والتواضع، ويمارس المؤمنون بهذه الأديان الثلاثة تلكم الفضائل فيما بين طوائفهم، إلا أنهم ظلوا قرابة ألفى سنة يفسرون كلمة «الجيران» على أساس زملائهم فى عقيدتهم فقط، فاليهود يعتبرون المسيحيين وحوشا كاسرة بينما يصور المسيحيون المسلمين فى صورة المتعصبين المتزمتين. وكم كان العالم سيكون مختلفا لو أنهم فسروا كلمة الجيران بحيث تعنى كافة بنى الانسان! وهكذا تبدو أمثولة السامرى الصالح وكأنها أهم أمثولة فى الانجيل وفى نفس الوقت أقلها مراعاة..

ولم تسلم انعزالية عزرا من المعارضة حتى فى يهودا نفسها. ويبدو سفر راعوث وكأنه نشرة مضادة للتمييز العنصرى كتبت حوالى ذلك الوقت، وخاصة أن التى قامت بدور البطلة فيها جدة داود المؤابية. بل ان سفر يونان أشد اثارة للدهشة. ويبدو أن قلة ادراكنا لهذه الأمثلة الممتعة، هى دليل على التمسك العقيم بحرفية عصرنا العلمى، لأن انتباهنا يتركز حول ما إذا كان الحوت يستطيع أن يبلع الانسان أو أنه لايستطيع أن يبتلعه، ويونس والذى إسمه يعنى «حمامة»، وهى رمز تقليدى لاسرائيل[8] قد أمر بالوعظ فى نينوى الشريرة. فهو بالتالى يمثل اسرائيل، المعنية بالعمل على تعريف العالم بالله. إلا أنه لايود القيام بهذا العمل، ويحاول الهرب، فيلقى به فى اليم ويبتلعه الحوت ـ الأسر البابلى ـ وإذ يعود الى وطنه بمعجزة، يتوجه إلى نينوى التى تندم وتتوب من فورها. والمغزى الأدبى واضح ـ فلو أن اسرائيل كانت مطيعة، إذن لاستطاع العالم بأسره أن يغير دينه ـ إلا أن الانعزاليين

(٨) القس ويليام نيبل، تعليق على الكتاب المقدس.

فى أورشليم كانوا يتجهون وجهة مضادة ففصلوا أنفسهم عن العالم الخارجى.. وهذان الاتجاهان كانا سيستمران ويدومان بالمثل فى اليهودية وهما: الولع بالهداية والاندفاع الى الإنعزالية.

وقد الى تحول نينوى أكثر الصور التى تكشف النفس البشرية، حيث غضب يونس عندما أفلحت عظاته وأتت ثمارها، لأن الشعور بالشعب المختار الذى يسمو على سائر البشر، كان حريا بأن يشيع حالة من الكبرياء أكثر مما تشيعه رؤية العالم كله، وقد تغير دينه فأصبح على قدم المساواة مع الشعب المختار. وليست هذه العقلية مقصورة على اليهود دون غيرهم، لأن تاريخ الكنيسة يعرض لنا مناسبات لاتدخل تحت حصر من هذا الكبرياء الزائف بالذات.

وينتهى سفر يونان وهو يشير إلى أن الله يحب جميع مخلوقاته، فهو لا يحب أهل نينوى الأشرار وحدهم، بل يحب أنعامهم كذلك، إننا هنا على عتبة المبشرين بالإنجيل»[٩] . تلك اجابة اليهودية المتحررة على إنعزالية عزرا الضيقة.

* * *

تصادف حكم ارتاكسركسيس الأول (٤٦٤ ـ ٤٢٤ ق.م) فى اليونان مع عصر سقراط وفدياس، وبلاتو، وبركليز، وأشيليوس، أى العصر الذهبى للحضارة الإغريقية. وفى تلك الحقبة الذى كان التجار اليونانيون قد وطدوا أنفسهم فى الشرق الأدنى بدأت الأفكار الاغريقية تصطدم مع الأفكار السورية. وفى نفس الوقت بدأت الامبراطورية الفارسية فى التدهور، ولكن الطبيعة المشوشة للديمقراطية اليونانية جعلت امتداد النفوذ اليونانى أمرا مستحيلا. وحدث فقط عندما سيطر فيليب المقدونى على الجمهوريات اليونانية أن أصبح الفتح الأجنبى ممكنا. وفى عام ٣٣٤ قبل الميلاد عبر الاسكندر بن فيليب البحر الى آسيا الصغرى وهزم دارا الثالث فى اسوس[١٠] ولكنه لم يطارد فلول الجيش الفارسى. وقد أدرك الاسكندر (كما

(٩) مقدمة للأنبياء فى التوراة.

(١٠) خريطة (١٠).

تدرك روسيا اليوم) أن الامبراطورية العالمية تتطلب السيادة البحرية على شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما سار جنوبا محاذيا الساحل استولى على موانىء صورة وغزة، ثم احتل مصر دون أن يلقى أية مقاومة تقريبا. وفى شتاء ٣٣٢ ـ ٣٣١ ق.م أنشأ ميناء عظيما فى الاسكندرية. وفى سنة ٣٣١ قبل الميلاد اتجه شمالا حيث أباد الجيش الفارسى فى أربلا وضم الامبراطورية الفارسية إلى أملاكه فانتقلت منطقة يهودا تلقائيا من الحكم الفارسى الى الحكم اليونانى. ولما مات الاسكندر الأكبر فى بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره سقطت امبراطوريته المترامية الأطراف، وانتهى الأمر فى النهاية الى ظهور إمبراطوريتين، فكان سلوقس الأول نيكاتور، وهو واحد من قادة الجيش اليونانى، حاكما على بلاد فارس وبابل وسوريا وأسيا الصغرى، واتخذ عاصمته فى انطاكية. وكان منافسه ضابطا مقدونيا اسمه بطليموس، نصب نفسه امبراطورا على مصر وليبيا وقبرص وفلسطين.

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريبا كانت المنافسة بين السلوقيين والبطالسة بالغة أشدها، وكانت للسلوقيين امبراطورية أرضية، وللبطالمة قوة بحرية انعقدت لها السيادة على شرق البحر الأبيض المتوسط. واذ طالب الجانبان المتنافسان بضم يهودا وجدت الأخيرة نفسها منطقة على الحدود متنازعا عليها، تماما كما كانت محل نزاع بين مصر وآشور، وانتهى الأمر حينئذ الى أن بقيت تحت حكم مصر من عام ٣٠١ إلى عام ١٩٨ قبل الميلاد.

ولم تكن انتصارات الاسكندر هى كل حقيقة أمره، بل أن سعة أفقه كانت حقيقة واضحة تميز بها، فلقد كان يعارض النزعات الوطنية الاقليمية وكان يحث رجاله كى يتزوجوا من بنات فارس لينصهر الجنسان بالمصاهرة. ولم يكن متسامحا فيما يتعلق بالديانات وحسب، بل كان يبذل كذلك جهودا نشطة لانهاء الكراهية

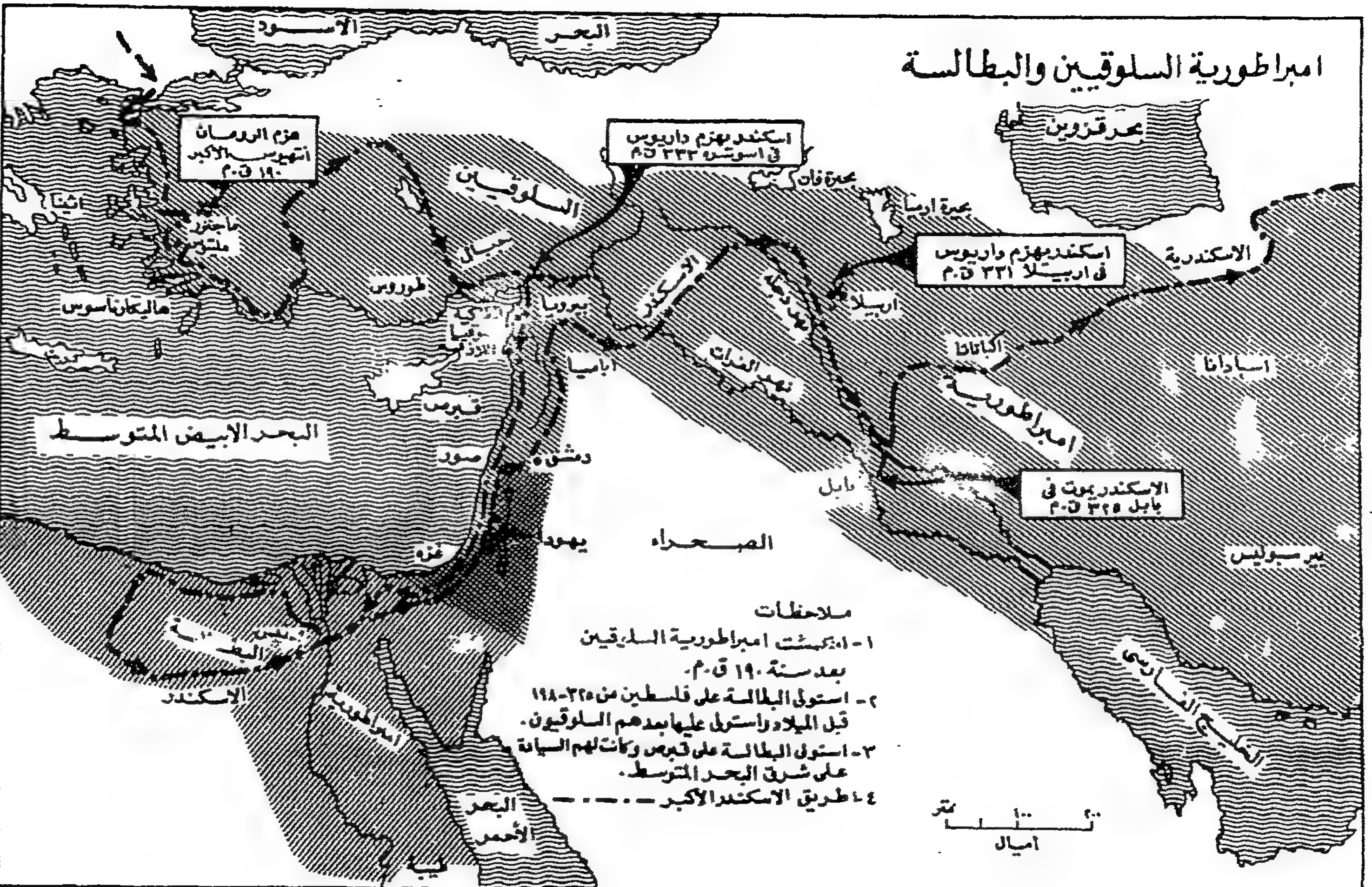
الطائفية والدينية. وبالمثل كان البطالسة والسلوقيين متسامحين بالنسبة للأديان على حد سواء، وكانت لليهود الحرية المطلقة فى العيش والعبادة كما يحلو لهم.

وحاولت كلا الامبراطوريتين إغراء أهل اليونان على الهجرة الى سوريا ومصر حيث كانت الكتائب اليونانية بمثابة العمود الفقرى لجيوش كل منهما. وتدفق اليونانيون من رجال الأعمال ومن المستوطنين على الشرق الأوسط وأخذوا يبنون المدن لتى كانت يسكنها اليونانيون بالكامل تقريبا.

وقد ارتقى بطليموس الخامس ابيفابس[11] (٢٠٤ ـ ١٨١ق.م) العرش وهو فى الخامسة من عمره، وكان معاصره هو السلوقى أنطوخيوس الثالث الكبير، الذى هزم جيش بطليموس الخامس سنة ١٩٨ ق.م. فى «بانيوم» (بانياس الحالية)، واستولى السلوقيون على فلسطين. إلا أن قوةجديدة أخرى كانت تزحف من الغرب، وفى سنة ١٩٠ ق.م. هزم الروم أنطوخيوس فى «ماجنيزيا» مما اضطره للارتداد الى شرق «طوروس» وبذا أصبحت أقاليم أسيا الصغرى تابعة للروم. والأدهى من ذلك وأمر، أن السلوقيين أجبروا على دفع تعويضات باهظة أدت إلى أفلاس امبراطوريتهم، منذ ذلك الوقت وصاعدا تجنب الروم الحرب وحاولول تدمير السلوقيين عن طريق الدسائس والمكائد، واضطر سلوقس الرابع فيلوباتور بن أنطوخيوس الثالث لأن يرسل ابنه «ديمتريوس» رهينة الى روما. وفى سنة ١٧٦ ق.م. قتل أنطوخيوس الرابع واعتلى العرش أخوه أنطيوخس الرابع أبيفانسس. وكان حاكما حاد الذكاء يتمتع بصفات خلابه ومحادثة جذابة فواجه الواجب الهائل، واجب لحفاظ على سلامة امبراطوريته غير المتجانسة مع استمرار دفع التعويضات لروما. إلا أن روما لعبت دوراً مزدوجا فطالبت بمزيد من التعويضات بينما حرضت رعايا أنطوخيوس على الثورة ضد الضرائب الفادحة التى كان أنطوخيوس فى شديد الحاجة اليها لدفع التعويضات.

---

(١١) شجرة البطالسة.


امبراطورية السلوقيين والبطالسة
بحر قزوين
البحر الأسود
هزم الرومان أنتيوخس الأكبر ١٩٠ ق.م
اسكندر يهزم داريوس في اسوس ٣٣٣ ق.م
اسكندر يهزم داريوس في اربيلا ٣٣١ ق.م
الاسكندر يموت في بابل ٣٢٣ ق.م
بحيرة وان
بحيرة اورميا
الاسكندرية
السلوقيين
اثينا
هاليكارناسوس
طوروس
بيرويا
اربيلا
اكباتانا
اسبادانا
امبراطورية
اباميا
قبرص
البحر الابيض المتوسط
صور
دمشق
بابل
يهود
غزة
الصحراء
برسيبوليس
الاسكندر
البحر الأحمر
ليبيا
ملاحظات
١- انكمشت امبراطورية السلوقيين بعد سنة ١٩٠ ق.م.
٢- استولى البطالسة على فلسطين من ٣٢٥-١٩٨ قبل الميلاد واستولى عليها بعدهم السلوقيون.
٣- استولى البطالسة على قبرص وكانت لهم السيادة على شرق البحر المتوسط.
٤- طريق الاسكندر الأكبر
أميال

خريطة (١٠)

وقد سعى أنطوخيوس الرابع إلى تحقيق تماسك امبراطوريته عن طريق ربط مشترك بواسطة الحضارة اليونانية، وكانت سوريا، قلب الامبراطورية، تمتد من الساحل ونهر العاصي الى نهر الفرات بما فى ذلك المدن اليونانية وهى انطاكية: سلوقيا، ولاديكيا (اللاذقية الحالية)، وأباميا[١٢]. وفى فلسطين تحول السهل الساحلى الى منطقة يونانية امتدت عليها المدن اليونانية: بطليموسية (عكا الحالية) وأبولونيا، وبويا (يافا) وأزوتس (أسدود) وعسقلان وأنتيدون، وغزة، ورافيا (رفح)، واستوبولس (بيسان) وكانت هذه المدن تضم كثيرا من السكان اليونانيين. وأعيد بناء سيبستت (السامرة) على النمط اليونانى. وكان فى شرق الأردن عشر مدن يونانية (أطلق عليها اسم ديكابولس) هى: فيلادلفيا (عمون أو عمان الحالية)، وفيلوتريا، وأرسينو، وبيلا (خرابة الفحل الحالية)، وديون، وجراسا (جرش الحالية) وجدارا (أم قيس) وهيبوس، وبوسرا. وكان هذا التدفق اليونانى سببا فى تغيير التكوين السلالى لسوريا ولبنان والسهل الساحلى فى فلسطين حتى يومنا هذا[١٣].

وكانت يهودا دولة معبد، وكان هناك كثير مثلها فى الامبراطورية وكان الحاخام الأكبر يلتزم بالضرائب الامبراطورية للملك السلوقى. ويعزى التدخل السلوقى الى دسيسة يهودية محلية، حين تشاجر شمعون (سيمون)، أحد موظفى المعبد، مع أوبناس الثانى الحاخام الأكبر، واقترح على الحكومة السلوقية أن تستولى على كنوز المعبد، فهوجم الضابط الذى أرسل للتحقيق فى ذلك الأمر وأصيب بجراح نتيجة لذلك.

وفى أثناء ذلك كان صبغ أورشليم بالصبغة اليونانية قد بدأ على أيدى اليهود أنفسهم، ولم يكن ذلك من قبيل التنكر للديانة اليهودية، بل لأن اليونان كانت هى الدولة القائدة فى ذلك الوقت، على نحو ما كانت عليه الولايات المتحدة

---

(١٢) خريطة (١٠).

(١٣) تاريخ كمبريدج القديم المجلد السابع والفصل الخامس.

كل التواريخ قبل الميلاد

سلالة السلوقيين

سلوقس الأول نيكاتور (٣١٢ - ٢٨١)

أنطيوخس الاول سوتر (٢٨١ - ٢٦٢)

انطيوخس الثانى تيوس (٢٦٢ - ٢٤٧)

سلوقس الثانى كالينيكس (٢٤٧ - ٢٢٦)

- انطيوخس الثالث الأكبر (٢٢٣ - ١٨٧)
  - انطيوخس الرابع ايبفانس (١٦٧ - ١٦٣)
    - انطيوخس الخامس اوباتور (١٦٣ - ١٦٢) (طفل)
    - المحتال الكسندر بالاس (ادعى بنوة انتيوخس الرابع) (١٥٠ - ١٤٥).
      - انطيوخس السادس ابيفانس ديونيسوس ١٤٥ - ١٤٣
  - سلوقس الرابع فيلوباتور (١٨٧ - ١٧٦)
    - ديمتريوس الاول سوتر (١٦٢ - ١٥٠)
      - ديمتريوس الثانى نيكاتور (١٤٥ - ١٤٠ ١٢٩ - ١٢٦)
        - أنطيوخس الثامن فيلومتيور (١٢٦ - ٩٦)
        - سلوقس الخامس (١٢٦)
    - انطيوخس (مات طفلا)
- سلوقس الثانى سوتر (٢٢٦ - ٢٢٣)

بعد ذلك اقتتل الامراء السلوقيون الى أن جعل بومبى سوريا ولاية رومانية سنة ٦٤ ق.م

ديمتريوس الثانى نيكاتور وانطيوخس السادس ابيفانس كانا يحكمان من ١٤٥ إلى ١٤٣ وقد انهمكا فى حروب أهلية.

الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ذلك فكان تقليد اليونانيين يعتبر تعصرا، وعدم تقليدهم يعتبر تخلفا وتأخرا.

وسرعان ما بدأت مكيدة أخرى، فقد أغرى جاسون (لاحظ الأسماء الاغريقية) شقيق أويناس الثانى، الحكومة السلوقية لتنصيبه حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم) فى المنصب الذى كان يشغله شقيقه. ولقاء ذلك يؤيد المريدين إدخال الهللينية الى أورشليم. وأخذ الفتية اليهود يلبسون القبعات اليونانية (قبعةالإله عطارد) ويزاولون الألعاب الرياضية وهم عراة فى «الجيمنيزيوم» مما أسخط اليهود المحافظين المتزميتن، لأن شعوب الشرق الأوسط كانوا شديدى التحفظ والتزمت بالنسبة لعرى أجسامهم. كما اشترك وفد يهودى فى احتفال هرقل فى صور (وهرقل هذا هو صديقنا القديم إله إيزابل الذى سمى بإسم يونانى لطيف). وهكذا، فإن مبادرة صبغ أورشليم بالصبغة الهللينية لم يفكر فيها أنطوخيوس، بل اتخذتها فئة من اليهود أنفسهم(١٤).

وفى سنة ١٧٢ قبل الميلاد أحس أنطوخيوس بنية بطليموس غزو فلسطين فتحرك على رأس جيش إلى يويا، وزار أورشليم حيث لقى ترحيبا ملكيا من جاسون فى احتفال كبير بالمشاعل، لكن دسائس جديدة مزقت أورشليم. ففى عا ١٦٩ قبل الميلاد أعزى مينيلوس وهو شقيق شمعون الذى سبق ذكره، إلى الحكومة لكى تجعله حاخاما أكبر (الكاهن الأعظم)، مع أنه لم يكن ينتسب حتى إلى قبيلة ليفى. وفر جاسون الى عمون.

وبينما كان أنطوخيوس قائما بحملته فى مصر عام ١٦٩ قبل الميلاد، عاد جاسون واستولى على أورشليم ذبح أنصار مينيلوس. وانزعج أنطوخيوس من هذه القلاقل التى طرأت فى غيبته، خاصة وأنه كانت فى أورشليم جماعة موالية

(١٤) تاريخ كمبريدج، القديم، المجلد الثامن.

للمصريين. وقع الملك الذى كان عادة رجلا ودودا فى خطأ فاحش. فقد كانت الامبراطورية تضم كثيرا من المجموعات الدينية الصغيرة تدين لها بالولاء. أما فى يهودا فقد بدا أن الدين هو الذى يثير عدم الولاء. ولم يكن الأمر كذلك، ولكن كان سبب جميع القلاقل هو تنافس المطالبين بوظيفة الحاخام الأعظم. ونظرا لوجود حزب هلليني بالفعل فى أورشليم فقد صمم أنطيوخس على أن يعجل بصبغ البلاد بالهللينية بالقوة. ومع هذا الأمر أدخل انطيوخس محاولة لطمس الديانة اليهودية. وربما كان أنطوخيوس سينجح لو أنه اقتصر على حركة صبغ البلاد بالهللينية وترك الديانة وشأنها. ولكنه تعجل الأمر وكانت روما تترصد به.

وقد احتلت القوات حصنا على جبل صهيون، وحرمت عملية الختان، واعتبر تحريم أكل لحم الخنزير جريمة لاتغتفر. وفى شهر ديسمبر سنة ١٦٧ قبل الميلاد منعت القرابين اليومية عن المعبد ونصب تمثال جيوبتر فى الهيكل، فكان هذا العمل اضطهاداً دينياً، ولم يقدم أنطوخيوس على هذا العمل لأنه كان يحبذ أية ديانة أخرى، لكنه أقدم عليه لأنه ظن أن الديانة اليهودية هى مصدر القلاقل السياسية.

وقد ظهر حاخام صغير فى إحدى القرى، اسمه مكابى من أسرة حشموناى من سبط هارون كان موظفا حكوميا بينما كان يقدم قربانا وثنيا فى قرية مدين[١٥]. ثم اتجه هو وأبناؤه الخمسة صوب التلال وأغاروا على القرى الأخرى وقتلوا اليهود المتشبهين باليونانيين. وفى عام ١٦٦ أو ٢٦٥ قبل الميلاد توفى متاتياس (متتياهو) وتولى القيادة من بعده ابنه الثالث يوحانان الشهير باسم يودس (يهودا) المكابى (أى المكابى ذو القبضة الحديدية) وكان الفلاحون اليهود فى عام ١٦٠ قبل الميلاد أشبه بالفلاحين «العرب» فى عصرنا هذا. وحين كتب يوسيفوس بعد أكثر من مائتى عام مؤلفه، فقد استطاع أن يقول «لسنا شعبا تجارياً».

---

(١٥) خريطة (١١).

يهودا تحت حكم الحشمونيين الأوائل
١٦٨ - ١٥٣ ق.م

البحر الابيض المتوسط
فينيقيا
جبال لبنان
دمشق
الجولان
حمم بركانية
بتولمايس
الجليل
هيبوس
جدرة
ابيلا
بوسرا
بيلا
ديكابوليس
السامرة
الأردن
جيراسا
ابولونيا
يافا
مودين
فيلادلفيا (عمون)
يمنيا
بيت حورون
يهودا
اسدود
أورشليم
اشقلون
غزة
الخليل
البحر الميت
ديبون
موآب
ادوميا
النبطيون


خريطة (١)

وأغلب الظن أن سفر دانيال كتب فى ذلك العهد، وكان يكنى أنطوخيوس بعبارة «القرن الصغير»، ويشير إلى تمثال جيوبتر المقام فى الهيكل بعبارة «معصية الخراب (رجس المخرب)»[16]. وكان ناتج معاناة اليهود أن ذكرت كلمة «الخلود» لأول مرة فى المصادر اليهودية[17].

وتوفى أنطيوخس فى أصفهان عام ١٦٣ قبل الميلاد، وفى نفس الوقت أجرى ليسياس نائب الملك تسوية مع اليهود، وصار الياكيم (السيموس باليونانية) الحاخام الأكبر (الكاهن الأعظم)، واستؤنفت الصلوات فى المعبد، ونصب أنطوخيوس أوباتور ملكا. إلا أن ديمتريوس وصل من روما سنة ١٦٢ ق.م. فقتل أوباتور وجلس على العرش[18] وبعث السيموس الحاخام الأعظم مفوضا إلى ديمتريوس للشكوى من الحشمونيين وكانت عصاباتهم ماضية فى نشاطها تحت قيادة يوحانان المكابى، كما أرسل الحشمونينون الى روما حيث حصلوا على معاهدة مائعة تحمل أكثر من معنى، وكانت تلك مكيدة رومانية لتقويض السلوقيين.

وفى أورشليم بدا الموقف طبيعيا، فعاد التسامح الدينى، إلا أن عصابات الحشمونيين كانت لاتزال قائمة، بل أنها أوقعت قوة سلوقية فى كمين عند بيت حورون، فسارع ديمتريوس بإرسال القوات التى هزمت العصابات وقتل يوحانان المكابى، وبقى على قيد الحياة إبنان فقط من أبناء مقابياس (المكابى)، هما: شمعون ويوناتان.

---

(١٦) سفر دانيال الاصحاح الثامن وما بعده.
(١٧) سفر دانيال الاصحاح الثانى عشر / ٢، ٣.
(١٨) شجرة سلالة الحشمونيين.

وقد كان ديمتريوس أهلا لإرضاء الروم الذين أرسلوا المدعو الكسندر بالاس للمطالبة بعرض السلوقيين. وطلب كل من ديمتريوس وبالاس المساعدة من يوناثان الحشموني، الذي وجد نفسه على حين فجأة يتردد اليه الملوك بعد أن كان ثائرا. وساعد يوناثان الكسندر الذي جعله الحاخام الأعظم. وكان لدى الكسندر ميزة العجز، بينما ديمتريوس شجاعا بارعا. وفي عام ١٥٠ قبل الميلاد سقط ديمتريوس وهو يقاتل في الحرب، وأصبح الكسندر بالاس ملكا، إلا أن ديمتريوس الثاني بن ديمتريوس الأول هزم الكسندر وصار هو ملكا عام ١٤٥ قبل الميلاد. وقد حظي بتأييد يوناثان الذي استغل الفوضى الضاربة ليقتل مؤيدي السلوقيين من اليهود. وكانت الامبراطورية المتداعية قد نبذت أصدقاءها لتؤيد الوطنيين المتطرفين ـ وتلك عملية مألوفة في وقتنا الحاضر.

وفي عام ١٤٥ قبل الميلاد ثار ابن بالاس وتحول يوناثان لتأييده، وفي مقابل ذلك عين شمعون شقيق يوناثان حاكما على سوريا الجنوبية، واستخدم الجنود السلوقيين لزيادة الرقعة التي تتولاها هذه السلالة الجديدة. وفي عام ١٤٢ قبل الميلاد قام مغامر جديد إسمه تريفون فجعل من نفسه حاكما مطلقا على سوريا، وألقى القبض على يوناثان بينما كان في زيارة لبطليموسية ثم قتله. واستولى شمعون على السلطة في يهودا وعرض خدماته على ديمتريوس الثاني.

وفي مايو عام ١٤١ قبل الميلاد استسلمت الحامية السلوقية في أورشليم ووجدت يهودا نفسها مستقلة. وفي شهر سبتمبر عام ١٤٠ قبل الميلاد جعلت الجمعية اليهودية (السنهدرين) وظيفة «الحاخام الأعظم» وراثية في أسرة حشموناي، ورسم شمعون حاخاما وقائدا عاما، وأميرا على شعب الله وفتحت مدينة يونا اليونانية (يافا) وضمت الى يهودا.

شجرة سلالة الحشمونيين

- يوناثان (توفى ١٤٣)
- البازان (توفى ١٦٣)
- يوحنان المكابى (قتل ١٦٠)
- شمعون (توفى ١٣٥)
  - يوحنان هيركانوس (١٣٥-١٠٤)
    - الكسندر جانيوس (١٠٣-٦٧) = الكسندرا (٧٦-٦٧)
      - ارسطوبولس الثانى — نفاه بومبى إلى روما ٦٣
        - الكسندر
          - ميريام — تزوجت هيرودس ٣٧ وأعدمت ٢٩
            - ارسطوبولس — شنق بأوامر هيرودس سنة ٧ قبل الميلاد
            - الكسندر — شنق بأوامر هيرودس (سنة ٧ قبل الميلاد)
          - ارسطوبولس الثالث — عينه هيرودس كبير الكهنة ثم أغرق ٣٥
      - هيركانوس الثانى — بمشورة انتيباتر عينه بومبى كبير الكهنة ٦٣
    - ارسطوبولس الأول (١٠٤-١٠٣)
- يوحنا (توفى ١٦١)

ملاحظات (١) وضع خط تحت أسماء الحكام والذين شغلوا منصب الحاخام الأكبر (الكاهن الاعلى).
(٢) ذكرت أسماء الاشخاص الوارد ذكرهم فى النص فقط.
(٣) كل التواريخ قبل الميلاد.

وفى عام ١٣٨ قبل الميلاد اغتيل شمعون بيد زوج ابنته، إلا أن إبنه جون (يوحانان) هيراكينوس استولى على السلطة. وفى نفس السنة استرجع أنطوخيوس السابع السلوقى يوبا ثم استرد أورشليم، ولكنه سمح ليهودا بالاحتفاظ بمدينة يوبا. وفى سنة ١٢٩ قبل الميلاد قتل أنطوخيوس السابع وعمت الامبراطورية الفوضى فاستقل كثير من المدن اليونانية، وكانت هناك طائفة عربية تعمل بالتجارة تحت اسم النبطيين كانت تتخذ لها قاعدة فى بترا، وقد تمكنت هذه الطائفة من الاستيلاء على السلطة فى شرق الأردن. وقد حكم الحشمونيون يهودا حتى عام ٣٨ قبل الميلاد. ومع أن بداية حكمهم اتخذت طابع الثورة الدينية، إلا أن عهدهم تميز بالعداء الشديد بينهم وبين اليهود الأتقياء الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت بإسم (الحسيديم)، إلا أنهم كانوا معروفين وقتئذ باسم «الفريسيين».

وعلى نحو ميلاد اسرائيل الجديدة العسكرية العدائية من الاضطهاد النازى، أحالت المقاومة الأصيلة ضد أنطوخيوس الرابع يهودا الى ولاية عسكرية عدوانية متعصبة. وهاجم يوحانان هيراكينوس كل جيرانه، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون إيالات تابعة للامبراطورية السلوقية، وكانوا يفتقرون إلى التنظيم العسكرى. كما قام بغزو الأدوميين (وكانوا يعرفون فيما مضى باسم الايدوميت) الذين كانوا يستوطنون الخليل فى الجنوب. ولكى يزيد يوحانان هيراكينوس من أعداد جيشه حول الأدوميين قسرا للديانة اليهودية ـ وهى سياسة جديدة تؤكد بطلان أية دعوى يهودية بالوحدة الجنسية العرقية.

وحوالى عام ١٠٨ قبل الميلاد استولى هيراكينوس على مدينة السامرة، وكانت أغلبيتها السائدة من اليونانيين. فذبح جميع سكانها، كما لقيت نفس المصير مدينة سيتوبولس (بيسان الحالية) وكان معظم سكانها هى الأخرى يونانيين. وتوفى يوحانان هيراكينوس عام ١٠٤ قبل الميلاد.

وقد نعمت يهودا تحت حكم الحشمونيين بفترة قصيرة من الاستقلال بين الامبراطوريات الأمر الذى يشبه كثيرا ما حدث بالشرق الأوسط فى أيامنا هذه بين البريطانيين والروس. وقد رحب المتحمسون لنهاية الامبريالية وباستقلال الدول الصغيرة، إلا أن الدول الصغيرة فى ذلك الوقت، مثلها مثل الدول الصغيرة فى وقتنا هذا، استخدمت استقلالها فى مهاجمة جيرانها.

«لا المكابيون ولا البارثيون هم الذين قهروا السلوقيين، بل إن روما هى التى قهرتهم»[19]. والواقع أن الدور الذى تلعبه روسيا اليوم أشبه بالدور الذى كانت تلعبه روما فى الفترة من عام ٢٠٠ إلى عام ٦٤ قبل الميلاد، فهى لاتتورط فى الحروب ولكنها تثير الحروب بصورة دائمة، تماما كما أحالت روما الشرق الأوسط الى فوضى شاملة قبل أن تدخله بنفسها.

تواريخ تستحق أن تذكر

الغزو البابلى	٥٨٧ ق.م
قورش يأذن بإعادة بناء الهيكل	٥٣٨ ق.م
نحميا حاكماً على يهودا	٤٤٠ ق.م
اصلاحات عزرا حوالى	٣٩٧ ق.م
الاسكندر يحتل مصر	٣٣٢ ق.م
فلسطين تحت حكم البطالسة	٣٠١ ـ ١٩٨ ق.م
أنطوخيوس الرابع يحاول طمس الديانة اليهودية	١٦٩ ق.م
ثورة الحشمونييم	١٦٦ ق.م
وفاة يوحانان المكابى	١٦٠ ق.م
تحلل الامبراطورية السلوقية	١٥٠ ـ ٦٤ ق.م

---

(١٩) تاريخ كمبريدج القديم، المجلدين السابع والثامن.

البطالسة

بطليموس الأول سوتر	٣٢٣ ـ ٢٨٢ ق.م
بطليموس الثاني فيلادلفوس	٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق.م
بطليموس الثالث أورجيتس	٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م
بطليموس الرابع فيلوباتور	٢٢١ ـ ٢٠٤ ق.م
بطليموس الخامس ابيفانى	٢٠٤ ـ ١٨١ ق.م
بطليموس السادس فيلوميتور	١٨١ ـ ١١٦ ق.م
بطليموس السابع أورجيتس (فيسكون)	١٧٠ ـ ١١٦ ق.م
بطليموس الثامن سوتر (لاثيروس)	١١٦ ـ ١٠٨، ٨٨ ـ ٨٠ قبل الميلاد
بطليموس التاسع الكسندر	١٠٨ ـ ٨٨ ق.م
بطليموس العاشر السكندر	٨٠ ق.م
بطليموس الحادى عشر فيلوباتور فيلادلفوس نوى (أوليتس)	٨٠ ـ ٥١ ق.م
بطليموس الثاني عشر فيلوباتور وأخته كليوباتره	٥١ ـ ٤٧ ق.م
بطليموس الثالث عشر فيلوباتور مع كليوباتره	٤٧ ـ ٤٤ ق.م
بطليموس الرابع عشر سيزاريون مع أمه كليوباتره (يقال أنه كليوباتره ويوليوس قيصر)	٤٤ ـ ٣٠ ق.م
مصو تصبح ولاية رومانية	٤٠ قبل الميلاد

خاتمة

١ ـ بدأ تشتت اليهود عام ٥٨٧ قبل الميلاد مع الفتح البابلى.

٢ ـ غيرت ثلاثة أجيال فى بابل اليهود من فلاحين الى رجال مجربين وواسعى الخبرة بالحياة.

٣ ـ بدأ عـزرا فكرة «الأمـة المقـدسـة» التى يتلوث دمـهـا بالتـزاوج من بقـيـة بنى الانسان.

٤ ـ منذ ذلك الوقت انقسم اليهودية بين الانعزاليين والدوليين.

٥ ـ سرعان ما أصيبت الارستقراطية الكهنوتية بالفساد، وكانت دسائسها داعية لتدخل السلوقيين.

٦ ـ كانت ثورة يوحانان المكابى مثيرة على الورق، إلا أنها عندما أحرزت النجاح انتكست فأصبحت ثورة قاسية وعسكرية عدوانية.

الفصل السابع
اليهود يملأون العالم

«هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبى الذى سبيته من أورشليم الى بابل.. إبنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلو ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولاتقلوا. واطلبوا سلام المدينة التى سبيتكم اليها وصلوا لأجلها الى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام..»

سفرا إرميا الاصحاح التاسع والعشرون: ٤ ـ ٨.

«انتعشت الحياة اليهوذية فى بابل اقتصاديا وروحانيا، كما تطورت فى مصر طائفة يهودية سعيدة مزدهرة بلغت مليونا من الأنفس فى القرن الأول من العصر المسيحى. ومنذ ذلك الوقت انتقل مركز الحياة اليهودية إلى بابل ومصر».

موشى منوحن، «أفول اليهودية فى عصرنا».

«إن تشتتهم على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، واستخدام اللغة اليونانية التى اتخذوها وسيلة للتخاطب عندما طردوا من فلسطين، كل ذلك مهد السبيل لدعاية لم يسبق أن قدمت المجتمعات القديمة مثيلا لها.. وصار الدين اليهودى هو الدين الحق بمعنى الكلمة. وقد أعطى الحق لكل من يرغب أن يدخل فيه وسرعان ما صار إدخال أكبر عدد ممكن فى هذا الدين عملا من أعمال الورع والتقوى.

إرنست رينان، «حياة يسوع».

الفصل السابع

تميل الأحداث فى يهودا الضيقة الصغيرة الى توجيه الالتفات اليها وبالتالى إغفال اليهود فى الدول الأخرى. ولكى نعدل الميزان ينبغى لنا أن نترك يهودا لوقت ما، لنتفكر فى أمر يهود العالم.

بدأ الشتات مع الغزو البابلى عام ٥٨٧ قبل الميلاد (وكانت عشر قبائل من القبائل الاثنتى عشرة قد زالت من الوجود بالطبع عام ٧٢٢ قبل الميلاد مع الغزو الأشورى). وترك الغزو البابلى يهودا وقد نقص سكانها الى حد كبير بعد أن أرسلت الطبقة الحاكمة الى السبى. إلا أن كثيرا من اليهود فروا إلى مصر حيث استقر بعضهم فى العاصمة ممفيس واستقر البعض الآخر فى الأقاليم وتزوج كثير منهم من مصر.

وترتب على فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٢ قبل المبلاد أن زادت الهجرة من يهودا، ويذكر يوسيفوس[١] أن «الاسكندر اذ تلقى تأييدا ايجابيا شديدا ضد المصريين من اليهود، منحهم مكافأة على تأييدهم، وهى التصريح بالاقامة فى المدينة (الاسكندرية) مع مساواتهم باليونانيين الغزاة. «وقد تأيد هذا الامتياز من خلفائه الذين خصصوا لليهود، فضلا عن ذلك، حيا خاصا لسكنانهم كى يتمكنوا، اذا ما قل اختلاطهم بالأغراب، من ممارسة أحكامهم على نحو أكثر كمالا ودقة، وسمح لهم أيضاً باتخاذ لقب القدونيين، كما سمح لهم بعمل ادارة خاصة ونظام قضائى خاص، وبعبارة أخرى، كانت الطائفة اليهودية تشكل مدينة داخل المدينة تتمتع بسلطات مساوية من الناحية العملية لسلطات الاسكندريين»[٢].

---

(١) فلافيوس يوسيفوس، «حروب اليهود»، الكتاب الثانى.

(٢) اتش، آى، بل، «اليهود والمسيحيين فى مصر».

ويجوز أن نذكر فيما يتعلق بالمعزل اليهودى (الجيتو)، الذى قام فيما بعد، أنه فى عام ٣٠٠ قبل الميلاذ كان اليهود يفضلون أن يعيشوا فى مجتمع يهودى خاص بهم، رغم أنهم كانوا، فى ذلك الوقت، يتمتعون بامتيازات خاصة، وكانوا أبعد ما يكونون عن الاضطهاد.

كان سكان الاسكندرية يشكلون فئات أربع:

١ ـ المقدونيون ـ وهم طبقة تتمتع بامتيازات خاصة، ويفترض أنهم كانوا جنود الاسكندر القدامى.

٢ ـ الاسكندريون ـ وهم اليونانيون المقيمون فى الاسكندرية.

٣ ـ النزلاء الأجانب مثل الفرس.

٤ ـ أبناء البلد المصريين ـ الصناع والعمال، وكانوا لايعتبرون مواطنين فى البلدة.

وكانت الاسكندرية مدينة مستقلة، من يصبح مواطنا بها يعد ذلك له امتيازا. وكان هناك يهود فى الفئات الأربع على حد سواء: «المقدونيون» وهم المنحدرون من أولئك الذين ساعدوا الفتح اليونانى، كما قد يكون اليهود فى الفئة الرابعة، طبقة أبناء البلد، أى من أولئك الذين اندمجوا فعلا مع المصريين، أو من المصريين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية.

وقد عمل البطالسة على استمرار الامتيازات التى منحها الاسكندر لليهود، كما استخدموا اليهود فى جيوشهم، وارتقى بعضهم إلى المراتب العليا. وبالمثل منح سلوقى الأول اليهود صفة المواطن على قدم المساواة مع اليونانيين. وقبل عهد الاسكندر كان اليونانيون يحتقرون الأجناس الأخرى ويعدونهم برابرة، تماما كما كان اليهود يزدرون بقية بنى الانسان باعتبارهم وثنيين، إلا أن الاسكندر كان يعارض التمييز العنصرى معارضة شديدة.

وعندما التقى اليونانيون لأول مرة باليهود أثاروا اهتمامهم. وكانوا يعتقدون أن نبيهم موسى كان على درجة غير عادية من الحصافة والبسالة وقام متعمدا بجعل عاداتهم مغايرة لعادات الشعوب الأخرى بغرض الابقاء عليهم كأمة متفردة[٣]. وعندما أخذ اليونانيون يعرفون اليهود على حقيقتهم بدأ الاحتكاك بين الجانبين. فقد كان اليهود يجتنبون الملذات الاجتماعية فى حياة المدنية اليونانية مثل المسارح وساحات الألعاب الرياضية والاحتفالات العامة، حتى لقد أثار عدم مراعاتهم للأصول الاجتماعية الامتعاض والغيظ. وقد اتهمت المسيحية بكراهة اليهود، إلا أن أسباب كراهة اليهود كانت قائمة منذ ٣٠٠ قبل الميلاد.

وبعد عام ٣٣٠ قبل الميلاد، انتشرت المدن اليونانية فى الشرق الأوسط، وكانت هذه المدن تميل إلى الديمقراطية ومناهضة الأباطرة والملوك، أما اليهود فكانوا بالطبع يؤيدون الأسرات الحاكمة، وليست الديمقراطيات، بشرط أن تترك لهم الحرية المطلقة لممارسة عاداتهم الخاصة. وحيثما وجدت جالية يهودية كبيرة فى مدينة من المدن اليونانية كانوا يقيمون لأنفسهم معبدا يهوديا ويعيشون سويا. وغالبا ما سمح لهم بإقامة أسلوبهم القضائى الخاص، وفقا لتقاليد الشرق الأوسط المرعية.

وقد منح اليهود خاصية الحصول على الوظائف الرسمية الهامة، ويحتمل أنهم كانوا يأملون أن يضمنوا من وراء هذه الوظائف أسباب أمنهم وطمأنينتهم بوصفهم أقلية غير محبوبة. وفى عهد البطالسة عمل كثير من اليهود، فى جباية الضرائب. وقد اختار اليهود أنفسهم الحى الذى كانوا يسكنونه فى الاسكندرية على مقربة من القصر الملكى.. وكانت اللغة العبرية غير مستعملة (لغة ميتة) فى يهودا نفسها، حيث كان اليهود يتكلمون اللغة الأرامية، وكانوا يتكلمون اللغة اليونانية تحت حكم البطالسة والسلوقيين باعتبارها كأنها لغتهم الأصلية. وفى عهد

(٣) هيكتايوس، ايود ديودورس سيكولس، اقتباس اس. ديفيز، والواقع أنه لم يكن موسى بل كان عزرا.

بطليموس فلايلفوس (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق.م) بدىء فى اخراج أول ترجمة باللغة اليونانية للعهد القديم (الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة) بالاسكندرية. وقبيل هذا التاريخ مباشرة استبدل كبار اليهود فى يهوذا اسم «يهوه» بالإسم «أدوناى» (وكان قد بدأ التفكير فى يهوه كرب العالمين وليس كإلة القبيلة) وقد استخدمت كلمة «كريوس (الرب) «لتعنى» «أدوناى» فى الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة، وبالتالى أصبح «شعب يهوه المختار»، دون أن يلحظ أحد، «شعب الرب المختار».

وقد كان اليهود فى مصر وسوريا يعيشون فى جو يونانى، وكانوا يدرسون الفلسفة اليونانية. وبينما كان الأغلبية مواظبة على مراعاة أحكام الدين، كانت أفكارهم مشبعة بالثقافة اليونانية، وترتب على هذا أن نقصت مشاركتهم أهل يهودا نظرتهم المحدودة شيئاً فشيئاً. وكان شغفهم بالفكر اليونانى قد أوجد فيهم ميلا إلى العالمية، إلا أن سيادة اليونانيين الفكرية كانت تمضى جنبا إلى جنب مع مذهب تعدد الآلهة، وشعر اليهود بأن الديانة اليهودية إذا ما ارتبطت بالثقافة اليونانية فإنها قد تخرج مجتمعا مثاليا، وبناء على هذا عقد اليهود المشتتون فى المهجر العزم على تحويل وهداية العالم اليونانى.

ولم يكن فى العالم القديم من يهتم بعلم الأعراق البشرية، لذا يتعذر علينا أن نكتشف من كانوا اليهود فى المهجر. ويقول سترابون (ولد عام ٦٣ قبل الميلاد)، العالم الجغرافى الرومانى ـ اليونانى، أن اليهود كانوا يملأون الدنيا حوالى سنة ٨٧ ق.م، بحيث «كان يصعب أن نجد مكانا فى الدنيا ليس به جالية ضخمة ذات نفوذ كبير».

وفى عام ٥٩ قبل الميلاد قال شيشيرون فى روما دفاعا عن فلاكيوس: «إنكم تعرفون كم يشكلون (اليهود) مجموعة ضخمة، وكيف أنهم عند اجتماعهم يلتصقون ببعضهم، وكيف أن نفوذهم جد عظيم فى الشئون السياسية».

وتختلف تقديرات نسبة أعداد اليهود فى العالم الخارجى الى أعدادهم فى يهودا، قبل ظهور المسيح بوقت قصير، اختلافا شديدا، بل انها تختلف من القول بأن «اليهود فى المهجر كان عددهم مساويا، على الأقل، لعدد اليهود فى يهودا» إلى القول بأنه «ربما كان عدد اليهود فى خارج فلسطين عشرة أمثال عددهم فى يهودا». ومن الأرجح أن عدد اليهود فى المهجر كان مساويا لأربعة أمثال أو خمسة أمثال عددهم فى يهودا، وهذا يعتبر تخمينا مقبولا. ويكتب الحاخام ريزين فى معرض حديثه عن فترة الحشمونيين (١٦٦ ـ ٣٨ ق.م) عن «تدفق اليهود المستمر إلى الدول الأخرى»، ويستطرد فيقول أن «كثرة عدد اليهود فى جميع أنحاء العالم قبيل غزو الروم لفلسطين لم تكن ناجمة عن كثرة التوالد الطبيعى، فان نسبة كبيرة منهم كانت من الوثنيين الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية»[٤].

ويشير جان جوستر إلى «حمى التهود» التى انتابت اليهود من سنة ٢٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٠٠ بعد الميلاد[٥]. ويشير الحاخام ريزين إلى «الزيادة الهائلة فى التهود» فى القرنين السابقين لظهور المسيح. وطوال خمسمائة عام ـ من ٣٠٠ قبل الميلاد الى ١٠٠ بعد الميلاد ـ كان اليهود أكثر تقدما فى الروحانيات عن اليونانيين والرومانيين. وكانت الديانة الرومانية قد أخذت تصبح أكثر وأكثر ديانة الطقوس الرسمية. وعلى العكس من ذلك، كانت الديانة اليهودية الجديدة بدعوتها للتوحيد، وإقبال الأفراد عليها، شديدة الأثر فى الجماهير. وتمثلت العقبة الرئيسية التى اعترضت التحول الى الديانة فى التشريع الذى يفرض عملية الختان (الطهارة) والمحافظة على اعتبار يوم السبت هو اليوم الدينى المخصص للراحة، والتزام طرق وأنواع خاصة فى الطعام. وكانت عملية الختان مانعا للرجال، إلا أن المحافظة على احترام يوم السبت كانت أمرا محبوبا ومألوفا. أما قوانين الالتزام فى الطعام فقد

---

(٤) الحاخام ريزين، رد فعل الوثنيين على المثل العليا اليهودية.

(٥) جان جوستر، اليهود تحت حكم امبراطورية الروم.

كانت تضطر المهتدى حديثا الى أن يترك أهله وأصدقاءه ويدخل فى المجتمع اليهودى، إذ لا سبيل له للحصول على الطعام اليهودى إلا عن هذه الطريق. وبالنظر إلى الألم الشديد المترتب على اتخاذ هذا القرار، فانه جدير بالاعتبار كم من المهتدين حديثا دخلوا فى الدين اليهودى.

ويكمن سر اجتذاب الديانة اليهودية للوثنيين فى سمتها الروحانية وفى اقبال المتعبد عليها مخلصا. وهكذا يبدو لنا أن الأصرار على عدد لايعد ولايحصى من القواعد بشأن الطعام، أمر تافه، إذا ما قورن بهذه الأساسيات الجوهرية. إلا أن اليهود كانوا على درجة شديدة من الصلابة وقسوة الفؤاد، إذ يجب أن يعيش، أولئك الذين تحولوا عن دينهم لليهودية، معيشة اليهود فيما بين اليهود، وأن يقطعوا أنفسهم نهائيا عن العالم الوثنى، لأنه لايمكن لهم أن يكونوا يهودا أو يونانيين أو فارسيين فى نفس الوقت.

وكانت نتيجة ذلك ظهور أنصاف اليهود ممن عرفوا بأنهم يخشون الله. فلقد استهوى هذه الفئة التوحيد بالله والقبول الروحانى للديانة اليهودية، إلا أنهم كانوا أما غير راغبين أو غير قادرين على الاستجابة لجميع الالتزامات المفروضة على الطعام. ويقدر جوستر عدد أولئك الذين «يخشون الله». بما يساوى عدد الذين غيروا دينهم تغييرا تاما، ولابد أن يكون مجموع هؤلاء قد شكل نسبة هائلة من سكان الامبراطورية. ولايعتبر هذا المعدل السريع للتحول الدينى داعية للدهشة عندما نفكر فى أن الديانة المسيحية كانت ستحول الامبراطورية الرومانية كافة إليها على مدى ثلثمائة عام أى فى المدة من عام ٣٢ بعد الميلاد إلى عام ٣٢٥ ميلادية.

والواقع أن اليونانيين والرومانيين، بكل أمجادهم الفكرية، كانوا يعانون من الجدب الروحانى، والانسان ان كل انسان يتحرق اشتياقا الى الله، حتى ولو كان ذلك بغير وعى أو شعور، واذا ما أثير وحرك ظمأه الى الله فقد يمكن غمر الأرض بفيض من ادراك الله كما يذخر البحر بالماء.

ولقد قام جوستر بدراسات عن المدن التى كان اليهود يشكلون بها جالية هامة فى العصر الرومانى، وشملت هذه الدراسات جميع المدن، على الأغلب، فى فرنسا، وايطاليا وصقلية، وسردينيا، وأسبانيا، وجزر البليار، واليونان، وتراسيا، ودلماسيا، وبانونيا، ومقدونيا، وآسيا الصغرى، وسوريا، وأرمينيا، وأرض الجزيرة (العراق)، وآشور وبابل، وشمال وجنوب فارس، وجزيرة العرب، واليمن، ومصر، وأثيوبيا، وليبيا وطرابلس وافريقيا حتى موريتانيا، والولايات الألمانية فى حوض نهر الراين. وقد جمع هذه القائمة من النقوش والمخطوطات ومن المقابر اليهودية والمصادر الأدبية.

ويزعم فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودى أن «نصف الجنس البشرى» كانوا من اليهود، وتذهب مراجع أخرى إلى القول بأنه، فى عهد المسيح، كان فى مصر مليون يهودى من بين سكانها البالغ عددهم سبعة ملايين، أى بنسبة ١٤ ٪، وكانت نفس النسبة فى طرابلس. وفى روما تحت حكم تيبريوس (٤٢ قبل الميلاد ــ ٣٧ بعد الميلاد) تواجد ستين ألف يهودى من بين سكانها الثمانمائة ألف، أى بنسبة ٥و٧٪. وقد قدر عدد سكان الامبراطورية فى عهد أوغسطس أوكتافيوس بخمسة وخمسين مليون نسمة، كان من بينهم خمسة ملايين من اليهود تقريبا، أو حوالى ٩ ٪. ويقول بر هيبريوس، وهو يودى تحول إلى المسيحية (حوالى سنة ١٢٧٠) بأنه كان هناك تحت حكم كلاديوس (٤١ ــ ٤٥ بعد الميلاد) سبعة ملايين يهودى أو ما يساوى ١٢٫٥ ٪ من سكان الامبراطورية.

واذا سلمنا بتقدير جوستر القائل بأن أنصاف اليهود (الذين يخشون الله) كانوا كثيرين مثل اليهود، فإنه يمكننا أن نرى أن اليهود كانوا يشكلون مشكلة خطيرة للغاية بالنسبة للروم. ولاتشمل الأعداد المذكورة آنفا اليهود فى فارس أو بابل أو جزيرة العرب، أى تلك المناطق التى كانت خارج الامبراطورية.

الامبراطورية الرومانية
فى القرن الاول بعد الميلاد

بريطانيا
المانيا
سارماتيا
المحيط الاطلنطى
الغال
بانونيا
داكيا
البحر الأسود
ارمينيا
دلماتيا
ايطاليا
تراقيا
كابادوكيا
مقدونيا
اسبانيا
سردينيا
روما
برنديزى
آسيا
قليقيه
البليار
آشور
بلاد النهرين
رودس
قبرص
كريت
البحر الابيض المتوسط
موريتانيا
نوميديا
يهوذا
بلاد العرب
افريقيا
ليبيا
مصر
البحر الاحمر
الامبراطورية الرومانية
لاحظ حجم يهوذا النسبى
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
اميال

خريطة (١٢)

ومن المليون يهودى الذين كانوا بمصر فى عهد بطليموس، كان بعضهم واسع الثراء، كما عمل كثير منهم فى جباية الضرائب. وهكذا يبدو أن الارتباط التقليدى بين اليهود والشئون المالية بدأ فعلا فى الاسكندرية قبل ظهور المسيح. فلما كتب يوسيفوس بعد عام ٧٠ ميلادية، أن اليهود لم يكونوا شعبا تجاريا، كان يشير إلى أهل يهودا. ويمكن عمل مقارنة شائقة بين اليهود والإيرلنديين فى القرون الثلاثة الأخيرة. فقد كانت أيرلندا دولة فلاحين فقراء، إلا أن المهاجرين الايرلنديين حققوا قدرا كبيرا من الشهرة عندما غادروا جزيرتهم الى بريطانيا والولايات المتحدة.

وقد خدم يهود الاسكندرية البطالسة قرابة ثلثمائة عام، إلا أنهم عندما وصل الرومانيين تركوا اليونانيين وأخذوا يقدمون المساعدات للغزاة الجدد لقاء مزايا خاصة من أباطرة الروم[٦]. وسحب أوغسطس الاستقلال الديمقراطى من السكندريين، ولكنه أكد امتيازات اليهود. وبناء على ذلك كره اليونانيون فى الاسكندرية اليهود باعتبارهم التابع الذى يدلله غزاتهم الرومان. ويبدو أن اليهود ينجحون دائما فى أن يكونوا فى صف الجانب الغالب.

فى صيف سنة ٣٨ ميلادية نزل أجريبا الأول[٧] فى الاسكندرية قادما من روما فخف اليهود لاستقباله استقبالا ملكيا رائعا، ولكى يبدى اليونانيون استياءهم من تدليل الرومان لليهود قلبوا الاحتفالات اليهودية فى قالب هزلى بأن ألبسوا شخصا معتوها لباسا ملكيا فكان ذلك داعية لأعمال شغب عنيفة، ونهبت أحياء اليهود وقتل عدد منهم، وأرسل كل من الجانبين مندوبين عنه الى روما، لكن كاليجولا المزدول الشائن السمعة كان امبراطورا حينئذ فلم يحصل أى من الجانبين على ما يرضيه.

---

(٦) اتش، آى. بل، «اليهود والمسيحيون فى مصر».
(٧) أنظر الفصل التالى.

وتجددت أعمال الشغب فيما بعد وكان اليهود هم المعتدين هذه المرة، ولم يكن «يهود الاسكندرية كلهم فلاسفة أفلاطونيين (على شاكلة فيلون)، ولا أيضا شهداء معذبين لكنهم كانوا غوغاء هائجين يثيرون الفتنة كلما عانوا من الفتنة»[٨].

وفي الرابع والعشرين من شهر يناير عام ٤١ ميلادية أغتيل كاليجولا، وأصبح كلاديوس إمبراطور، فأرسل الطرفان المتخاصمان وفدين الى روما، ولايزال ردكلوديوس موجودا، ومستترا بعبارات وضعت في دقة تامة، حيث وجه اللوم لليونانيين على كراهتهم لليهود، وأكد على جميع الامتيازات التي كانت لليهود، فقد كتب الامبراطور يقول: «ان من حقى أن أغضب غضبا لاهلين على كل من تسول له نفسه أن يكون السبب في تجدد هذا الشغب. وإني أعلنها صريحة أنكم أن لم تقلعوا عن هذا العداء المتغض البلغي فلسوف أكون مضطرا لأن أبين كيف يكون الأمير المتسامح عندما ينال منه الغضب. وإني آمر اليهود بأن يفيدوا مما في أيديهم ومن الخير العميم، كما آمرهم ألا يستقدموا اليهود من سوريا فيجبرونني أن أتوجس ريبة، وإلا فلأنتقمن منهم بكل وسيلة ممكنة كأنهم يثيرون فتنة عامة للعالم كافة»[٩].

وتستوجب أعمال الشغب في الاسكندرية الاهتمام لأسباب عدة، حيث أنها تنقض الادعاء بأن الأعمال العدوانية ضد اليهود نشأت عن المسيحية، إذ أن هذه الظاهرة نفسها كانت موجودة فيما قبل أيام المسيحية.

وأحياناً يستشهد بأعمال الشغب في الاسكندرية، كدليل على أن اليهود التعساء يتعرضون دائما للاضطهاد، إلا إن الحقيقة هي أنهم كانوا هم المدللين من الحكومة، بل إن كثيرا من اليهود السكندريين كانوا يشغلو وظائف هامة في

---

(٨) إس. ديفز «العلاقات العنصرية في مصر القديمة».

(٩) إتش. آى. بل: «اليهود والمسيحيون في مصر».

الأفرع المالية بالإدارة الحكومية مما أعطاهم القوة والنفوذ ولكن لم يدخل فى حساب أحد أن يجعلهم غير محبوبين.

وإذا كان المجال لايسمح بدراسة مفصلة لليهود فى كل دولة، فإن الفقرة التالية من رينان قد تؤخذ كأنموذج حيث، يقول: «إن اليهود قدموا فى وقت مبكر جدا الى بلاد الغال قبل مولد المسيح بزمن طويل، وقد أستقبلوا استقبالا طيبا ونجحوا فى تحويل ديانة كثير من الناس إلى اليهودية، فقد «كانت هناك جماعات من الناس ربطوا أنفسهم بالديانة اليهودية دون أن يكون لهم سلف واحد فى فلسطين. وعندما يتذكر المرأ أن يهود انجلترا وألمانيا قد جاءوا من فرنسا، فإن الأسف يتملكنا لأننا لانملك بيانات أكثر. وقد يدرك المرء أن يهودى الغال فى عهد جونتران أو شلبرك (المتوفى عام ٥٨٤ ميلادية) غالبا ما كان مجرد غالى يقر الدين الاسرائيلى.

* * *

فى الفصل السابق تركنا يهودا عام ١٠٤ قبل الميلاد، وهى تحت حكم يوحانان هيراكينوس، وسنستأنف السرد فى الفصل التالى، أما الآن فاننا نتوقف عن السرد التاريخى لنكتب بعض كلمات عن التطور الدينى لليهودية، ذلك التطور الذى جعل هذه الديانة جذابة بدرجة كبيرة للوثنيين فى الامبراطورية الرومانية.

* * *

رأينا كيف أن الشخص العادى من بنى اسرائيل قبل الفتح البابلى كان يؤمن بيهوه باعتباره الاله القبلى لاسرائيل، وأنه لم يكن لديه أى مفهوم للعالم الكلى، ناهيك عن الكون. وهذا فى رأيى المتواضع، لم يكن ليمنع موسى وإشعيا والأنبياء من تلقى تجارب روحانية حقيقية، لأنه من حسن طالعنا أن الله لم يقصر رحمته على أولئك الذين يعتبر علمهم اللاهوتى صحيحا من الناحية العقلية.

والحق أن دين يهوه الاسرائيلى أمر بعبادة إله واحد فقط، إلا أنه لم يستبعد وجود آلهة أخرى، إلا أنه عندما اندمج بنو اسرائيل فى أهل البلاد وأصبحوا على درجة كبيرة من الثراء اتسعت كذلك آفاق دينهم، وأدت تجارتهم المتزايدة الى النتائج الحتمية التى يمكن أن نراها اليوم فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية،ألا وهى المادية والوصولية، والذى يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال هو أن تقع الكارثة. إلا أنه كان من نفس تلك الكارثة أن قامت ديانة اليهود الروحانية وذهبت كل العوامل المادية التى كان الدين معتمدا عليها وبدأ يبرز حثيثا شيئا أكبر وأشد روحانية، وأكثر استدامة.

وتمر السجلات اليهودية مر الكرام على الفترة من أيام عزرا الى عهد أنطوخيوس، إلا أن الديانة اليهودية فى هذه الفترة كانت قد وصلت فى هدوء إلى مستويات أخلاقية[١٠] جديدة، حيث بدأت، اعتباراً من هذه المرحلة، تعظ بأن الله ينبغى أن يعبد لذاته، لا طمعا فى جزائه. وفى حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد ظهر كتاب يشوع بن سيراخ الذى يطلق عليه فى أسفار «الابوكريفا»، أى الاسفار الخفية أو الغير موثوق بها والتى لايعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة، ولكنها بالرغم من ذلك مليئة بالجمال والحكمة:

يا بنى، كن لين الجانب فى معاملاتك

يحبك الناس أكثر مما يحبون الجواد الكريم

ولتكن متواضعا كلما عظم شأنك

كى تنال رضى الله العظيم

---

(١٠) دجى. اف. مور، «الديانة اليهودية».

ما أكثر الذائعي الصيت المتعاظمين

لكن الله يوحي بسره إلى المتواضعين

فهو جلت عظمته

يقبل دعاء الخاشعين.

وما أطول سنى التقدم الهادىء التى تباعد بين هذا الشعر وبين مطالب صموئيل بإبادة العماليق بالكامل.

* * *

وبالنسبة للفرد، يمكن أن تؤدى المعاناة الى نتيجتين مختلفتين فقد يزداد عمق سمة المعاناة فتجعله أكثر رقة، وأشد شفقة، وأعظم عطفا على الآخرين، أو قد تجعله مغيظا من الله ومن الناس فتؤدى به إلى التعصب المتزمت جريا وراء الانتقام لنفسه. وقد ألحت زوجة أيوب على زوجها لكى يجافى الله ويموت ولكنه أجاب «الخير نقبل من عند الله والشر لانقبل؟» ويبدو لى أن رد فعل اليهود كان على هذا النحو، فان الكارثة المروعة التى حلت بهم، كارثة الغزو البابلى، أدت إلى نتيجتين، فأصبح البعض قديسين، بينما صار البعض الآخر متعصبين متزمتين، وكان للأنموذجين الاثنين أن يمضيا معا جنبا إلى جنب.

* * *

ولايمكن القول بأن «اليهود»، فى أى وقت من الأوقات، كانوا يؤمنون بهذا أو بذاك، فما أشد تعقيدات أحوال البشر. ومع هذا، يمكن الاستدلال على الاتجاهات التالية حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

أولا،لم تكن أغلبية اليهود الساحقة موجودة فى يهودا، بل إن اليهود كانوا يملأون الدنيا، وكان أكثرهم من الوثنيين الذين تهودوا حديثا. ثانيا، فى يهودا

اصطبغت الى حد كبير الكهنوتية الارستقراطية (وسرعان ما سميت بالصدوقية) بالهللينية وأصبحوا قابلين للرشوة وفاسدين للغاية. ثالثا، بدأ كثير من المفكرين الهادئين يفكرون فى الله باعتباره رب العالمين، وليس باعتباره رب اسرائيل دون غيرها. رابعا، قبل بابل، كان تفكير بنى اسرائيل تفكيرا قبليا، يعنى طائفيا وقد جاهر الأنبياء بأن اسرائيل أذنبت وأنه لا مفر لها من العقاب. لقد كانت الطائفة جميعها مسئولة، وجعل زوال يهودا والهيكل والهجرة الى الدول الأخرى الأفراد مسئولين عن نفس تقواهم وولائهم للدين.

وقد أدى الاحساس التدريجى بأن يهوه (أو أدوناى كما سمى أخيرا لتحريم نطق حروف الجلالة ى. هـ. و. هـ. ونطق الحروف أ. د. ن. ى. بدلا منها. المترجم) هو رب العالمين الى الارتياب فى أن اسرائيل قد لاتكون هى الوحيدة التى ستنال رحمته. وجعل «الاعتقاد بأن الدين الحق يجب أن يكون دينا شاملا، آخر الأمر، فى حد ذاته، وجعل من الديانة ديانة تبشيرية»[11].

ويستطرد دجى. اف. مور فيقول: «ان العبادة المقصورة على إله واحد فقط.. لاتعتبر، بمقتضى قانون الدين القومى، توحدا على الاطلاق»، لأن التوحيد هو الاعتقاد بوجود إله واحد فقط. «ولما عرف مضمون التوحيد، وجد أنه يصطدم بعدم شمول العلاقة المتبادلة بين الله وإسرائيل» وبناء على هذا تحمس اليهود حماساً شديدا لتغيير دين العالم. إلا أنهم ظلوا يتوقون للاحتفاظ بالدور الرئيسى لأنفسهم ومن ثم ظهر التعارض بين فكرة تحويل العالم الى الديانة اليهودية من جهة، وبين سيادة اليهود المستمرة، من جهة أخرى، وكان الحل هو أن الوثنى الذى يغير دينه يجيب أن تتبناه الطائفة اليهودية على غرار تبنى الأبناء والبنات فى العائلات فى العصور الكلاسيكية بحيث يصبح المتبنى عضوا كاملا فى عائلته الجديدة بعد أن ينكر عائلته القديمة انكارا تاما.

---

(١١) دجى. رف. موره «الديانة اليهودية».

كان هذا الاحتياط عقبة فى وجه كثير ممن يرغبون التحول لليهودية، لكنه ضمن الابقاء على الصفات المميزة للطائفة اليهودية، وهى استقلال الأصول السلالية. وهكذا لم يقدر للديانة اليهودية أن تكون ديانة عالمية بل بقيت ديانة طائفية معينة. وفى كثير من الدول كان العنصر السلالى «اليهودى ـ الفلسطينى» قليلا لدرجة غير ملموسة، إلا أن المجتمع اليهودى احتفظ بالمميزات الخاصة للحياة اليهودية.

وقد كان الاصرار على حتمية أن يصبح الوثنى المهتدى يهوديا من جميع الوجوه (تاركا جنسيته الأصلية وعلاقته بأسرته مع ضرورة معايشة الجالية اليهودية) أمرا حاسما، وكان ذلك هو مفتاح ظاهرة كيف يستطيع اليهود أن يتشابهوا فى كثير من الأمور، بالرغم من انتمائهم الى سلالات مختلفة لاتدخل تحت حصر. وتزعم الديانة اليهودية أنه قد أوحى بها من الله الى موسى عليه السلام، فلا يمكن والأمر كذلك أن يتغير شيء منها أو يتبدل من الوجهة العملية، دون القول ضمنا بأن الوحى الأصلى كان مخطئا، ولكن فى الواقع، تغيرت الديانة اليهودية تغييرا كليا. وقد تم هذا التغيير على أيدى الحاخامات الدينيين الذين استطاعوا أن يستنبطوا ايمانا روحانيا جديدا من آيات هنا وهناك فى العهد القديم. كما أنهم أيضا وضعوا بأنفسهم قواعد جديدة فرضت بمنتهى الصرامة. ولم يظهر الاعتقاد فى الخلود الا حوالى سنة ١٥٠ قبل الميلاد، إلا أن الديانة اليهودية كانت، حتى ذلك الوقت، تتطلع إلى عصر ألفى سعيد على الأرض ولم تكن تنظر إلى الحياة الأخرى.

وقد أعطى الغزو البابلى بتدميره الهيكل الفرصة لميلاد المعبد أو الكنيس (دار العبادة لليهود) حيث ما تجمع عدد منهم (عشرة على الأقل)*. وكان الكنيس (المعبد) فى الأصل مدرسة لتعليم التشريع الدينى، إلا أنه صار بعد ذلك بوقت

(*) يطلق على المصلين العشرة اللازمين لاقامة الصلاة إسم «منيان» بالعبرية (المترجم).

طويل مكانا للعبادة. وعلى ذلك كانت هذه المدرسة فى كل مكان اشارة إلى الجالية اليهودية حيث لم يكن للوثنيين مدارس دينية أو أساليب منظمة لتعليم دينهم.

وكانت مدرسة الكنيس «بيت ـ همدراش» هى الأداة الرئيسية التى يتم عن طريقها الدخول فى دين اليهود، وكانت مفتوحة للجميع. ولما كان التعليم فيها باللغة اليونانية واللغات المحلية الأخرى فان كثيرا من الوثنيين كانوا يستمعون إلى الدروس التى تلقى فيها. وقد تأثر بهذه الدروس كثير من الناس فى ذلك العالم البائس المتدهور.

ويقول دجى. اف. مور بأنه «فى عصر يوحانان المكابى، على سبيل المثال، لم يكن هناك يهودى واحد فى الجليل ولكن بعد قرن كان اليهود أغلبية عظمى». وكان بعض هؤلاء قد تحول من الوثنية قسرا كما سنرى فيما بعد، إلا أن بعضهم تحول طائعا مختارا.

و«ليست هناك طريقة لاحصاء التبشير اليهودى (لتحقيق التحول الدينى) فى الحقبة التى يتناولها بحثنا هذا، إلا أنه لاشك فى أنها كانت جد كبيرة، وكان الداخلون فى دين اليهود من أجناس اكثيرة، ومن كل طبقات المجتمع»[١٢]. وقد كان بعض من أكبر الباحثين البارزين فى القرن الثانى بعد الميلاد من أصل وثنى مثل الحاخام عقيبا الشهير.

* * *

وإذا كنا بصدد الدخول فى العصر الرومانى، فقد يكون من المفيد أن نذكر كلمة عن الامتيازات اليهودية التى أشرنا إليها فيما تقدم، حيث كان التسامح الدينى فى العصور القديمة أمرا محوطا بالاحترام الشديد الصادق. فقد كانت آلهة

---

(١٢) دجى. اف. مور «الديانة اليهودية».

الدول يجامل أحدهم الآخر، إلا أن إله اسرائيل كان عفيفا، لا يحب المعاشرة، وكان يرفض الأخذ والعطاء فى مجال التسامح الذى كانت الديانات الأخرى على أتم الاستعداد لتبديه له»[١٣]. وكان يبدو فى نظر الوثنيين غيورا يرفض السماح لعباده بأن يؤدوا كثيرا من الأفعال التى كانت اجبارية بحكم القانون.

وبالنسبة للحكومات الأخرى، كان اليهود يشكلون معضلة، فإما أن يجبروا على طاعة القانون وهنا كانوا يرفعون عقيرتهم بالشكوى على أساس أن ذلك اضطهاد دينى، وكان تلك فكرة لاتتلاءم أو تتناسب مع طبفة القدامى، أن أن يمنحوا الامتيازات التى تستثنيهم وحدهم من القانون. ولم يكن اليونانيون والرومانيون يعاقبون الناس بسبب معتقداتهم ولكن فقط بسبب أفعالهم.

ومن بين الامتيازات العديدة التى كانت ممنوحة لليهود وحدهم دون غيرهم الاعفاء من الخدمة العسكرية، ومن العمل أيام السبت، وفى روما عندما كان يجرى توزيع الغذاء على الفقراء يوم السبت كان اليهود ينالون نصيبهم يوم الأحد. واذا كان الغذاء من النوع الذى يرفضونه أخذوا بدلا نقديا عوضا عنه. وكان تصدير الذهب محظورا، إلا أن اليهود فقط كان فى أمكانهم جمعه وإرساله الى أورشليم.

وكان لليهود، فى بعض الجهات، أسواق خاصة للمواد الغذائية، كما كان لهم جهاز شرطتهم وقضاؤهم الخاص الذى يمكنه النظر فى القضايا المدنية والجنائية ويوقع العقوبات. كما كان لهم الحق فى عقد الاجتماعات العامة وتشكيل الجمعيات وجمع التبرعات وإنفاقها. ولم يكن لأى طائفة أخرى مثل هذا الحق. وكان تعدد الزوجات محرما بحكم القانون الرومانى، إلا أن اليهود كانوا قادرين على أن يجمعوا بين أى عدد من الزوجات كيفما شاءوا.

---

(١٣) جين جوستر، «اليهود تحت حكم الروم».

وكان على موظفى الحكومة أن يحضروا الاحتفالات العامة، وكانت اليمين القانونية التى يؤديها الموظف لدى استلام وظيفته تتضمن الاشارة الى صفات الامبراطور الإلهية، وعلى ذلك ففى بعض الأحيان كان اليهود لايعينون فى الوظائف، لأنهم كانوا لايقبلون أداء هذه اليمين. وفى مناسبات أخرى كان المسئولون يتنازلون عن هذه الرسميات بالنسبة لليهود فقط أو يتخذون صيغة أخرى لليمين القانونية. وعلى أية حال فقد وصل كثير من اليهود إلى مرتبة فارس رومانى كما كان هناك أعضاء من اليهود فى مجلس الشيوخ الرومانى. وليس بمستغرب كذلك أن تضج الطوائف الأخرى بالشكوى من أن اليهود ينالون جميع المزايا التى ينالها المواطنون الآخرون مع أنهم، يعنى اليهود، كانوا معفيين من معظم الواجبات».

ولم تسبب الثورات فى يهودا أى إنتقاص لهذه الامتيازات فى جميع أنحاء الامبراطورية. ففى أعقاب ثورة من هذه الثورات أخذ كثير من اليهود الى روما كرقيق، وعمل جزء منهم فى القصر الامبراطورى. وعلى مر السنين أعتقوا تدريجيا، وكان اليهود الذين أعتقوا من القصر معروفين للامبراطور فكانوا يرسلون الى الولايات بصفة مبعوثين شخصيين له لتوزيع الرسائل السرية وللتحقيق فى المشاكل. ويقال أن بوبيا عشيقة نيرون ثم بعد ذلك زوجته، كانت من المؤمنات بالدين اليهودى، وان كانت غير ملتزمة بكثيرر من قواعده. وعلى أية حال كانت تستخدم نفوذها الواسع فى مساعدة اليهود.

وكان أوغسطس يبعث بالهدايا القيمة إلى المعبد فى أورشليم وكان لزوجته ليفيا وصيفة يهودية. وقد عاش أطفال الأسرة اليهودية[١٤] عددا طويلا من السنين فى روما وكانوا على علاقة طيبة مع العائلة الامبراطورية، كما «انتقلت بعض

---

(١٤) انظر الفصل الثانى.

العادات اليهودية الى الدوائر الرومانية الوثنية، بل لعلها انتقلت كذلك إلى الدوائر الاجتماعية العليا. وكان اليهود نشيطين فى الحصول على مهتدين لآرائهم وعاداتهم الدينية»[١٥].

وكان سعيهم النشيط لتهويد الأهالى هو الذى سبب لهم المتاعب فى روما من آن لآخر، وبخاصة عندما كان الداخلون فى دينهم من «صفوف الطبقات الاجتماعية العليا»، ولايمكن أن توصف الشكايات من اضطهاد اليهود المخيف على أيدى الرومان بأنها تاريخية.

تواريخ تستحق الذكر

الفتح البابلى	٥٨٧ ق.م
الاسكندر الأكبر	٣٣٦ ـ ٣٢٣ ق.م
فتح الاسكندر لمصر	٣٣٢ ق.م
استبدال اسم يهوه باسم «أدوناى» حوالى	٣٠٠ ق.م
بدء الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة حوالى	٢٨٠ ق م

خاتمة

١ ـ بدأ التشتت بالفتح البابلى سنة ٥٨٧ قبل الميلاد.

٢ ـ وجد اليهود حياة أكثر ترفا وشمولا أرحب فى بابل ومصر وسوريا واليونان ولم يرجع الى يهودا سوى قليل منهم.

٣ ـ بعد عام ٣٠٠ قبل الميلاد تحول عدد كبير من الوثنيين الى الديانة اليهودية.

٤ ـ أدت الكارثة البابلية الى نتيجتين متضادتين.

أ ـ روحانية اليهودية التى تتخيل آلها واحدا لجميع البشر.

ب ـ قومية متعصبة ضيقة الأفق تطالب بالعزلة عن الجنس البشرى من غير اليهود.

---

(١٥) هنرى جى ليون «يهود روما القديمة».

الفصل الثامن

الهيروديون

(ملوك اليهودية عند مولد المسيح)

لم يكن هيرود بالكامل بشعا نازعا الى الشر.. فقد كان جذابا فى شبابه.. بل إن سحره وفتنته كانتا تسيطران على الرجال والنساء.. والرجل الذى استطاع أن يصادق أنطونيو أوغسطس لايمكن أن يكون خاويا أو خاملا. فلقد كان كل الناس يتملقون هذين الرجلين، وبخاصة عملاؤهما، ولك هيرود فقط اكتسب صداقتهما، وكان هيرود فقط هو الذى أصبح أمين سر أجريبا، وهو وحده الذى عينه أوغسطس مستشارا رسميا لحاكم سوريا الرومانى، ويوحى كل هذا.. بمقدرة هيرود الفائقة.. واثبات أن هيرود كان يملك هذه الصفات هو كفايته الإدارية.. فقد عرفوا أنهم يستطيعون الاعتماد عليه اعتمادا مطلقا. وكان السلام يرفرف على البلاد فى عهده، وانتعشت التجارة وأعيد بناء المدن وأقيمت مدن جديدة

ستيوارت بيرونى «حياة وزمن هيرود الأكبر».

الفصل الثامن

خلف إنهيار السلوقيين الشرق الأدنى فى حالة من الفوضى، ففى يهودا أدت ثورة المكابيين إلى انفجار ونشاط العدوانية الحربية، وأصبح الهدف الآن بوضوح ليس حماية الدين اليهودى، بل تقوية النفوذ اليهودى وامتداده»[1].

وفى عهد يوحانان هيراكينوس المتوفى عام ١٠٤ قبل الميلاد، زاد كثيرا العداء بين الحشمونيين (الأسرة الحاكمة) وبين الفريسيين (غلاة المتدنيين). وصاحب ذلك تزايد القومية العدائية التى كشفت عن نفسها فى التوسع الإقليمى عن طريق الغزو. ولما كان هيراكينوس مكروها فى وطنه فقد استخدم المرتزقة المجندين فى أسيا الصغرى. وبعد غزو ادومية استولى على ماريسا وأدورا فى سهل فلستيا، ومرة أخرى أجبر السكان على اجراء عمليات الختان. ومنذ الفتح البابلى كانت الرغبة الجامحة فى ادخال العالم فى دين اليهود آخذة فى الازدياد، ومع أن الحشمونيين لم يكونوا متدينين أصلا، إلا أنهم كانوا قوميين عدوانيين استخدموا القوة لادخال الناس فى دينهم.

وقد خلف يوحانان هيراكينوس إبنه يهودا، وكان يسمى بالاسم اليونانى ارستوبولس (١٠٤ ـ ١٠٣ قبل الميلاد)، وكان محبوبا من اليونانيين مع أنه، بناء على ما ذكره يوسفوس، قتل أمه وأخاه. وقد فتح الجليل الذى كان يسكنه أناس أطلق عليه اسم، الذين أجبروا على إجراء عملية الختان.

وفى عصر يوحانان المكابى لم يكن هناك فعلا يهود فى الجليل[2] حتى لقد أطلق عليها إشعياء إسم «جليل الوثنيين». ولابد أن يكون سلف أهل الجليل فى

---

(١) اميل شورر، «تاريخ الشعب اليهودى».

(٢) دجى. اف، موز «الديانة اليهودية».

عهد يسوع المسيح كانوا من الوثنيين[3]. وقد يزعج كثيرا من المسيحيين أن يسمعوا أن بعض الحواريين الاثنى عشر لاينتمى إلى الملة اليهودية.

وقد خلف ارستوبولس الكسندر جاناى (يوناثان) (١٠٣ ـ ٧٦ ق.م) الذى اتخذ لنفسه لقب ملك و«أثبت الملك ـ الكاهن الجديد أنه وغد أثيم لأن عهده كان عهد حروب، وامتدت مملكته بقوة السلاح إلى أن طابقت عمليا مملكة داود»[4].

وهاجم الكسندر جاناى (يوناثان) بطلميوس ولكنه صده بخسائر كبيرة فتحول شرقا واستولى على المدينة اليونانية جادارا، وفى عام ٩٦ قبل الميلاد غزا السهل الساحلى المصبوغ بالصبغة الهلينية واستولى على غزة وأحرقها. وبعدئذ غزا الجولان[5] حيث هزم هزيمة منكرة ووصل إلى يهودا هاربا عام ٩٠ ق.م. وكانت هذه الهزيمة إشارة لبدء الثورة التى دبرها الفريسيون واستنفدت سنتان من الحرب الأهلية موارد جاناى فطلب الاتفاق، إلا أن الثوار أصروا على قتله. واستمر القتال، وكان يساعد الثوار الأمير السلوقى ديمتريوس الثالث وهو من سبط شقيق أنطوخيوس ابيفانس، ومرة أخرى هزم جاناى.

إلا أن ظهور السلوقيين أزعج كثيرا من اليهود، وكان ذلك مدعاة لأن يحصل جاناى على المساعدة واستطاع أن يخوض الثورة بعد ست سنوات من الحرب الأهلية الوحشية. وقد احتفل بانتصاره بطريقة اتسمت بأبشع الأعمال البربرية فى التاريخ، حيث ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس أنه «بينما كان يحتفل مع محظياته على مرأى من المدينة كلها أمر بصلب ثمانمائة منهم (يعنى من

---

(٣) تاريخ كمبريدج القديم: المجلد التاسع.

(٤) تاريخ كمبريدج القديم، المجلد التاسع.

(٥) مرتفعات الجولان التى استولت عليها دولة اسرائيل الحديثة سنة ١٩٦٧ (المترجم).

الثوار)، وبينما كانت الحياة لاتزال تنبض فى أجسادهم أمر بذبح أبنائهم وزوجاتهم أمام عيونهم. وكان ذلك على سبيل الانتقام للضرر الذى أوقعوه به»[٦].

وما أن استرجع سلطته حتى استأنف حروبه العداونية. وبينما كان يحاصر قلعة على مقربة من جراسا (جرش) عام ٧٦ قبل الميلاد مات متأثرا من التسمم الكحولى بسبب الافراط فى تناول الخمر «وكان يعانى منه طوال سنوات ثلاث»، واجتاحت فتوحات جاناى البربرية مدن جنوب سوريا اليونانية كما تجتاحها عاصفة مدمرة، فأصبحت خرابا يبابا وكانت من قبل عامرة بالسكان[٧].

وخلفت جاناى زوجته سالومى الكسندرا التى حكمت تسع سنوات، وبادر ما تولت السيدات الحكم فى اسرائيل، إلا أن ذلك الأمر كان مألوفا فى الأسر المصرية واليونانية الحاكمة. وقد نصح جاناى زوجته، وهو على فراش الموت، بأن تفعل عكس سياسته وتنتهج سياسة التصالح مع الفريسيين بل وترتبط بنفسها معهم[٨]. وقد عملت الملكة مخلصة بهذه النصيحة فنعم حكمها بالسلام، لأن الفريسيين كانوا يحظون بتأيد شعبى واسع. وقد عين ابنها هيراكينوس الثانى حاخاما أعظم، وكان رجلا ضعيفا يسيطر عليه الفريسيون. وورث ابنها الآخر، إرسطوبولس الثانى روح العنف عن أبيه. وعندما توفيت الأم نشبت الحرب الأهلية بين الأخوين وكان الصدوقيون فى صف إرسطوبولس الثانى.

وكان يوحانان هيراكينوس قد عين أنيباتر الادومى حاكما على ماريسا وأدورا. وقد تزوج ابنه انيباتر الثانى من وريثة تبرا التى أنجبت له أربعة أبناء هم فزال وهيرود ويوسف وفيروراس. ومع أن أصل سلالة العائلة كان من الادوميين الا أنها أجبرت على اعتناق الديانة اليهودية على يد يوحانان هيراكينوس[٩].

---

(٦)

(٧) تاريخ كمبريدج القديم.

(٨) يوسيفوس فلافيوس «آثار اليهود».

(٩) شجرة سلالة الهيروديين.

المناطق التى اجتاحها الكسندرجاناى (يوناثان)

البحر الأبيض المتوسط

يهــــوذا

المناطق التى اجتاحها الكسندر

ملاحظة : تحول الأدوميون والأيتوريانيون قسراً الى الديانة اليهودية.

خريطة (١٢)

وتولى انيباتر الثانى السلطة تحت إمرة هيراكينوس الثانى، الرجل الضعيف الذى سرعان ما أجبره على الانسحاب أخوه العنيف أرسطوبولس الذى نصب نفسه حاخاما أعظم. ولكن حرض أنيباتر النبطيون على تأييد هيراكينوس الثانى وحوصر إرسطوبولس الثانى فى المعبد.

وفى غضون ذلك، أى عام ٦٦ ق.م. أرسل مجلس الشيوخ الرومانى بومبى قائدا عاما للشرق. وفى عام ٦٤ ق.م. وصل بومبى الى دمشق حيث استقبلته ثلاثة وفود يهودية متنافسة، وكان وفد منها من قبل هيراكينوس وعلى رأسه انيباتر، والثانى من أرسطوبولس والثالث من شعب يهودا ليلتمس إبعاد الحشمونيين جميعا. واستولى بومبى على أورشليم ودخل قدس الأقداس، إلا أنه على نقيض انطوخيوس أبيفانس لم يستولى على الكنوز، وأرسل إرسطوبولس الى روما ليحضر موكب نصر بومبى، بينما حصلت ديلوماسية انيباتر لهركانيوس الثانى على لقب الحاكم.

وحرر بومبى المدن اليونانية التى فتحها الحشمونيين، بما فى ذلك كل السهل الساحلى واحتفظت يهودا بجزء من ادوميا الجليل وجزء من بيريا التى هود سكانها رغما عنهم. ولكن وضعت يهودا نفسها، مع حاكمها اليهودى، تحت ادارة الوالى الرومانى فى سوريا. وهكذا مثلما كان التنافس على منصب الحاخام الأعظم دافعا للسلوقيين للحضور الى أورشليم، أحضرت الحروب الأهلية الحمشونية الرومان.

كان انيباتر هو القوة الحقيقية، فى أورشليم، وراء هيراكينوس، ولقد أثار الكسندر بن إرسطوبولس الثانى حرب عصابات إلا أنها أخمدت. وعقد هيرود الابن الثانى لانيباتر صداقة وطيدة مع ضابط رومانى شاب اسمه مارك انطونيو.

وكانت روما فى تلك الفترة تمزقها الحرب الأهلية بين بومبى ويوليوس قيصر. وفى شهر أغسطس عام ٤٨ قبل الميلاد هزم بومبى فى فرسالوس وفر إلى مصر، حيث أغتيل عندما كان ينزل الى البر. وسرعان ما وصل يوليوس قيصر بعد

ذلك على رأس قوة صغيرة، الا أنه وجد نفسه فى موقف حرج، لأن الحامية الرومانية كانت فى صف بومبى. وسرعان ما حول أنيباتر صديق بومبى صداقته فى اتجاه القيصر. فسار على رأس ثلاثة آلاف يهودى لمساعدة قيصر فى مصر مغريا ملك النبطيين على إرسال خيالته، وأعرب قيصر عن امتنانه العميق مظهرا مودة ملحوظة لليهود. وفى مقابل هذه المساعدة سمح لهيراكينوس بضم مدينة يوبا اليونانية التى حررها بومبى والتى كانت مخرج أورشليم الوحيد الى البحر.

وأغرى انيباتر اليهود فى مصر على مساعدة قيصر، كما فعل يهود روما وهكذا تحول انيباتر بمهارة فائقة الى الجانب الرابح. وأعلن قيصر أن منصب الحاخام الأعظم وراثيا فى سلالة هيراكينوس، وحصل انيباتر على لقب مواطن رومانى، وسمح له ببناء أسوار أورشليم، وذلك بمقتضى قرار أصدره قيصر فى انطاكية فيما بين الثالث عشر والثامن عشر من شهر يوليو عام ٤٧ ق.م[١٠]. وقد حكم على يهودا بأن تقدم ربع محصولها من القمح الى روما. ولم يتمكن انيباتر من إعادة بناء أسوار أورشليم وحسب، بل أضاف سورا خارجيا جديدا أيضاً على الجانب الشمالى[١١].

وفى ذلك الوقت كان هيرود الابن الثانى لانيباتر فى السادسة والعشرين من عمره، وسيما طويل القامة، ذا صفات خلابة، وكان على علاقة طيبة مع اليهود والعرب واليونانيين والرومانيين والمصريين، كما كان قويا شديد المراس نظرا لمعيشته فى معمعان الحروب الأهلية التى لم تتوقف، وفى خضم الخيانة والاغتيالات وإراقة الدماء فى يهودا. وقد أثار رجل يدعى ايزيكيا (حزقيال) حرب العصابات اليهودية فى الجليل، وأرسل هيرود لاخماد هذه الثورة وسرعان ما هزمهم وقتل إيزيكيا.

وقد أثارت السلطة المتزايدة، التى أتيحت لهذه الأسرة الأيدومية غيرة الارستقراطية الدينية، فحرضت هيراكينوس، الرجل الضعيف، على محاكمة هيرود

---

(١٠) ستيورات بيرون «حياة وحكم هيرود الأكبر».

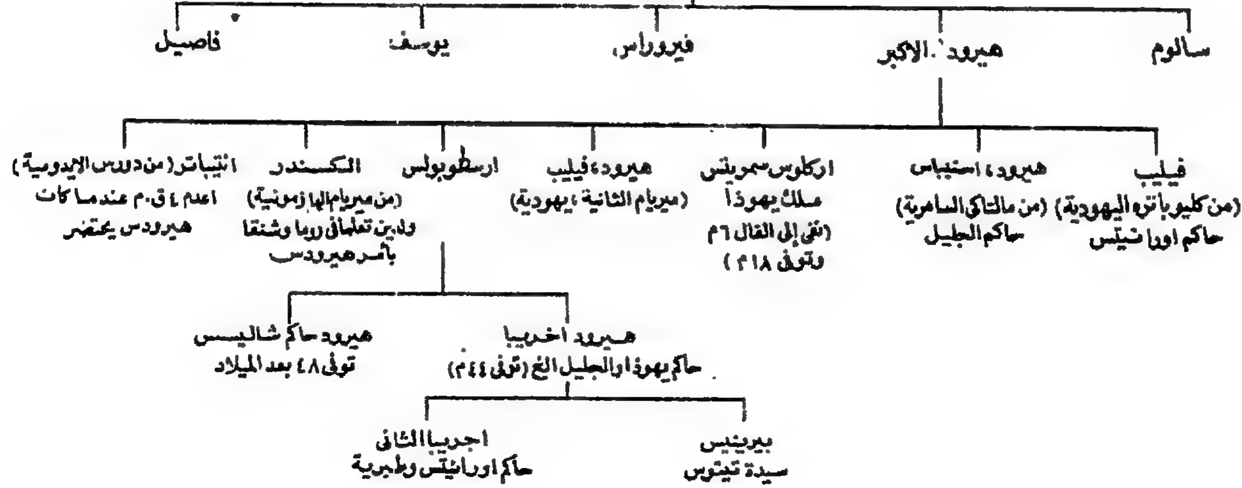
(٢) خريطة (١٨).

تسوية بومبي
٦٣ - ٤٨ ق.م

بيروت
البحر الأبيض المتوسط
صيدا
المدن الحرة
دمشق
ولاية سوريا الرومانية
صور
وصيدا
بتولمايس (عكا)
الجليل
هيبوس
جدره
السامرة
ديكابوليس (المدن اليونانيه)
بوسرا
جيرسا
السهل الساحلي (مدن ذات صبغة هلينية)
أبولونيا
يافا
بيريه
عمون (فيلادلفيا)
يهودا
اورشليم
ادوميا
الخليل
البحر الميت
غزة
ماسادا
ادوميا
النبط
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠
ميل

المناطق التي تحكمها روما بواسطة حكام يهود تابعين لروما

خريطة (١٤)



شجرة سلالة الهيروديين
انتيباتر الأول (توفى ٧٠ ق.م)
انتيباتر الثانى (توفى ٤٣ ق.م)
سالوم
هيرود الاكبر
فيروراس
يوسف
فاصيل
فيليب (من كليوباترة اليهودية) حاكم اورانيتس
هيرود، انتيباس (من مالتاكى السامرية) حاكم الجليل
اركلوس سمويتس ملك يهوذا (نفى إلى الغال ٦م وتوفى ١٨م)
هيرود، فيليب (ميريام الثانية، يهودية)
ارسطوبولس
الكسندر (من ميريام الهازمونية) ولدين تعلما فى روما وشنقا بأمر هيرودس
انتيباتر (من دوريس الإيدومية) اعدم ٤ ق.م عندما كان هيرودس يحتضر
هيرود اجريبا حاكم يهوذا والجليل الخ (توفى ٤٤م)
هيرود حاكم شاليسس توفى ٤٨ بعد الميلاد
بيرينيس سيدة تيتوس
اجريبا الثانى حاكم اورانيتس وطبرية

أمام السنهدرين وهى هيئة مؤلفة من الفريسيين والصدوقيين والأعيان. وكان واضحا أنها سوف تحكم بإعدام هيرود لقتل ايزيكيا، وبناء على ذلك، فر إلى سكتوس قيصر الوالى الرومانى فى سوريا الذى عينه حاكما على سوريا الجنوبية والسامرة. وقد أقنع هذا الحادث هيرود بعدم الوثوق فى اليهود وضرورة الاعتماد على صداقة روما».

وظلت الحروب الأهلية الرومانية قائمة، فقتل سكتوس بأيدى عصبة بومبى التى كانت مجتمعة فى بارثيان. وفى الخامس عشر من شهر مارس ٤٤ قبل الميلاد قتل يوليوس قيصر فى روما. ويصف سوثينوس[١٢] حزن يهود روما العميق على يوليوس قيصر الذى كان قد أفاض عليهم فضلا وخيرا كثيرا، حيث أكد حقوقهم فى ممارسة دينهم والتخلف عن الاحتفالات الرسمية، وسمح لهم بجمع الأموال وارسالها الى أورشليم وأعفاهم من الخدمة العسكرية.

وجاء كاسيوس أحد قتلة قيصر إلى سوريا واليا عليها سنة ٤٣ ق.م. وغير انيباتر صديق قيصر المبدأ مرة أخرى، اذ كان كاسيوس فى حاجة إلى المال فجمع له أنيباتر مبلغا كبيرا من يهودا. وإبان هذه الأزمات قتل أنيباتر بالسم الذى دسه له منافسوه فى أورشليم، إلا أنه كان قد استطاع أن يكسب كاسيوس الى جانبه فى الوقت المناسب، فأرسل كاسيوس نجدة إلى هيرود الذى كان لايزال حاكما على سوريا الجنوبية، وسيطرت الفوضى على يهودا، وكان هيراكينوس الثانى طاعنا فى السن، وعمل على تشجيع أعداء هيرود. وهكذا بقيت يهودا فى الفوضى بسبب الحروب الأهلية والدسائس.

وتحركت الجيوش الرومانية المتنافسة بعضها صوب بعض فى اليونان، وكان مارك أنطونيو واكتافيو ن (أوغسطس المستقبل) على رأس حزب يوليوس قيصر، بينما كان بروتس وكاسيوس على رأس الجمهوريين. وكان لهيرود صديق حميم

---

(١٢) حياة القياصرة، سوتينوس.

فى كل من الجانبين المتخاصمين ـ مارك أنطونيو وكاسيوس اللذين وطد بعناية صداقته معهما فى سوريا. واذ كان هيرود يأمل فى أن يخلف هيراكينوس فقد تقدم لخطبة ماريام حفيدة الرجل العجوز آملا أن يستطيع بذلك التسلل الى الأسرة الملكية. وكان هيرود متزوجا بالفعل، ولكن كانت الديانة اليهودية تسمح بتعدد الزوجات.

وفى أكتوبر عام ٤٢ ق.م. هزم مارك أنطونيو واكتافيوس بروتس وكاسيوس فى فيلبى. وفى سنة ٤٣١ ق.م جاء مارك أنطونيو الى صور حيث رحب به صديقه القديم هيرود، كما جاءت إليه وفود من يهودا لترفع شكواها ضد هيرود، إلا أن إلحاحهم وازعاجهم كان سببا فى إغضاب انطونيو الذى أمر بالقبض عليهم، وحصل كل من هيرود وأخوه فازال على لقب حاكم مقاطعة.

ومن سوء الطالع أن أنطونيو ذهب إلى مصر حيث وقع فى أسر كليوباترة التى أمضى معها عام ٤١ ـ ٤٥ ق.م، وغزا البارثيون سوريا دون أن يلقوا أية مقاومة وكانوا قد اصطحبوا معهم أنطوجينوس ابن إرسطوبولس الثانى حفيد الكسندر جاناى[١٣]. وقد دعى هيراكينوس الثانى فازال الى مؤتمر حيث ألقى القبض عليهما بطريقة غادرة وقتل فازال بينما نفى هيراكينوس الى بابل وأصبح أنطوجينوس ملكا وحاخاما أعظم.

وفجأة وجد هيرود نفسه، والذى كان منذ ستة أشهر مضت الصديق المبجل لحكام روما، محاطا بالأعداء، وهاربا من أورشليم. وترك هيرود عائلته فى قلعة مسارا فارا الى مصر. وكان مارك أنطونيو قد سافر الى روما، فوجهت كليوباترة الدعوة إلى هيرود الشاب الوسيم لتمضيه الشتاء معها، ولكن هيرود أبى أن يضيع وقته فى الغزل والمداعبة. ومع أن الوقت كان شتاء وكان السفر بالبحر يعتبر مخاطرة

(١٣) شجرة سلالة الحشمونيين.

كبيرة، فإنه أبحر إلى رودس وتحطمت السفينة التى كانت تقله تقريبا فنزل إلى البر معدما موحلا، إلا أنه لم يكن قد فقد فتنته الشخصية فاستطاع، وهو فى رودس، أن يجمع من المال ما يكفى لاعداد سفينة رائعة ذات صفوف ثلاثة من المجاديف وصل بها الى برنديزى فى صورة ملكية. وقد رحب به مارك أنطونيو فى روما، واكتسب صداقة أوكتافيوس الشاب، ووافق مجلس الشيوخ بالاجماع على قرار بتعيين هيرود ملكا على يهودا.

ومن حسن حظ هيرود أن أنطوجينوس منافسه الحشمونى كان قد ربط نفسه بالبارثيين، وبالتالى تأكد لهيرود معاونة روما التامة. وعلى الرغم من ذلك كان نجاحه السريع مكافأة غير عادية لشخصيته «فلقد فتح هيرود روما، ولازال باقيا أمام الملك هيرود أن يفتح أورشليم»[١٤]. وفى غضون ذلك كان البارثيون قد انسحبوا تاركين أنطوجينوس ملك يهودا.

وعلى حين فجأة نزل هيرود فى بتولمايس فى أوائل عام ٣٩ قبل الميلاد. وقد أتاحت له زيارة خاطفة قام بها للجليل، التى كان حاكما عليها فيما سبق، أن يحصل على المجندين، ومن ثم تحرك بسرعة جنوبا على السهل الساحلى مستوليا على يوبا ثم استأنف تقدمه إلى ادوميا حيث حرر أسرته التى حاصرها أنطوجينوس فى مسادا، ودونما راحة تحرك هيرود شمالا حيث ضرب الحصار على أورشليم، وفى أثناء ذلك جاهرت السامرة، التى دمرها الحشمونيين تدميرا ذريعا، بهيرود. وأصبحت أورشليم الآن محاصرة من كل جانب، ولكنها قامت مقاومة مستميتة ولم يتمكن هيرود من الاستيلاء عليها.

وكان من حسن طالع هيرود أن مارك أنطونيو نزل فى سوريا عام ٣٨ قبل الميلاد فتبادل الصديقان التحية واقترض هيرود فرقتين رومانيتين من صديقه، وبين

---

(١٤) ستيورات بيروتى، «حياة وعصر هيرود الأكبر».

مناظر العنف والدم المرافق اقتحمت قوات هيرود أورشليم مستولية عليها، وأعدم انتوجينوس وأعلن هيرود نفسه ملكا. وهكذا منذ ثورة يوحانان المكابى عام ١٦٦ قبل الميلاد، ظل العنف يمزق فلسطين والدم يجرى فيها أنهارا طوال المائة والثمان وعشرين عاما التالية.

وفى عام ٣٢ قبل الميلاد قطع أنطونيو الذى كان يعيش مع كليوباترة علاقته مع أوكتافيوس. وكانت الملكة التى تمقت هيرود نظرا لصده إغوائها له عام ٣٠ قبل الميلاد قد أغرت أنطونيو ليعطيها سوريا والسامرة وحتى أريحا، إلا أن أنطونيو هزم فى الثانى من شهر سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد على يدى أوكتافيوس فى معركة اكتيوم ومات بعد ذلك وقت قصير. وكان على هيرود صديق أنطونيو الحميم أن يتحول إلى الجانب الآخر، فأبحر ليقابل أوكتافيوس المنتصر فى جزيرة رودس. ومرة أخرى كسبت جاذبيته الموقف وثبته أوكتافيوس فى مملكته.

وجاء أوكتافيوس الى سوريا ثم سار إلى مصر إلى جانبه هيرود وسط هتافات الجماهير (لم يكن هناك بطبيعة الحال أية مدن يهودية على السهل الساحلى)، وهو ما أقنط أعداء هيرود، الذى كان فى عهد الحروب المستمرة دائما فى الجانب الفائز.

وابتداء من عام ٤٠ قبل الميلاد فصاعدا تمتعت يهودا تحت حكم هيرود بالثراء والأمن لأول مرة خلال مائة وست ثلاثين سنة، حيث كتب له النجاح بفضل سياسة المودة التى كان ينتهجها مع و،ما وبفضل اتصالاته الشخصية مع أوغسطس. وكانت مملكة هيرود هامة بالنسبة لروما، لأنها كانت فى منتصف الطريق بين سوريا ومصر، وهما ولايتان من أغنى الولايات فى الامبراطورية. ثانيا، كانت بارثيا أقوى منافس لروما، وكان من الأهمية بمكان أن يظل الشرق الأدنى مواليا لروما. ثالثا، كانت تجارة الشرق الغنية تحمل عن طريق القوافل من عدن عبر مصر وسوريا مارة بأقليم النبطيين أقارب هيرود من ناحية أمه.

كانت يهودا سببا فى متاعب لاحصر لها، إلا أنها كانت مستقرة ومخلصة تحت حكم هيرود. ونتيجة لذلك ترك الاقليم وشأنه مع أدنى ما يمكن من التدخل الامبراطورى، وكان هيرود إداريا ممتازا مثلما كان سياسيا بارعا. وكانت حكومته أقل فسادا من حكومة روما، وكانت الطرق مأمونة والتجارة منتعشة ويهودا مزدهرة. وقد ملأ هيرود الشرق الأدنى بالمدن والمسارح والقلاع، وشيد مدينة رائعة جديدة وميناء فى قيصرية، لأن فلسطين كانت تفتقر إلى الموانىء الطبيعية، وكانت ذروة أعمال هيرود إعادة تشييد المعبدفى أورشليم.

كانت سيرة هيرود العامة مشرفة إلا أن حياته العائلية كانت مأساة مفجعة. ولعله أراد أن يتزوج مريم لكى يتسلل إلى العائلة الحشمونية ولكنه أحبها أيضا. ولم تبادله هى الحب، بل أنها كانت تفكر فقط فى إعادة الحشمونيين وأغرت هيرود على تعيين أخيها إرسطوبولس الثالث(١٥) حاخاما أعظم لكى تستخدمه فى تدمير زوجها. وأوغرت دسائس مريم صدر هيرود الذى احتال لاغراق إرسطوبولس فى أريحا.

وصارت الحياة فى القصر جحيما لاتطاق فقد كان هيرود يحب مريمنى لدرجة العبادة ولكنها كانت تمقته. وكانت سالومى أخت هيرود تكره مريم كرهاً كبيرا وأقنعت أخاها بأنها غير مخلصة وأمام مجلس اختير أعضاؤه من المؤيدين لسالومى حوكمت مريم وحكم عليها بالاعدام ونفذ الحكم. وكاد هيرود الذى كان يحبها من كل قلبه، أن يصبح مجنونا كئيبا وطاغية مرتابا، وكانت هذه واحدة من أكثر المآسى التى تتخللها المفاجآت المفجعة والأحداث المحزنة فى التاريخ.

---

(١٥) شجرة السلالة.

وكان اليهود أيضا يكرهون هيرود لتعاونه مع روما، مع أنه جلب لهم بذلك السلام والازدهار، وربما كان ذلك مصير هيرود الاغتيال لو لم يكن يحميه حرسه الخاص المكون من أربعمائة من رجال الغال(١٦).

وبالإضافة إلى حرسه الخاص احتفظ هيرود، بجيش نظامى من المرتزقة يضم التراقيين والألمان والايدوميين، كما ضم أبناء آسيا الصغرى. وقد بنى المستعمرات العسكرية لهؤلاء العسكريين المتمرسين، وبالتالى أضاف مزيدا من العناصر الغريبة إلى الخليط السلالى فى فلسطين.

وفى عام ٢١ قبل الميلاد زار أوغسطس انطاكية حيث ذهب هيرود لتقديم ولائه. وكان هناك اضطرابات فى أورانيس (حوران) جنوب دمشق فأعطى أوغسطس المنطقة جميعها لصديقه هيرود(١٧) مما كان سببا فى مضايقة النبطيين. وكانت القومية غير ذات بال فى نظر الروم، ولم يكن هناك يهود فى اورانتس، إلا أن هيرود كان موّاليا وكان اداريا قديرا. ثم قام هيرود بزيارة رسمية لروما حيث استقبل استقبالا رائعا وقد اصطحب معه، لدى عودته، الكسندر وأرستوبولس، ابنيه الباقيين على قيد الحياةمن زوجته مريم واللذين كانا فى روما حيث تلقيا تعليمهما.

وكانت أخريات سنين هيرود جد مفجعة، حيث كانت له عشر زوجات وكان أبناؤهن ينفر بعضهم من بعض، وكان أكثرهم نشاطا فى الكيد والدس الكسندر وإرسطوبولس ابنى مريم اللذان انتهى أمرهما الى حبل المشنقة بناء على أمر الملك الطاعن فى السن.

---

(١٦) الحاخام ريزين، «رد فعل الوثنيين للمثل العليا اليهودية».

(١٧) خريطة (١٥).

وأصبح هيرود يشكو من مرض عضال أثر فى قواه العقلية، كما كان يشكو من الألم الموجع المستمر علاوة على اصابة الجزء الأسفل من جسمه بالنغل (الغرغرينا). وصار القصر مستشفى للمجاذيب، واتهم هيرود أكبر أولاده انبياتر وأمر باعدامه بينما كان هيرود نفسه على شفا الموت. ولابد أن يكون فى هذا الوقت ـ بينما كان يحتضر، ولعله كان وقتئذ فى هذيان الحمى والألم الجسمانى البالغ ـ قد أصدر الأمر الذى جعله مرذولا شائن السمعة، وهو الأمر الخاص بذبح الأبرياء فى بيت لحم.

وقد مات هيرود فى أريحا فى شهر أبريل سنة ٤ قبل الميلاد وكان فى السبعين من عمره، وقد كرهه اليهود، ويمكن الحكم بصورة أفضل على ما قدمه من أجلهم بما حدث بعد موته.

* * *

ترك هيرود، فى وصيته، يهودا لابنه أركلوس (أرخيلاس) وكانت أمه سامرية[١٩] وترك الجليل وبيريا انتباس شقيق اركلوس (ارخيلاس)، وتولى فيليب، وكانت أمه يهودية، جولونيتس وأورانيس وتراكونيتس. وقد ذهب وفد شعبى من يهودا إلى روما للمطالبة بالحكم الرومانى المباشر وإبعاد أسرة هيرود، إلا أن أوغسطس أكد وصية هير د. وعلى أية حال، كان حكم أركلوس (ارخيلاس) سيئا للغاية لدرجة أن أوغسطس نفاه إلى بلاد الغال سنة ٦ بعد الميلاد، وانتقلت يهودا لتصبح تحت الحكم الرومانى المباشر، كما طلب بذلك الوفد الشعبى، واحتفظ هيرود انتياس وفيليب بولاياتهما. واختار حاكم يهودا مدينة هيرود اليونانية الجديدة، قيصرية (قيساريا) مقرا لحكمه. وفى عام ٢٧ بعد الميلاد عين بونتيس بيلاطس حاكما حيث استمر لمدة عشر سنوات. وكان اداريا حازما وأقل فسادا من أسلافه[٢٠] إلا أن اليهود كانوا يعارضونه معارضة شديدة. وقد هيأ لأورشليم موردا

(١٩) انجيل متى الاصحاح الثانى / ٢٢.

(٢٠) آف. ام. آبل، «تاريخ فلسطين».

ممتلكات هيرود الأكبر

البحر الأبيض المتوسط

سوريا

دمشق

هيرود يأتي من روما ٣٩ ق.م

الجليل

بحر الجليل

حمم بركانية

ديكابوليس

المدن اليونانية

قيصرية

السامرة

هيرود يستولي على أورشليم ٣٨ ق.م

يهوذا

أريحا

أورشليم

الأدوميين

البحر الميت

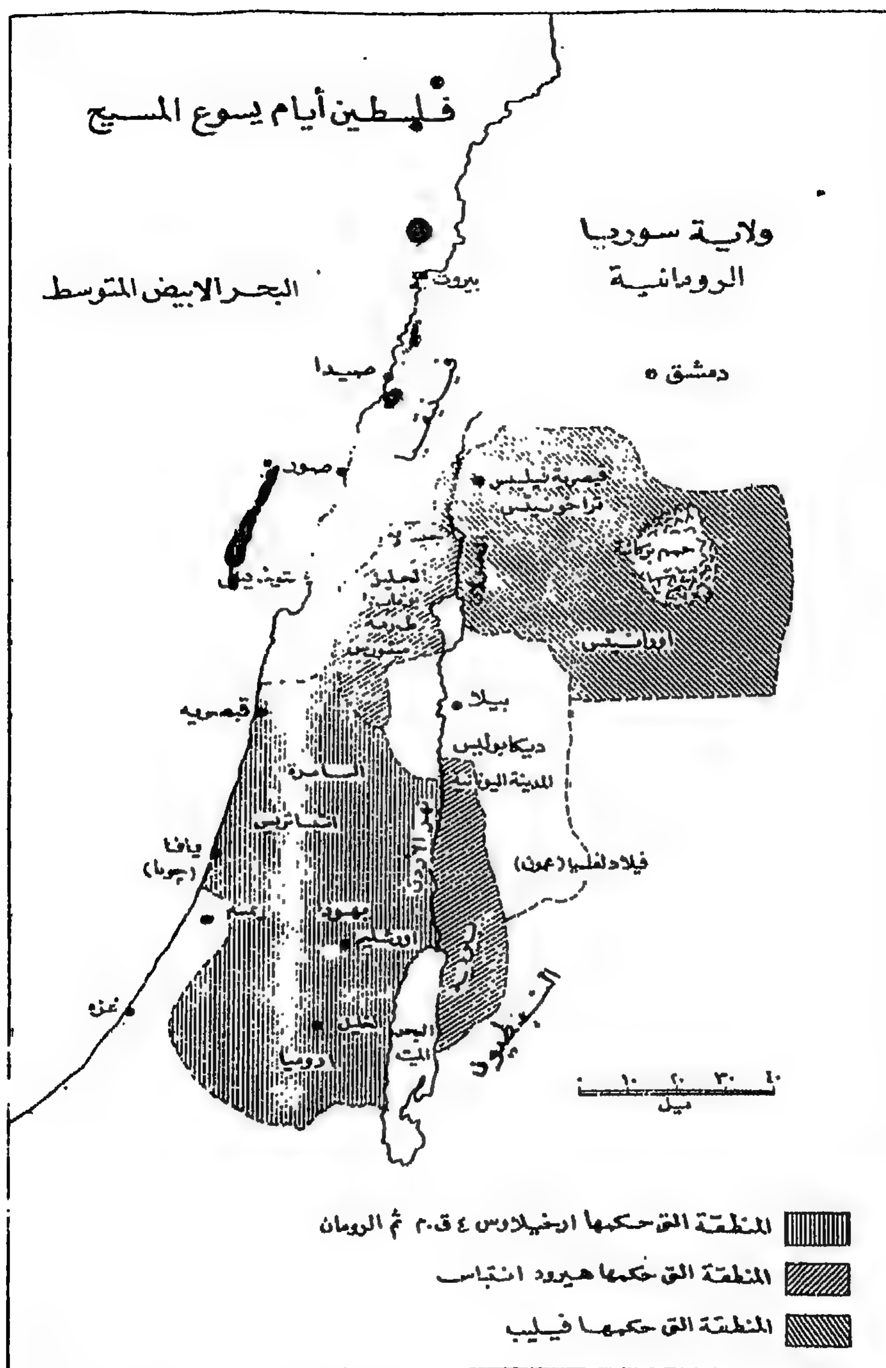
عمون (فيلادلفيا)

ممتلكات الملك هيرود

خط سير هيرود ٣٩ ق.م

ميل

خريطة (١٥)


فلسطين أيام يسوع المسيح
ولاية سوريا
الرومانية
البحر الابيض المتوسط
بيروت
صيدا
دمشق
صور
قيصرية
ديكابوليس
المدينة اليونانية
فيلادلفيا (عمون)
يافا
غزه
دوميا
الميت
المنطقة التي حكمها ارخيلاوس ٤ ق.م ثم الرومان
المنطقة التي حكمها هيرود انتباس
المنطقة التي حكمها فيليب

خريطة (١٦)

منتظما للمياه، الأمر الذى كان ضرورة ملحة. وقد أعده بأن بنى مجرى ماء يرتفع على أعمدة (مجرى عيون) يمتد لمسافة سبعة وثلاثين ميلا، وفى هذا يكتب يوسيفوس: «غضب اليهود غضبا شديدا بسبب الخطوات التى اتخذها لامداداهم بالماء»[٢١]. وقد أنفق فى هذا الغرض أموالا من كنوز المعبد. ولعل الشكاوى المستمرة المتحاملة أحياناً ـ التى رفعها اليهود الى تيبريوس ضد بيلاطس هى التى جعلته يتردد فى اطلاق سراح يسوع، «إن اطلقت هذا فلست محبا لقيصر» فهل كان معنى ذلك تهديدا بإرسال شكوى أخرى الى روما[٢٢].

وقد أثبت هيرود أنتباس أنه أهل لأن يكون حاكما على الجليل وبيريا، وكان قد تزوج ابنه ملك النبطيين، إلا أن زواجه المحرم الذى تمنعه الشريعة عام ٢٦ ميلادية من هيروديا قريبته ضايق رعاياه كما ضايق النبطيين. وكان هيرود انتباس هو الذى أطاح برأس يوحنا المعمذان وهو الذى سخر هو وجنوده من المسيح صبيحة يوم صلبه. ومات فيليب عام ٣٣ ميلاديه بعد سبع وثلاثين سنة قضاها فى حكم هادىء على ولايته التى كانت تضم قليلا جدا من اليهود. ولما لم يكن قد أنجب ولدا فقد اندمجت مقاطعته الصغيرة فى ولاية سوريا الرومانية.

تواريخ تستحق الذكر

يوحانان	١٣٥ ـ ١٠٤ ق.م
الكسندر جاناى	١٠٣ ـ ٧٦ ق.م
هيرود الأكبر	٣٩ ـ ٤ ق.م

(٢١) يوسيفوس «آثار اليهود».
(٢٢) انجيل يوحنا الاصحاح التاسع عشر / ١٢.

خاتمة

١ ـ لم يمتلك اليهود «فلسطين» ابتداء من الرجوع من بابل الى تدمير الهيكل سنة ٧٠ بعد الميلاد، ولكنهم كانوا يسيطرون فقط على مقاطعة يهودا الصغيرة.

٢ ـ غزا الحشمونيون الادوميين وسكان الجليل حيث أجبروهم على اجراء عملية الختان قسرا. وقد أصبح كل هؤلاء يهودا بالدخول فى ديانة اليهود دون أن يكونوا يهودا من أصل أسلافهم، ولم يحدث قط أن احتل اليهود السهل الساحلى.

٣ ـ أصبح الحشمونيون، فيما بعد، أوغادا قساة القلوب.

٤ ـ أعطى هيرود الأكبر للأرض المقدسة سلاما ظل أربع وثلاثين عاما ومات من المرض المبرح الذى صاحبه الهذيان واضطراب الاعصاب.

٥ ـ إبتداء من عام ١٦٦ قبل الميلاد الى عام ١٣٥ ميلادية، أى طوال ثلاثة قرون من الزمان، كانت فلسطين غارقة فى لجنة من الدم بسبب العدوان اليهودى العسكرى، إلا أنه مع الثنائية المتناقضة فى الظاهر، والتى تبدو وكأنها تلح على القصة جميعها، كانت هناك بذرة دقيقة تنمو فى قلب هذه الوحشية، وكان على هذه البذرة أن تؤدى بالعالم الى الرقة الروحانية، فكان من الكارثة التى جلبها هؤلاء المتعصبون على أنفسهم أن ظهر مفهوم الله الواحد، رب العالمين، مالك الملك، وصاحب الأمر. تلك مشيئة الله، ولا راد لمشيئته.

الفصل التاسع
انهيار الكفاح

فمن يشفق عليك يا أورشليم

ومن يعزيك

ومن يميل ليسأل عن سلامتك

سفر إرميا الاصحاح الخامس عشر / ٥

«حقا ماذا عساه أن يكون هذا الذى استفز جيش الروم على أمتنا؟ ألا يكون ذلك هو عقوق وعدم تقوى الأهلين؟ من أين إبتدأت عبوديتنا؟ أليس ذلك ناشئا من التحريض على الفتنة الذى كان سائدا بين آبائنا وأجدادنا عندما استقدمت حماقة إرسطوبولس وهيراكينوس وخلافاتنا المشتركة مع بومبى الى هذه المدينة، وعندما أخضع الله لسلطان الرومان أولئك الذين لايستحقون الحرية التى كانوا ينعمون بها؟ ان من يسكن هذه الأرض المقدسة ينبغى له أن يسلم بأن الأمور كلها تجرى بإذن الله.. أما أنتم فماذا قدمت أيديكم؟ السرقة والخيانة والكيد للانسان وارتكاب الفحشاء.. إنكم تقاتلون فى سبيل النهب والسلب وسفك الدماء والقتل.. فهذا الهيكل نفسه.. قد لوثته أيدى أولئك الذين ينتمون الى وطننا..»

نداء يوسيفوس للمدافعين عن أورشليم كى يسلموا

فلافيوس يوسيفوس: «حروب اليهود» الكتاب الخامس الفصل التاسع.

الفصل التاسع

كان هيرود أجريبا حفيد هيرود الأكبر يتلقى العلم فى روما حيث كان كلوداس ووالد كاليجولا زميله فى الدراسة. وفى عام ٢٣ بعد الميلاد عاد إلى الشرق الأدنى، ولكن سرعان ما أودت به عاداته الرومانية المبذرة الى الفاقه. وبعد مضى بضع سنين قضاها على غير هدى هنا وهناك وهو يقترض النقود، عاد إلى روما حيث وجد نفسه فى السجن. وبوفاة تيبريوس عام ٣٧ ميلادية تغير كل شىء فى روما حيث انحط مقام أصحاب تيبريوس وارتفع شأن أعدائه. وبناء على ذلك أخرج كاليجولا، الامبراطور الجديد أجريبا من السجن ونصبه ملكا على مقاطعة فيليب السابقة[1]. وبعد ذلك بوقت قصيرنفى هيرود انتباس الى بلاد الغال بسبب دسائسه وأضيفت الأراضى الخاضعة له الى تلك الخاصة بأجريبا. وفى عام ٣٩ بعد الميلاد أراد كاليجولا أن يقيم تمثالا له فى الهيكل، إلا أن أجريبا أدى له خدمة قيمة بأن أثناه عن عزمه.

كان أجريبا لايزال فى روما فى شهر يناير عام ٤٠ ميلادية عندما اغتيل كاليجولا، وبسرعة وضع أجريبا أشرعته فى الوضع الملائم حيث ساعد على رفع مقام زميل المدرسة القديم كلودياس الى كرسى الامبراطورية. واعترافا من كلودياس بالجميل أضاف يهودا الى مملكة أجريبا، بحيث جعل مملكته تشارك فى حدودها حدود مملكة هيرود الأكبر.

ولكى يكفر أجريبا عن حياته القديمة ذات السمعة السيئة أقام فى أورشليم حيث كان يقدم القرابين فى المعبد كل يوم، وهو هيرود الذى جاء ذكره فى أعمال الرسل الاصحاح الثانى عشر/ الآيات من ١ إلى ٣ حيث قطع رأس يعقوب

---

(١) خريطة (١٦).

شقيق يوحنا، وسجن بطرس. إلا أن أجريبا التقى الورع فى أورشليم كان رجلا مجربا واسع الخبرة في بيروت وقيصرية، حيث كان يقيم مهرجانات الألعاب احتفاء بكلوداس. وبينما كان يلقى خطابا فى هذه المهرجانات فى ربيع عام ٤٤، فاجأه المرض وتوفي بعد خمسة أيام[٢]. وعلى أثر وفاته عين حاكم رومانى على يهودا مرة أخرى.

وفى عام ٥٣، أعطى ابنه أجريبا الثانى إقطاعية فيليب السابقة، وأضاف نيرون، الذى ارتقى عرش الامبراطورية عام ٥٤، الى اقطاعية طبرية أربع عشرة قرية فى الجليل وهكذا أصبح الهيروديون ملوكا محترفين حتى فى المناطق التى لايوجد بها يهود.

فى غضون ذلك كانت الأحوال فى يهودا تتدهور وتتفكك، وكان اللصوص يصولون ويجولون فى أنحاء البلاد، والسيكاركين السفاحون يخفون المدى والسكاكين الطويلة فى ملابسهم ويقتلون من يشاءون. وفى عام ٦٤ ميلادية عين فلورس، صنيعة بوبيا عشيقة نيرون، حاكما على يهودا، فشرع من فوره فى حشو جيوبه، فاستولى فى مايو عام.. ٦٦ ميلادية على ما يوازى مائة وسبعين ألف من الجنيهات ذهبا من كنوز الهيكل ليدفع الضرائب الامبراطورية المستحقة. وثار الشعب فى أعقاب ذلك وسقط كثير من القتلى. ووصل أجريبا الثانى ليخطب فى الغوغاء محذرا من حماقة الثورة ضد روما، ولكنه تعرض للاهانة والقذف بالحجارة فعاد أدراجه مسرعا إلى مملكته الشمالية.

عندئذ خرج الوطنيون عن السيطرة فاستولوا على مسادا معقل هيرود السابق وذبحوا حاميتها. وفى أورشليم توسل المعتدلون والصدوقيون إلى فلورس كى يتخذ إجراء حاسما سريعا، إلا أن توسلهم ذهب أدراج الرياح.

---

(٢) أعمال الرسل الاصحاح الثانى عشر / ٢٠ ـ ٢٣.

وأرسل الملك أجريبا الثانى ألفين من فرسانه احتلوا الجزء الأعلى من المدينةوكان الثوار مرابطين فى الجزء الأدنى منها وفى الهيكل. ونشب قتال مرير ثم انتهى الأمر بانسحاب رجال أجريبا، إلا أن القوات الرومانية الاحتياطية ـ وأغلبها من الفلسطينيين غير اليهود ـ أبيدت عن آخرها. وتم الاستيلاء على حصن انطونيا الهائل الذى يطل على الهيكل حيث ذبحت حاميته. وانتقاما لذلك ذبح اليونانيون فى قيصيرية جميع يهود المدينة.

وفى جميع أنحاء البلاد، قتل اليهود الوثنيين الذين انتقموا من اليهود عندما سنحت لهم الفرصة وسيطر الارهاب على فلسطين، فاضطر والى سوريا سيستيوس جاللوس للتدخل. وكان تحت إمرته أربعة فرق (لجْيون) فى سوريا إلا أنه استعان بواحدة منها فقط، وهى الفرقة الرومانية الثانية عشر، ولو أنه أضاف اليها عددا كبيرا من القوات المساعدة المحلية.

ومع أن هذا حدث فى شهر أكتوبر عندما كان موعد هطول الأمطار متوقعا، إلا أن تحركه كان بطيئا، وقد عسكر على بعد ألف ياردة شمالى أورشليم. وقامت الفرقة (اللجيون) الثانية عشر بالهجوم، وسرعان ما اخترقت السور الخارجى ووصلت إلى انطونيا التى بدأ فى هدمها. ولو أن جاللوس، بناء على رواية يوسيفوس، شدد ضغط هجومه لسقطت المدينة، إلا أنه لم يفعل ذلك، بل فقد أعصابه وأمر بإيقاف الهجوم ثم التقهقر.

وغالبا ما يكون التقهقر خطيرا عندما يكون القتال دائما مع عدو غير نظامى، فقد احتشد اليهود، الذين كانوا على وشك التسليم، خارج المدينة فى هرج شديد وباغتوا الرومان الهائمين جنوب وادى بيت حورون الضيق. وتجمع اليهود على الجبال حيث ألقوا على الرومان سيلا من الحجارة وصبوا على طوابيرهم وابلا من القذائف[٣].

---

(٣) خريطة (١٧).

وقد قتل قرابة ستة آلاف جندى فى هذه الكارثة وترك جاللوس مهماته وأدوات حصاره والتجأت شرذمة واهنة العزيمة إلى أنتيباتريس. وبدت الامبراطورية الرومانية فى أعين الثوار الذين أسكرتهم نشوة الانتصار وكأنها قد توقفت عن الوجود، فأزيل من يهودا كل أثر من آثار روما.

وباتت فلسطين فى فوضى ضاربة الأطناب، ويقول يوسيفوس أن كثيرا من اليهود البارزين تنبأوا بالنهاية المتوقعة فغادروا أورشليم فى هدوء، أما الطائفة المسيحية الصغيرة، وهى تذكر أن سيدها قد منح بركته لصانعى السلام، فقد آثرت أن تتحرك الى بيللا فيما وراء نهر الأردن، وكانت مدينة من مجموعة المدن اليونانية (ديكابولس).

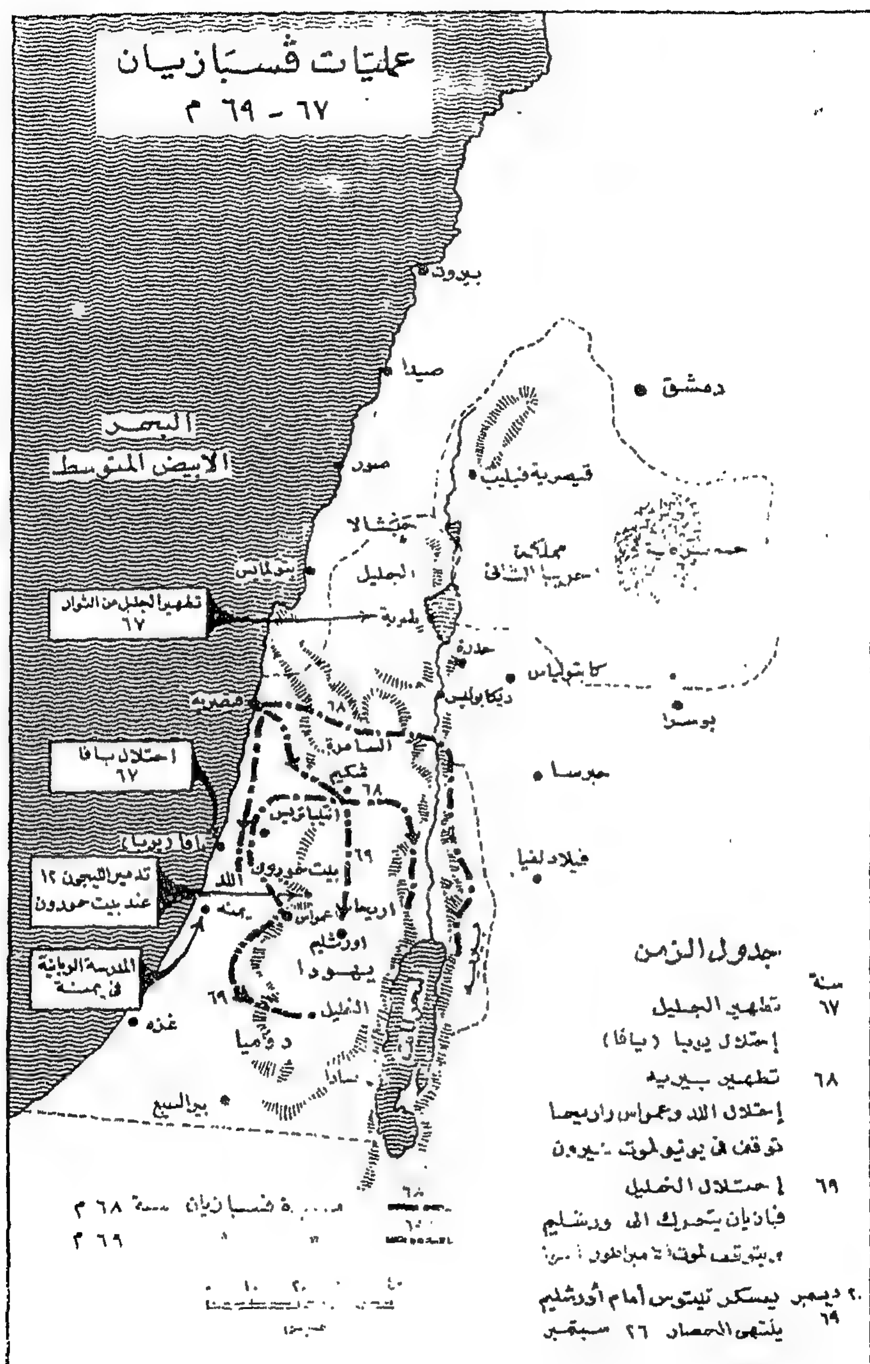
وفى أورشليم أقام الثوار حكومة، ونودى بالحاخام الأعظم أنانوس رئيسا للدولة يساعده بن جوريون. وقد وقع الاختيار على المؤرخ اليهودى يوسيفوس ليكون حاكما على الجليل حيث اتخذ مقره فى فيسيفوريس[(٤)].

إلا أنه، على نحو ما يحدث دائما فى فلسطين انشق الثوار على أنفسهم وأصبح كل من يستطيع من قطاع الطرق أن يجند عصابة، قائدا مستقلا. وحقد زعماء العصابات فى الجليل على يوسيفوس ونشبت حرب عصابات وحشية بينه وبين يوحنا زعيم عصابة جيشالا.

وفى شهر فبراير عام ٦٧ ميلادية عين نيرون فسبازيان قائدا عاما فى يهودا (وكان فسبازيان قد نال شهرته بعد أن استولى على جزيرة وايت إبان حملة كلاديوس على بريطانيا سنة ٤٣ ميلادية). وكان فسبازيان الذى يناهز الثامنة والخمسين من عمره يرتدى زى الجندى العادى، وكان حريصا مدققا أكثر منه

---

(٤) يوسيفوس: «حروب اليهود»، خريطة ١٧.



عمليات ڤسبازيان
٦٧ - ٦٩ م
البحر
الابيض المتوسط
بيروت
صيدا
دمشق
صور
قيصرية فيليب
الجليل
بتولمايس
تطهير الجليل من الثوار
٦٧
طبرية
جدرة
كابتوليس
ديكابوليس
بوسترا
قيصرية
السامرة
شكيم
جيرسا
احتلال يافا
٦٧
فيلادلفيا
يافا (يوبا)
بيت حورون
اللد
تدمير الليجون ١٢
عند بيت حورون
يمنة
اريحا
عمواس
اورشليم
يهودا
المدرسة الربانية
في يمنة
غزه
الخليل
بيرالسبع
جدول الزمن
سنة
٦٧ تطهير الجليل
إحتلال يوبا (يافا)
٦٨ تطهير بيريه
إحتلال اللد وعمواس واريحا
٢٠ ديسمبر ٦٩ يعسكر تيتوس أمام أورشليم
يلتهي الحصار ٢٦ سبتمبر

خريطة (١٧)

بارعا عبقريا. ولم يكن ينوى أن يعرض نفسه لكارثة كما فعل جاللوس، وكان يعرف أن تقدم الجيش النظامى فى صورة قاسية ضارية من شأنه تدمير معنويات أعدائه غير النظاميين. وكان ابنه تيتوس البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما يعمل فى هيئة أركان حربه.

ويقول يوسيفوس، أنه كان تحت إمرة فسبازيان ثلاثة فرق رومانية (لجيون)(٥) قوامها ثمانية عشر ألف أو عشرين ألف مقاتل، ومعهم أيضا عدد أكبر من الجنود المحليين ـ الفلسطينيين الوثنيين والنبطيين والسوريين.

وبعد أن استرجع فسبازيان الجليل ضرب الحصار على جوتاباتا، وهى مدينة حصينة يحيط بها الوحل من كل جانب، ويقوم على الدفاع عنها الحاكم يوسيفوس بنفسه. وبعد مقاومة عنيفة دامت سبعة وأربعين يوما أمكن التغلب على المدينة بعد أن تسلل تيتوس مع فئة قليلة من رجاله قبل الفجر وفتح أبوابها. وقتل أغلب المدافعين عن المدينة، إلا أن يوسيفوس أخذ أسيرا ثم صار صديقا شخصيا لتيتوس الذى كان مثله فى العمر.

وانقضى صيف سنة ٦٧ ميلادية فى هذه العمليات وفى احتلال طبرية وتاريكيا وجوبا، وانتهى الأمر باستيلاء الرومان على جيشالا، ففر زعيم العصابة المحلى يوحنا الى أورشليم حيث استطاع، بتفاخره بجرأته على الرومان، أن يجمع كثيرا من الأعوان.

وكانت أورشليم غارقة فى الفوضى، حيث اندفع السفاحون من جمع أنحاء البلاد الى المدينة لسلب المواطنين المحترمين. وكتب يوسيفوس: «إن أولئك الذين كانوا تواقين للحرب بشبابهم وجرأتهم قسوا على المتقدمين فى السن المتبصرين لعواقب الأمور. ولقد اجتمع هؤلاء المغامرون على نهب الشعب فلم يكن هنالك

(٥) كتب سبتونيوس أن فسبازيان كان لديه فرقتان إضافيتان.

في مجال البربرية والطغيان اختلاف بين أولئك الذين ينتمون الى أمة واحدة وبين الرومان».

ووجد «الزيلوت» (طائفة يهودية متعصبة قديمة كانت وطنية متطرفة)، فلاحا لايدرى من أمر الدنيا شيئا فألبسوه لباس رجال الدين ووسموه، وسط عاصفة من الضحك والمجون، حاخاما أعظم. ووطد الزيلوت أنفسهم فى الهيكل الذى أحالوه الى قلعة مسلحة وأهاب أنانوس بالشعب أن يطرد الزيلوت من الهيكل. وكان الجمهور يود إطاعة أمر الحاخام ولكنه هزم على يد رجال العصابات الذين قتلوا عدد ـبيرا من الجمهور.

وبعد ذلك، أرسل الزيلوت فى طلب الادوميين الذين اندفعوا إلى المدينة حيث نهبوا البيوت وقتلوا كثيرا من الناس بما فيهم أنانوس الحاخام الأعظم. ويبدو أن ما يقرب من ثلثى رجال العصابات فى أورشليم كانوا من الأدوميين أو سكان الجليل أو البيرائيين ممن أجبروا بواسطة الحشمونيين على اعتناق الديانة اليهودية.

* * *

وفى أوائل عام ٦٨ ميلادية طهر طابور رومانى المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وحين سمع فسبازيان بالثورة فى بلاد الغال على نيرون، فإنه خشية قيام الحرب الأهلية، عجل بعملياته الحربية. وتحرك خارجا من قيصيرية ليستولى على اللد ووضع الفيلق العاشر فى عمواس.

بعدئذ عبر فسبازيان الجبال عن طريق شكيم واستولى على أريحا وقام بتحصينها. وفى شهر يونيو عام ٦٨ ميلادية كان على أهبة الاستعداد للتحرك إلى أورشليم، وعندما سمع ـبأ وفاة نيرون وقبول جلبا تولى زمام الامبراطورية أوقف تقدمه وأرسل تيتوس إلى روما ليسأل عن أوامر الامبراطور الجديد.

ولما وصل تيتوس الى كورنثوس سمع بمقتل جاليا فى شهر يناير على ٦٩ ميلادية وقبول أوثو عرش الامبراطورية. وعاد تيتوس الى أبيه الذى ظن أن الحرب الأهلية قد انتهت فأستأنف تقدمه عبر السامرة حيث عسكر على مسيرة أميال شمال أورشليم. واستولت الفرقة الخامسة على الخليل.

عندئذ عقد يوحانان بن زكاى، وهو واحد من أبرز أحبار ذلك العصر، العزم على الهرب من أورشليم. ولما كان يخشى رجال العصابات فقد تظاهر بالموت وحمل فى تابوت الموتى على أكتاف تلاميذه. وما أن ابتعد عن المدينة حتى ذهب الى فسبازيان وحصل على الأذن بافتتاح مدرسة لدراسة الشريعة فى يفنه على السهل الساحلى وكان عمله هذا هو ما غير تاريخ اليهودية.

وفى مستهل صيف عام ٦٩ ميلادية كان كل شيء معدا للهجوم على أورشليم عندما جاءت الأنباء بهزيمة أوثو وتقدم فيتليوس الى روما، فأمر فسبازيان بالتوقف مرة أخرى. إلا أن الفيالق الجرمانية التى جاءت مع فيتليوس كانت فى غاية الشراسة، وكانت روما شديدة الاستياء من امبراطورها الجديد، الذى كان على حد وصف سيتونيوس رجلا «اصطبغ بجميع ألوان الخسة والحقارة». وكانت من المقربين الى نيرون، ورفضت فرق الدانوب تقديم ولاءها له.

وفى أول يوليو سنة ٦٩ ميلادية أعلنت الفرقتان (اللجيونان) المرابطان فى مصر ولاءهما لفسبازيان، وفى اليوم التالى حذت حذوهما الفرق الأربعة المرابطة فى سوريا تحت قيادة موسيانوس. وكان تحت إمرة فسبازيان نفسه ثلاثة فرق. ومع أنه نودى الآن به (فسبازيان) إمبراطورا، الا أنه ظل يمارس عمله الروتينى المعتاد دون أن يبدو عليه أى تفاخر أو استعلاء(٦). ثم اجتمع مجلس أعلى فى بيروت فقرر أن يزحف موسيانوس على روما، وأن ينتظر فسبازيان فى مصر، وأن ينهى تيتوس الحرب فى يهودا. وفى العشرين من شهر ديسمبر عام ٦٩ نادت روما بفسازيان إمبراطورا،

---

(٦) تاسيتوس، «التاريخ».

وقتل فيتيليوس، ولكن فسبازيان انتظر فى الاسكندرية حتى الصيف، أى عندما يصبح البحر مأمونا للملاحة قبل أن يبحر الى روما.

* * *

ولعدة أشهر بينما كانت العمليات متوقفة تنتظر نتائج الصراع على العرش الامبراطورى لم يقم اليهود بإعداد أنفسهم للحرب القادمة ولكنهم استمروا فى محاربة بعضهم بعضا. وفى أورشليم احتفظ يوحنا الجيشالى والجليليون بأعلى المدينة بينما احتفظ الزيلوت بالهيكل. وجعلت حرب فرعية بالخناجر والسكاكين الشوارع الضيقة تجرى بالدماء. وعندئذ ظهر رجل يدعى شمعون برجيورا يعيش مع عصابته على نهب أهالى منطقة الخليل. ودعا مواطنوا أورشليم شمعون الى مدينتهم ليحميهم من يوحنا الجيشالى والزيلوت. واحتل شمعون مع عصابته الجزء الأوسط من المدينة وأصبحت الفوضى أكثر شيوعاً وتأكيدا. وبدأت كل العصابات تستخدم المدفعية (القذائف) ملقية بأحجار كبيرة كانت تطن فوق الأسطح ثم تشق طريقها بصوت مزعج الى داخل المبانى. وقد نهبت معظم المؤن التى جلبت وجمعت من أجل الحصار بواسطة هذه العصابات.

وفى شهر أبريل سنة ٧٠ ميلادية تقدم تيتوس من قيصيرية الى أورشليم. وكان جيشه يتألف من الفرق (اللجيون) الثلاثة التى كانت تحت قيادة فسبازيان من قبل ـ الفرقة (اللجيون) الخامسة فى عموس، والعاشرة فى أريحا، والخامسة عشر فى الشمال ـ وقد أضيف الى هذه الفرق الثلاثة الفرقة الثانية عشر التى كانت متلهفة على محو العار الذى وصمت به عندما كانت تحت قيادة جاللوس. وبعد وصول ألفين من الامدادات من مصر وثلاثة آلاف من سوريا بالإضافة إلى القوات الإضافية المحلية بلغ تعداد هذا الجيش خمسة وستين ألف مقاتل[٧].

---

(٧) ستيورات بيرون: «الهيروديون الأواخر».

وكان تيتوس على وشك الوقوع فى أسر جماعة انبرت للهجوم من المدينة بينما كان يقوم بعملية استطلاع على صهوة جواده. وفى العاشر من شهر مايو سنة ٧٠ ميلادية تحرك الرومان الى أن صاروا على بعد ثلثمائة ياردة من الأسوار. وكانت الفرق الثانية عشر والخامسة عشر فى الخط الأمامى بينما أبقيت الفرقة الخامسة فى الاحتياط. وقامت الفرقة العاشرة التى تحركت من أريحا، باحتلال جبل الزيتون.

ومع أن يوحنا الجيشالى وشمعون برجيورا واليعازر الزيلوتى اتفقوا فى بادىء الأمر على مقاومة الرومان، إلا أنهم الآن استأنفوا حروبهم الخاصة فأخذ أحدهم يطعن الآخر فى الطرقات الضيقة بينما كانت آلة الحرب الرومانية تدك الأسوار وتهشمها «فلم يكابدوا من الرومان أسوأ مما كابد بعضهم من بعض»[٨].

وسرعان مااخترق الرومان السور الخارجى، ثم تقدموا الى السور الثانى. وكان سيمون يدافع عن النصف الغربى من هذا السور بينما دافع يوحنا الجيشالى عن النصف الشرقى وانطونيا. وفى الرابع من شهر يونيو، وبعد حصار دام خمسة وعشرين يوما استولى الرومان على السور الثانى. وكانت مداخل المدينة من الشرق والجنوب والغرب محمية بالأخاديد بينما سيطرت قلعة انطونيا على المنطقة التى يتحتم على الرومان، أن يتقدموا منها. وبدأ المهاجرون، وهم أشبه بخلية النمل، العمل فى ملء الحفرات لكى يتمكنوا من إحضار ابراجهم المتحركة وآلات هدم الأسوار الى أسوار أنطونيا، إلا أن اليهود انبروا لهم فى هجمة محمومة واستطاعوا أن يحرقوا الأبراج الخشبية المتحركة.

وقرر تيتوس أن يحيط المدينة كلها بمتراس بارتفاع تسعة أقدام على امتداد خمسة أميال. وقد أقيم هذا المتراس فى وقت مذهل، إذ تم بناؤه فى ثلاثة أيام

---

(٨) يوسيفوس: «حروب اليهود».

إستيلاء تيتوس على أورشليم

١٠ مايو ٧٠
معسكر الروم
٣٠٠ ياردة من السور

الليجون ٥
الليجون ٧
الليجون ٥

٢٤ يوليو ٧٠
الروم يستولون
على أنطونيا

السور الخارجي
خندق
الزيلوت
الفيلق ١٠
جبل
الزيتون
وادي

الرومان
يستولون على
السور الثاني
٤ يونيو ٧٠

السور الثاني
المعبد

الاستيلاء على
المعبد وحرقه
٢٩ أغسطس ٧٠

الفناء
السور الأول
قصر هيرود
المدينة العليا
يوحنا الجيشالي

الروم يستولون
على المدينة العليا
٢٦ سبتمبر ٧٠

المدينة
السفلى
سيمون باريجورا
وادي تيروبيون
وادي هنوم

خطوط تقدم الروم

٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
ياردة

ملاحظة: وادي تيروبيالون
ردم الآن

خريطة (١٨)

فقط، وكان جنود الروم عمالا رائعين، وبإقامة هذا المتراس تعذر وصول المؤن والامدادات الى المدينة التي حكم عليها بالهلاك، وحاول البعض أن يهرب بعد أن قضى الأمر، إلا أنهم ضبطوا وصلبوا على مرأى من المدافعين.

وتجدد الهجوم على أنطونيا، وفى الساعة الثالثة من صباح الرابع والعشرين من شهر يوليو زحف أثنا عشر جنديا ومعهم نافخ البوق وحامل رمز الفرقة الخامسة عبر القلعة المحطمة حيث ظهروا على الأسوار ونفخ نافخ البوق فى بوقة وما أن سمع الصوت حتى تقدمت الفرقة واندفع تيتوس وحرسه الخاص خلال القلعة المهدمة الى أبواب الهيكل حيث أوقع المهاجمون فى عراك يائس بالسيوف والخناجر مع الزيلوت[٩].

ورغبة من تيتوس فى انقاذ الهيكل أرسل يوسيفوس ليهيب بالمدافعين أن يستسلموا فذهب يوسيفوس ومعه بعض زعماء اليهود ومن بينهم إثنان من الحاخامات الكبار السابقين ممن كانوا مع الرومان. وطلب إلى العصابات أن تقبل الصلح، إلا أن العصابات سخرت منه، واستؤنف القتال وأضرمت النيران فى أبواب الهيكل.

ومرة أخرى أمر تيتوس بالحفاظ على الهيكل، ولكن فى عراك بالقاعة ألقى أحد الجنود مشعلا، وما هى إلا دقائق معدودة حتى كسا اللهيب تحفة هيرود، وذلك فى التاسع والعشرين من شهر أغسطس سنة ٧٠ ميلادية. وكان هيرود أجريبا الثانى هو وجيشه يحاربون فى صفوف الرومان، وكانت أخته بيرينيس عشيقة تيتوس. ولعل هؤلاء ويوسيفوس واليهود البارزين الكثيرين فى معسكر الروم هم الذين أقنعوا تيتوس أن يأمر بالحفاظ على الهيكل.

وسرعان ما أقتحم الروم المدينة السفلى من الهسكل حاجزين ومطوقين الثوار فى المدينة العليا، ومرة أخرى عرض تيتوس عليهم الصلح، وفى هذه المرة جاء

(٩) يوسيفوس، «حروب اليهود».

تيتوس شخصياً ليتحدث الى الزعماء الذين رفضوا عروضه، وقد أطلق سراح أربعين ألفا من المواطنين الذين استسلموا.

وفى السادس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٧٠ ميلادية استولى الروم على قصر هيرود فى المدينة العليا بعد أن قتلوا أو أسروا المدافعين القلائل الذين بقوا على قيد الحياة. ومات عدة آلاف من الآسرى اليهود فى حلبة المصارعين وأرسل كثير منهم كعبيد الى روما، وقد أعتق أغلب هؤلاء بعد ذلك وانضموا الى الجالية اليهودية الكبيرة التى كانت تعيش فى المدينة.

* * *

إن النظرية القائلة بأن اليهود تعرضوا للاضطهاد بصفة دائمة نظرية صائبة بصفة جزئية فقط. حقيقة كان حصار الرومان لأورشليم مأساة مفزعة، ولكن لنحاول تحليل بعض العوامل على أساس تاريخى:

أولا، لم يكن المتطرفين الذين ثاروا ضد روما هم أغلبية اليهود فى فلسطين. ومما يثير الدهشة أن أكثرهم كان من سكان الجليل أو الادوميين الذين أجبروا على اعتناق الديانة اليهودية وممن لم يعترف بهم اليهود باعتبارهم، من غير السلالة اليهودية الأصيلة، ولايبدو أن وازعهم كان وازعا دينيا، حيث كانوا يقتلون الحاخامات ويدنسون الهيكل، ولعل وازعهم كان بغض الأجانب وكراهتهم وشهوة السلطة والجشع. وقد هرب الصدوقيون والفريسيون البارزون من المدينة على قدر ما أمكنهم.

ومن الأرجح أن طوائف اليهود المسالمة كانت تتمتع بحماية تيتوس وفسبازيان فلم تتعرض لاضطهادهما. حقيقة، كانت المعاملة التى يلقاها الأسرى معاملة وحشية، إلا أنها كانت متمشية مع العادات المرعية فى ذلك الوقت، حيث رأينا

الكسندر جاناى ملك يهودا يصلب ثمانمائة من إخوانه اليهود، وعندما استولى اليهود على السامرة ذبحوا سكانها جميعا.

ثانيا، لايمكن القول بصفة دقيقة، أن تيتوس طرد اليهود من فلسطين، أو حتى من يهودا. وكان أولئك الذين يعتنقون الديانة اليهودية فى العالم خمسة أمثال اليهود فى فلسطين، كما كانت هناك مشاغبات من اليهود فى الاسكندرية وطرابلس فى بداية الحرب، ولكن فيما عدا ذلك، لم يتأثر اليهود فى العالم، بل أن شيئا أكثر مغزى، هو أن الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها لم ينتقص منها شيء، والظاهر أن الحكومة الامبراطورية اعتبرت هذه الحوادث، مجرد تمرد فى فلسطين، ولم تعتبرها ثورة من جانب اليهود. ويبدو أن السبب هو أن كثيرا من يهود العالم كانوا من المحليين الرومان المتهودين أو الأسبان أو الغاليين أو البربر أو الجرمان ـ ممن لم تكن لهم روابط مع فلسطين.

إن التدمير الذى أصاب يهودا وأورشليم لايمكن أن نطلق عليه إسم اضطهاد دينى، لأن كثيرا من اليهود كانوا يساعدون الروم، حيث كان فى معسكر الروم اثنان من الحاخامات العظام السابقين، كما أن أجريبا الثانى، الملك اليهودى، إنحاز هو وجيشه الى جانب روما. ولايعنى هذا بالطبع أن اليهود فى فلسطين كانوا يميلون إلى الروم، إلا أن الطبقات المتعلمة كانت تدرك أن الثورة يجب أن تفشل، وبالتالى كان أغلب المدافعين عن أورشليم، من الفلاحين الجهلاء.

وقد رأينا أن الحاخام يوحانان بن زكاى حصل على إذن من فسبازيان بافتتاح مدرسة حاخامية فى يفنه، وهو تحول غريب فى التاريخ اليهودى. فمن المنازعات الضارية للزيلوت المتعصبين الى حوار معلمى الشريعة المثقفين، ومن المحاكم الدموية الخاصة بشمعون برجيورا ويوحنا الجيشالى والزيلوت اليعازار، الى الباحثين المسالمين عند جمليئيل،(١٠) ومن قعقعة الأسلحة وفوضى المدن المحاصرة

(١٠) جمليئيل الصغير، وهو غير معلم بولس.

ومساوىء القحط والمذابح والحرائق الى المجا دلة فى اللحوم غير النظيفة والأحلام الجديدة ومراعاة عطلة السبت(١١).

ويبخس كانون ميلمان تقدير أهمية يفنه حيث ارتفعت الديانة اليهودية الروحانية من جديد فوق «الدم والتراب»، وفوق التجمعات السلالية والكراهية القيصرية الى مرتبة الاخاء الحقيقى، ويقول الحاخام يوحانان إن «اليهودى هو كل انسان لايعبد الأصنام».

ويقول الحاخام بريزين «لقد أعلنت الديانة اليهودية فى يفنه بصفة رسمية أن ذرية ابراهيم لاتعتمد على الدم والتراب، بل إنها تتخطى جميع الحواجز العنصرية والقومية وتدعو كل جائع الى مائدتها ليأكل منها بغض النظر عن معاملة أسلافه الأوائل لليهود»(١٢).

وظل بعض الأحبار يصرون على الختان والعماد، «إلا أن البعض الآخر جعل هذه الطقوس الرسمية غير أساسية، ويالها من مأساة أن تهزم هذه المفاهيم الروحانية الكريمة المرة تلو المرة بالإنعزالية والتعصب الأحمق، ورأى بعض الأحبار فى الشتات امتيازا وليس قصاصا، فقد كان من واجب اسرائيل أن تنشر الدين الروحانى بين الأمم جميعا «وكان من فضل إله على إسرائيل أن نشرهم بين الأمم».

«ويعتبر كل من ١ خل فى دين اليهود وكأنه طفل يهودى حديث الولادة انحدر من ذرية ابراهيم بالمفهوم العملى والروحى وهكذا تتحطم كل علاقة تربطه بأصله الوثنى القديم.. فلا تربطه صلة الدم بأقاربه بعد»(١٣).

وقرر الأحبار فى يفنه أيضا أن العهد القديم لم يوح به من الله كلمة فكلمة وحرفا بحرف بل كتبه الانسان، أما المسيحيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا

---

(١١) هنرى هارت ميلمان، «تاريخ اليهود».

(١٢) الحاخام ريزين، «رد فعل الوثنيين للمثل اليهودية».

(١٣) المرجع السابق.

حتى عام ٧٠ ميلادية، فقد كانوا يتمسكون بالاعتقاد اليهودى السابق، بأن العهد القديم يتضمن كلمات الله بنصها وروحها. وبناء على ما ذكره الحاخام بريزين كان الأحبار اليهود يقيمون العهد القديم على أساس أنه مصدر للموعظة أكثر منه ذو صفة تاريخية. وهكذا أنتج تدمير الهيكل عام ٧٠ بعد الميلاد أثرا روحانيا، كما فعل الغزو البابلى تماما، من حيث أنه ربط اليهود جميعا برباط روحانى وهكذا «أثبتت مدرسة يفنه أكثر مما أثبت أى حدث فى التاريخ أن الروح أقوى بأسا من السيف»[١٤].

* * *

كان تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) فى أواخر أيامه قائما بحملة عسكرية فى بابل وكان اليهود فى تلك الدولة يدينون بالولاء لبارثيا فكتبوا الى يهود مصر وطرابلس أن يثوروا ضد روما. فاستجابوا لذلك بالهجوم على جيرانهم الوثنيين. وحاول هادريان، الذى كان يعارض الحرب، عبثا أن يهدىء من ثائرة هؤلاء اليهود عندما خلف تراجان كامبراطور.

وعندما نفذ صبر هادريان آخر الأمر، عكس الاية فغير مسلكه السلمى (كما فعل أنطوخيوس أبيفانس من قبل) وأصدر تشريعا يقضى بتحريم الختان. فثار رجل فى يهودا يطلق على نفسه اسم «بركوخبا» (ابن الكوكب)، وقد باركه الحاخام عقيبا، عالم التلمود الشهير، ووصفه بالمسيح المخلص. وفى عام ١٣٥م أخمدت ثورة بركوخبا بعد أن أريقت دماء كثيرة، وأعدم الحاخام عقيبا، وأعيد بناء أورشليم كمدينة رومانية سميت باسم إيليا كبتولينا، وهكذا «فشل أسلوب السيف فى الحفاظ على حياة اليهود، وكان الأسلوب الروحانى هو الأسلوب الآخر الذى اتبع بحماس شديد.. فلقد قدر لليهود الا يقيموا مملكة على هذه الأرض»[١٥].

---

(١٤) سليمان جريزل: تاريخ اليهود، إقتباس موشى منوحين.

(١٥) موشى منوحين مرجع سابق الذكر.

ولم يتحول كل يهود فلسطين إلى الإدراك الروحانى، بل كانت هناك أيضا حركة عنيفة من كراهية الأجانب كراهية شديدة..وأعدت التوجيهات فى يهودا بغرض قطع اى اتصال بالعالم، وحرم أكل كل شيء يتناوله غير اليهود كما حرم سماع شهادة غير اليهود أو قبول هداياهم، بل حتى حرم أيضا تعلم لغاتهم.

ومع ذلك كان أغلب أحبار اليهود لايزالون يؤمنون بأن واجب إسرائيل هو تغيير ديانة العالم، وعلى أية حال كانت ردود الفعل الشديدة هذه مقصورة على يهودا. وفى جميع أنحاء امبراطورتى روما وبارثيا الشاسعتين استمر التعاون مع الوثنيين على أساس قبول قوانين التحريم بالنسبة لبعض الأطعمة «وطوال الفترة موضوع هذه الدراسة (حكم هادريان وما بعده) كانت مراتب الديانة اليهودية يشغلها المهتودون بصفة دائمة، ولم يكن الختان ليعوقهم عنها، ولم يكن الاضطهاد ليحول بينهم وبينها»[١٦].

تواريخ تستق الذكر

تنصيب هيرود أجريبا الإول ملكا على أورانتيس والجليل	٣٧ ميلادية
نفى هيرود انتيباس الى بلاد الغال	٣٧ ميلادية
الحاق يهودا بمملكة أجريبا بأمر كلاديوس	٤٠ ميلادية
وفاة هيرود أجريبا الأول	٤٤ ميلادية
أجريبا الثانى ملكا على أورانتيس	٥٣ ميلادية
هزيمة سيستيوس جاللوس	٦٦ ميلادية
فسبازيان يطهر الجليل	٦٧ ميلادية
ايقاف العمليات الحربية نظرا لموت نيرون	٦٨ ميلادية

---

(١٦) الحاخام ريزين: مرجع سابق الذكر.

هرب يوحانان بن زكاى الى يفنه	٦٩ ميلادية
حصار أورشليم وسقوطها	٧٠ ميلادية
ثورة بركوخبا	من سنة ١٣٢ ـ ١٣٥ ميلادية

أباطرة الرومان

أوغسطس	سنة ٢٧ ق.م ـ سنة ١٤ ميلادية
تيبريوس	١٤ ـ ٣١ ميلادية
كاليجولا	٣٧ ـ ٤١ ميلادية
كلاديوس	٤١ ـ ٥٤ ميلادية
نيرون	٥٤ ـ ٦٨ ميلادية
جالبا، أوثو، فيتليوس	٦٨ ـ ٦٩ ميلادية
فسبازيان	٧٩ ـ ٨١ ميلادية
تيتوس	٨١ ـ ٩٦ ميلادية
دوميتان	٩٦ ـ ٩٩ ميلادية
نيرفا	٩٩ ـ ١١٧ ميلادية
تراجان	١١٧ ـ ١٣٨ ميلادية

خاتمة

تحت حكم الرومانيين إنطلقت يهودا مرة أخرى فى عزلتها الحربية التى أدت إلى تدهور الديانة الروحانية وقيام الكراهية العنصرية كما حدث تحت حكم الحشمونيين.

الفهرست

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٣
«المنفى ـ الحل العصابى» (أ. ب يهوشواع)	٣٠
الفصل الأول: آباء ورعاة	٥٢
الفصل الثانى: الرب يهوه	٧١
الفصل الثالث: الغزو	٨٦
الفصل الرابع: أيام مجيدة	١٠٠
الفصل الخامس: التفسخ والأفول	١١٨
الفصل السادس: العزلة أو الدولية	١٣٥
الفصل السابع: اليهود يملأون العالم	١٥٩
الفصل الثامن: الهيروديون	١٧٩
الفصل التاسع: إنهيار الكفاح	١٩٩
الخرائط	
١ ـ طبوغرافية الشرق الأدنى.	٥٥
٢ ـ سيناء والخروج	٦٥
٣ ـ الغزو	٨٢
٤ ـ الفتح	٩٢
٥ ـ فلسطين فى عهد شاؤل (أول ملك على اليهود)	١٠٣
٦ ـ فلسطين أيام مملكة إسرائيل ومملكة يهودا	١١٢

الموضـــــوع	الصفحة
٧ ـ فلسطين تحت حكم داود وسليمان	١٢٣
٨ ـ الأمبراطوريتان الأشورية والبابلية	١٣٠
٩ ـ فلسطين بعد العودة من بابل	١٣٩
١٠ ـ إمبراطوريتا السلوقيين والبطالسة	١٤٦
١١ ـ يهودا تحت حكم الحشمونيين الأوائل	١٥١
١٢ ـ الأمبراطورية الرومانية	١٦٧
١٣ ـ المناطق التى اجتاحها الكسندر جاناى (يوناثان)	١٨٣
١٤ ـ تسوية بومبى	١٨٦
١٥ ـ ممتلكات هيرود الأكبر	١٩٥
١٦ ـ فلسطين أيام يسوع المسيح	١٩٦
١٧ ـ عمليات فسبازيان	٢٠٤
١٨ ـ إستيلاء تيتوس على أورشليم	٢١٠
أشجار السلالات	
١ ـ البطالسة ـ السلوقيون	١٤٨
٢ ـ الحشمونيون	١٥٤
٣ ـ الهيروديون	١٨٧

كان إبراهيم (عليه السلام) هو المهاجر الأول من أرض الرافدين إلى أرض كنعان، كما كان أيضا النازح الأول إلى مصر، عندما حل القحط بالبلاد. ومن بعده ارتحل يعقوب وأبناؤه إلى مصر ليقيموا فيها ردحا من الزمن إلى أن خرجوا منها، عائدين مرة أخرى إلى أرض كنعان، لتنشأ هناك الديانة اليهودية متأثرة بالديانات المصرية والبابلية والكنعانية إلى أن أصبحت على ماهى عليه محملة بكل الشحنة الدينية والثقافية لحضارات المنطقة. وبالرغم من أن الديانة اليهودية فى صياغتها الأخيرة، سعت لتثبيت فلسطين فى الوعى والتراث الدينى بإعتبارها «أرض الميعاد»، إلا أن اليهود ظلوا على مدار وجودهم التاريخى لايقيمون فيها، ويفضلون البقاء خارجها، إعتبارا من فترة السبى البابلى (القرن السادس ق.م) وحتى الآن. بالرغم من أن أبوابها كانت فى معظم فترات التاريخ مفتوحة أمامهم دون قيود، إلا أنهم إكتفوا بترديد عبارات الشوق «إلى العام القادم فى أورشليم»، وإنتظار «المسيح المخلص» الذى سيقودهم إليها. حول هذا التلازم بين تطور العقيدة اليهودية وبين فك صور

القديمة فى إقامة كيان

فى وجه الحضارات الكبر

وبين نشأة ظاهرة الشتات

بفلسطين، إلى أن أصبح

للوجود اليهودى، يدور مو

يلقى بظلال الماضى اليهو

على الواقع المعاصر الذى

ال



التعريف بالمؤلف

أستاذ ورئيس قسم اللغة العبرية وآدابها

كلية الآداب جامعة عين شمس

صدرت له المؤلفات التالية :

١ـ النشأة وتطوير الطيران الإسرائيلى (١٩٧٢)

٢ـ جولة فى الدين والتقاليد اليهودية (١٩٧٥).

٣ـ اللغة العبرية للمبتدئين (١٩٧٨).

٤ـ تاريخ وتطور اللغة العبرية (١٩٧٨).

٥ـ لمحات من الأدب العبرى الحديث (١٩٧٨).

٦ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية (١٩٨٦).

٧ـ الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب فى الأدب الإسرائيلى (١٩٨٨).

٨ـ عجز النصر – الأدب الإسرائيلى وحرب ١٩٦٧ (١٩٩٠).

٩ـ الشخصية اليهودية فى أدب إحسان عبد القدوس (١٩٩٢).

١٠ـ الوصايا العشر – دراسة مقارنة فى اليهودية والمسيحية والإسلامية (١٩٩٣).

١١ـ القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة (١٩٩٤).

١٢ـ إشكالية الهوية فى إسرائيل (١٩٩٧).

١٣ـ قواعد اللغة العبرية (١٩٩٦).

١٤ـ الرموز الدينية فى اليهودية (١٩٩٦).

١٥ـ موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية (٢٠٠١).

١٦ـ العبرانيون وبنو إسرائيل فى العصور القديمة بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية (٢٠٠١).

١٧ـ اليهود واليهودية فى العصور القديمة بين التكوين السياسى وبداية الشتات (٢٠٠٦).

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طموم – المنيل القاهرة تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧